

وزارة المعارف العمومية

كتاب كليلة ودمنة

تأليف
بيدبا الفيلسوف الهندي

ترجمه الى العربية في صدر الدولة العباسية
عبد الله بن المقفع

قررت وزارة المعارف العمومية بتاريخ ٤ من ربيع الأول
سنة ١٣٢٠ (١٠ من يونيو سنة ١٩٠٢ رقم ٨٩٦)
طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدرسه بالمدارس الأميرية

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٧

وزارة المعارف العمومية

كتاب كليلة ودمنة

تأليف
بيدبا الفيلسوف الهندي

ترجمه الى العربية في صدر الدولة العباسية
عبد الله بن المقفع

فردت وزارة المعارف العمومية بتاريخ ٤ من ربيع الأول
سنة ١٣٢٠ (١٠ من يونيو سنة ١٩٠٢ رقم ٨٩٦)
طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدريبه بالمدارس الأميرية

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٧

فهرس كتاب كيلة ودمنة

| صفحة | |
|------------|---|
| ١ | خطبة الكتاب |
| ٩ | باب مقدمة الكتاب |
| ٤٢ | » بعثة برزويه إلى بلاد الهند |
| ٥٨ | » عرض الكتاب — ترجمة عبد الله بن المقفع |
| ٧٤ | » برزويه — ترجمة بزرجمهر بن البختگان |
| ٩١ | » الأسد والثور — وهو أول الكتاب |
| ١٥٤ | » الفحص عن أمر دمنة |
| ١٧٧ | » الحمامة المطوقة |
| ٢٠٠ | » البوم والغربان |
| ٢٣٢ | » القرد والغليم |
| ٢٤٠ | » الناسك وابن عرس |
| ٢٤٤ | » الجرذ والسنور |
| ٢٥٣ | » ابن الملك والطائر فترة |
| ٢٦٢ | » الأسد والشجر الناسك وهو ابن آوى |
| ٢٧٤ | » ايلاذ وبلاد وايراخت |
| ٢٩٤ | » اللبوة والإسوار والشجر |
| ٢٩٩ | » الناسك والضيف |
| ٣٠١ | » السائح والصائغ |
| ٣٠٨ | » ابن الملك وأصحابه |
| ٣١٧ | » الحمامة والثعلب ومالك الحزين |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . وَخَصَّهُ دُونَ
الْمَخْلُوقَاتِ بِشَرَفِ التَّكْرِيمِ . وَوَهَبَ لَهُ عَقْلاً يَتَدَبَّرُ بِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِنْ آيَاتٍ ، لِيَسْئَلَكَ بِإِرْشَادِهِ أَوْضَحَ الْمَحَجَّاتِ ، وَيَمْحُو
بِنُورِهِ ظُلُمَاتِ الرِّيبِ وَالْإِلْبَاسِ ، قَائِلاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ بَيْنَ مَعَالِمِ الْعِرْفَانِ ،
الْمُخْتَصِّ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ فِي غَايَةِ الْبَيَانِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَسْبُوعِ
رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . (أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ أَتَّخَفَ
الْعَوَارِفَ ، وَأَلْطَفَ الْمَعَارِفَ ، عِلْمٌ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى صَدَقِ
الْفِرَاسَةِ ، وَيُسْتَنْبِطُ مِنْهُ حُسْنَ السِّيَاسَةِ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا لَاحَ
عَلَى صَفَحَاتِ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَجَنَّةً ، كِتَابُ "كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ" ،
مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تُرْجِمَتْ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنَ اللُّغَةِ
الْأَنْجَمِيَّةِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، لِأَنَّهُ فِي ضُرُوبِ السِّيَاسَةِ أَكْبَرُ آيَةٍ ،
وَفِي جَوَامِعِ الْحِكْمِ وَالْآدَابِ مِنْ أَبْلَغِ غَايَةٍ . حَرِيٌّ بِأَنْ يُنْكَتَبَ
بَسَوَادِ الْمِسْكِ عَلَى بَيَاضِ الْكَافُورِ ، وَحَقِيقُ بَأْنِ يُعَلَّقَ بِجُيُوطِ

النور على نُحُورِ الحُورِ . وَلِذَلِكَ عَكَفَ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهِ أَصْنَافُ
النَّاسِ ، فَتَرَجَّمُوهُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى لُغَاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ .
ثُمَّ آغْتَالَتْ نُسَخُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ أَيْدِيَ الدُّهُورِ وَالْأَعْصَارِ ، وَطَارَ بِهَا
مِنْ رِيَّاحِ الْحَوَادِثِ إِعْصَارٌ . فَقَبِضَ اللَّهُ صَاحِبَ الْفُتُوحِ السَّنِيَّةِ ،
وَالْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ الْعُلُويَّةِ ؛ حَامِيَ ذِمَارِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ ،
مَادَّ سُرَادِقِ الْعَدْلِ عَلَى كَافَّةِ الْأَنَامِ ؛ قَاهِرَ الطُّغَاةِ وَالْجَبَابِرَةِ ،
وَمُرَغِمَ أَنْوْفِ الْمُتَمَرِّدَةِ الْفَاجِرَةِ ؛ أَمِيرَ أُمَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَسَيْفَ اللَّهِ الْمَسْلُوعِ عَلَى أَعْنَاقِ الْمُعْتَدِينَ ؛ الْحَاجَّ مُحَمَّدَ عَلِيٍّ بِأَشَا ،
لَا زَالَتْ بِذُبَابِ سَيْفِهِ مَهْجُ الْعِدَا تَتَلَاشَى ؛ وَلَا بَرَحَتْ أُلُوبُهُ
بِالنَّصْرِ مَنُشُورَةً ، وَعَسَاكِرُهُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ مُظَفَّرَةٌ مَنُصُورَةً ؛
فَاعْمَلْ فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ الْغُرَاءِ ، وَسُلُوكِ الْمَحَجَّةِ الْوَاضِحَةِ الْبَيْضَاءِ ،
كُلًّا مِنْ حَدِّ السَّيْفِ وَسِنَانِ الْقَلَمِ ، حَتَّى جَحَرَ بِمُتُونِ الصِّفَاحِ
وَالصَّحَائِفِ يَنَابِيعَ النَّصْرِ وَالْحِكْمِ ؛ وَتَصَدَّى لِإِحْيَاءِ رَمِيمِ
الْمَكْرَمَاتِ الدَّوَارِسِ ، وَانْتَدَبَ لِإِعَادَةِ دَارِسِ الْعُلُومِ بِإِنْشَاءِ
الْمَدَارِسِ ؛ جَامِعًا بَيْنَ دَانِي الشَّرَفِ وَقَاصِيهِ ، حَقِيقًا بِمَا
قُلْتُ فِيهِ :

مَاذَا أَقُولُ وَكَيْفَ الْقَوْلُ فِي مَلِكٍ قَدْ فَاقَ كُلَّ مُلُوكِ الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ
 مُحَمَّدٌ أَنْتَ إِنْ أَحْمَدُكَ مُبْتَهَلًا وَإِنْ طَلَبْتُ لَكَ الْعَلِيَا فَأَنْتَ عَلِي
 قَدْ أُعْجَزَ الْبُلْغَاءُ ^(١) اللُّسْنُ مَنْقَبَةً عَنْهَا رَوَّايَيْنِ صِدْقِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
 وَمَا تَقَرُّ سَيْوْفٌ فِي مَمَالِكِهَا حَتَّى تَقْلُقَ دَهْرًا قَبْلُ فِي الْقُلُوبِ
 مِثْلُ الْمَلِكِ بَغَى أَمْرًا فَقَرَبَهُ طُولُ الرَّمَاكِ وَأَيْدِي الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ
 وَعَزَمَةٌ بَعَثَتْهَا هِمَّةٌ زَحَلُ ^(٢) مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ التُّرْبِ مِنْ زُحَلِ
 عَلَى الْفُرَاتِ أَعَاصِيرُ ^(٣) وَفِي حَلَبِ تَوْحُشٌ لِمُلَقَى النَّصْرِ مُقْتَبِلِ
 تَتْلُو أَسْنَتَهُ الْكُتُبَ الَّتِي نَفَذَتْ وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبَدًا مِنَ الرُّسُلِ
 يَلْقَى الْمُلُوكَ فَلَا يَلْقَى سِوَى جَزْرِ ^(٤) وَمَا أَعَدُّوا فَلَا يَلْقَى سِوَى نَفْلِ ^(٥)
 الْفَاعِلُ الْفِعْلَ لَمْ يَفْعَلْ لَشِدَّتِهِ وَالْقَائِلُ الْقَوْلَ لَمْ يُتْرَكْ وَلَمْ يَقُلْ
 وَالْبَاعِثُ الْجَيْشَ قَدْ غَالَتْ ^(٦) عِجَاجَتُهُ ^(٧) ضَوْءُ النَّهَارِ فَصَارَ الظُّهْرُ كَالطُّفْلِ ^(٨)
 الْجَوَّاضِقُ مَا لَاقَاهُ سَاطِعُهَا وَمُقَلَّةُ الشَّمْسِ فِيهِ أَحِيرُ الْمُقَلِّ

(١) أي الفصحاء. لسن كفرح فهو لسن وألسن . (٢) زحل مبتدأ وخبره بمكان والجملة صفة لهمة والمعنى همة دونها زحل . (٣) في العراق قن لا ينجذ نارها سوى جيشك الجرار وسيفك البتار وفي حلب همجية لا يشلم حذها غير مستأنف ماضى عزمك وسمان رمحك . (٤) الجزر : جمع جزور وهو البعير . (٥) النفل : الغنيمة . (٦) غال : كاغتال أهلك ، والمراد حجب . (٧) العجاجة : الغبار . (٨) الطفل بالتحريك : دنو الشمس للغروب .

يَسْأَلُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهِيَ نَازِرَةٌ فَمَا تُقَابِلُهُ إِلَّا عَلَى وَجَلٍ
قَدْ عَرَّضَ السَّيْفَ دُونَ النَّازِلَاتِ بِهِ وَظَاهَرَ الْحَزْمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغَيْلِ
وَوَكَّلَ الطَّعْنَ بِالْأَسْرَارِ فَانْكَشَفَتْ لَهُ ضَمَائِرُ أَهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
هُوَ الشُّجَاعُ يَعُدُّ الْبُخْلَ مِنْ جِبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بَخْلٍ
يَعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَحِرٍ وَقَدْ أَعَدَّ إِلَيْهِ غَيْرَ مُحْتَفِلٍ
وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ الدَّهْرُ بَغْيَتَهُ وَلَا يُحَصِّنُ دِرْعُ مَهْجَةِ الْبَطْلِ
إِذَا خَلَعَتْ عَلَى عَرِضٍ لَهُ حُلَاا وَجَدَتْهَا مِنْهُ فِي أَهْيَ مِنَ الْحُلِّ
بِذَى الْغَبَاوَةِ مِنْ إِنْشَادِهَا ضَرُّ كَمَا تَضُرُّ رِيَّاحُ الْوَرْدِ بِالْجَعْلِ
لَقَدْ رَأَتْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْهُ مَالِهَا وَجَرَبَتْ خَيْرَ سَيْفٍ خَيْرَةَ الدُّوَلِ
فَمَا تَكْشِفُكَ الْأَعْدَاءُ عَنْ مَلِكٍ مِنَ الْحُرُوبِ وَلَا الْآرَاءُ عَنْ زَلِّ
وَكَمْ رَجَاءٍ بِلاَ أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضًا بِلاَ رَجُلٍ
مَا زَالَ طَرَفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ الثَّمَلِ
يَأْمَنُ يَسِيرُ وَحُكْمُ النَّاطِرِينَ لَهُ فِيمَا يَرَاهُ وَحُكْمُ الْقَلْبِ فِي الْجَذَلِ
إِنَّ السَّعَادَةَ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ وَقُتَّتْ مُرْتَحِلًا أَوْ غَيْرَ مُرْتَحِلٍ

أَجْرَ الْحَيَادِ عَلَى مَا كُنْتَ مُجْرِيَهَا وَخُذْ بِنَفْسِكَ فِي أَخْلَاقِكَ الْأَوَّلِ
يَنْظُرُونَ مِنْ مَقَلٍ أَدْمَى أَجْتَهَبَهَا^(١) قَرَعَ الْقَوَارِيسَ بِالْعَسَالَةِ الذُّبُلِ
فَلَا هَجَمَتْ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلَتْ بِهَا إِلَّا إِلَى أَمَلٍ^(٢)

وَمِنْ جُمْلَةٍ مَا جَعَلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا زِينَةً وَعَيْدًا ، وَلِأَرْبَابِ
الْحُرُوبِ وَالْمَحَارِبِ مُوسِمًا سَعِيدًا ، دَارُ الطَّبَاعَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا
بِبِلَاقٍ : إِذْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهَا فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ . لِأَنَّ
الْكَتُبَ تُطْبَعُ فِيهَا مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ ، بِكُلِّ لُغَةٍ وَبِكُلِّ رَسْمٍ مَعَ
تَلَوْنِ الْمِدَادِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ . فَصَادَفَ سَعْدُهُ الْمُقْتَرِنُ مِنَ اللَّهِ
بِالْمِنَّةِ ، وَجُودَ نُسْخَةٍ مَطْبُوعَةٍ بِالْعَرَبِيِّ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْعَرَبِ مِنْ
كِتَابِ كُلَيْلَةِ وَدَمْنَةِ . وَهِيَ الَّتِي تَرَجَمَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ
الْكَاتِبُ الْمَشْهُورُ ، فِي أَيَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ .
وَكَانَتْ تَرَجَمَتُهَا مِنْ اللُّغَةِ الْبَهْلَوِيَّةِ^(٣) إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَاتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى
صِحَّةِ تِلْكَ النُّسخَةِ : لِشُهْرَةِ مُصَحِّحِهَا بِالْأَلْمَعِيَّةِ . إِذْ قَالَ

(١) أجهة : جمع حجاج ومن معانيه عظم ينبت عليه الحاجب وهو المراد هنا . (٢) هذه القصيدة

جميعها ما عدا الأبيات الثلاثة الأولى مأخوذة من قصيدة لأبي الطيب في مديح سيف الدولة .

(٣) الفارسية القديمة .

فِي دِيَابَجَتِهَا : ”اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنْ كِتَابِ كِيلَةَ نُسخٌ شَتَّى مُتَّفِقَةٌ
السِّيَاقِ وَالْإِنْشَاطِ ، مُخْتَلِفَةٌ الْعِبَارَةِ وَالْأَلْفَاظِ . وَكَانَ مِنْ عَدِيدِهَا
نُسخَةٌ قَدِيمَةُ الْعَهْدِ ، عَجِيبَةُ الْخَطِّ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِيهَا مَعَ
جَوَدَتِهَا بَعْضُ الْغَلَطَاتِ . وَقَدْ ذَهَبَ مِنْهَا أَيْضًا بِتَصْرِيفِ
الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ ، أَوْرَاقٌ جُعِلَتْ عِوَضًا عَنْهَا أَوْرَاقٌ غَيْرُهَا
جَدِيدَةُ الْعَهْدِ ، رَدِيئَةُ الْخَطِّ لَيْسَتْ عَلَى هَيْئَةِ الْبَاقِي . وَالنُّسخَةُ
الْمَذْكُورَةُ هِيَ الَّتِي آخَرْتُهَا حَتَّى تَكُونَ هِيَ الْأَصْلَ الْمُعْتَمَدَ عَلَيْهِ
عِنْدَ طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ . غَيْرَ أَنِّي كُتِّمْتُ فِيهَا عَلَى غَلْطَةٍ ،
أَوْ مَا أَشْتَبَهَ عَلَى الْقَارِئِ فَهَمُّهُ ، قَابَلْتُهَا بِمَا عِنْدِي مِنَ النُّسخِ
غَيْرِهَا ، وَاثْبَتْتُ مَا رَأَيْتُ لَفْظُهُ أَفْصَحَ ، وَمَعْنَاهُ أَوْضَحَ “ انْتَهَى
كَلَامُهُ . ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ النُّسخَةَ الْمَطْبُوعَةَ عُرِضَتْ هِيَ وَغَيْرُهَا عَلَى
شَيْخِ مَشَائِخِ الْإِسْلَامِ ، وَقُدُورَةِ عَمْدِ الْأَنَامِ ، مَوْلَانَا الشَّيْخِ حَسَنِ
الْعَطَّارِ أَدَامَ اللَّهُ عُمُومَ فَضْلِهِ مَا دَامَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . فَقَالَ : يَصِحُّ
أَلَّا يُوجَدَ لَهَا فِي الصُّحَّةِ مِثَالٌ : لِشُهْرَةِ مُصَحِّحِهَا بِالضَّبْطِ
وَسَعَةِ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْأَقْوَالِ . وَحِينَئِذٍ اتَّفَقَتْ الْأَرَاءُ عَلَى أَنَّ

يَكُونُ الْمُعَوَّلُ فِي طَبْعِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عَلَيْهَا ، وَمُنْتَهَى اخْتِلَافِ
النُّسخِ وَوِفَاقِهَا إِلَيْهَا . فَبَادَرْتُ إِشَارَةَ الْأَمْرِ بِصَرِيحِ الْإِمْتِثَالِ ،
وَسَرَّحْتُ فِي رِيَاضِ تِلْكَ النُّسخِ سَائِمَ الطَّرْفِ وَالْبَالِ .
فَوَجَدْتُ الْمَطْبُوعَةَ أَفْصَحَهَا عِبَارَةً ، وَأَوْضَحَهَا إِشَارَةً ، وَأَصَحَّهَا
مَعْنًى ، وَأَحْكَمَهَا مَبْنًى ؛ غَيْرَ أَنَّ فِيهَا لُفِظَاتٍ حَادَتْ عَنْ
سَنَنِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَعْضَ مَعَانٍ مَالَتْ بِهِ الرِّكَازُ عَنْ أَنْ يُفْهَمَ
بِطَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ . فَقَرَيْتُ أَضْيَافَ الْمَعَانِي بِأَيِّ لَفْظٍ تَشْتَهِيهِ .
وَصَاحِبُ الْبَيْتِ أَدْرَى بِالَّذِي فِيهِ . خُصُوصًا مَعَ وُجُودِ الْمَوَادِّ
الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ وُجُوهِ الصُّحَّةِ نِقَابَ الْإِشْتِبَاهِ . وَمَنْ كَانَ
ذَا مَكْنَةٍ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ؛ مُسْتَعِينًا عَلَى ذَلِكَ بِمَا لَدَيْ
مِنَ النُّسخِ الَّتِي يَخْطُ الْقَلَمُ ، مُعَوَّلًا عَلَى عِنَايَةِ مَنْ عِلْمَ الْإِنْسَانِ
مَا لَمْ يَعْلَمْ . حَتَّى أَثْمَرْتُ بِإِشَاعَةِ ذَلِكَ الْكِتَابِ مَعَ غَايَةِ
التَّحْرِيرِ ، حَدِيقَةَ تِلْكَ الْمَطْبَعَةِ الْمَشْرِقَةِ بِطَوَالِجِ التَّنْوِيرِ ؛ عَلَى
يَدِ مُصَحِّحٍ مَا يَبْهَا مِنْ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ، الْمُسْتَمِدِّ مِنْ مَوْلَاهُ

الإعانة والمعينة ؛ راجي من الفضل يوتي ، عبد الرحمن الصفي ؛
 غفر الله ذنوبه ، وستر في الدارين عيوبه ؛ مع سائر المسلمين .
 بحرمة طه ويس . عليه الصلاة والسلام . وعلى آله وصحبه
 الكرام .

بَابُ مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ

قَدَّمَهَا بِهِنُودُ بْنُ سَحَوَانَ وَيَعْرِفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ .
 ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ بِيَدِ الْفِيلَسُوفِ الْهِنْدِيِّ
 رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ ^(١) لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ كَلِيلَةً وَدِمْنَةً ،
 وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ صِيَانَةً لِعَرْضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِّ ،
 وَضَنَّا بِمَا ضَمَّنَهُ عَنِ الطَّغَامِ ، وَتَنَزَّيْهَا لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا ، وَمَحَاسِنِهَا
 وَعُيُونِهَا ، إِذْ هِيَ لِلْفِيلَسُوفِ مَنُذُوحَةٌ ، وَلِلْحَاطِرِ مَفْتُوحَةٌ ،
 وَلِمُحِبِّهَا تَثْقِيفٌ ، وَلِطَالِبِهَا تَشْرِيفٌ . وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ
 أَجْلِهِ أَنْفَذَ كَسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ بْنُ قُبَادَ بْنِ فَيْرُوزَ مَلِكُ الْفَرَسِ
 بَرْزَوِيَهُ رَأْسَ الْأَطْبَاءِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ ،
 وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوِيهِ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ ، حَتَّى حَضَرَ
 إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرًّا مِنْ خِزَانَةِ الْمَلِكِ كَيْلًا ، مَعَ
 مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ . وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَعْثَةِ
 بَرْزَوِيهِ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَذَكَرَ فِيهَا

(١) البراهمة : قوم لا يجوزون على الله بعثة الرسل .

مَا يَلْزَمُ مُطَالَعَهُ مِنْ إِتْقَانِ قِرَاءَتِهِ وَالْقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى
بَاطِنِ كَلَامِهِ ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ .
وَذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرْزَوِيهِ وَقِرَاءَةَ الْكِتَابِ جَهْرًا . وَقَدْ ذَكَرَ
السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَرْزَجِيهْرُ بَابًا مُفْرَدًا يُسَمَّى بَابَ
بَرْزَوِيهِ الْمُتَطَبِّ ، وَذَكَرَ فِيهِ شَأْنَ بَرْزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ وَأَنَّ
مَوْلَاهُ إِلَى أَنْ بَلَغَ التَّأْدِيبَ ، وَأَحَبَّ الْحِكْمَةَ ^(١) وَاعْتَبَرَ فِي أَقْسَامِهَا .
وَجَعَلَهُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ .

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ : كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ
بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كِيلَةَ وَدِمْنَةَ ، أَنَّ
الْإِسْكَندَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرُّومِيَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا
بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ ، سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ ،
فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مِنْ نَازَعِهِ وَيُؤَاقِعُ مِنْ وَاقِعِهِ ، وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ
مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الْأُولَى ، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَ

مِنْ نَاوَاهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ ؛ فَتَفَرَّقُوا طَرَاتِقُ ^(١) وَتَمَزَّقُوا
 حَزَائِقُ ^(٢) . فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ ؛ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ
 الْهِنْدِ لِيَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالْدُخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ . وَكَانَ عَلَى
 الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ ، يُقَالُ
 لَهُ فُورٌ . فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ ،
 وَاسْتَعَدَّ لِمُجَادَبَتِهِ ؛ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ ، وَجَدَّ فِي التَّالِبِ عَلَيْهِ ^(٣) ؛
 وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ مِنَ الْفِيلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ ، وَالسَّبَاعِ
 الْمُضَرَّةِ بِالْوُثُوبِ ؛ مَعَ الْخَيُْولِ الْمُسْرَجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ ،
 وَالْحِرَابِ ^(٤) اللَّوَامِجِ . فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ
 وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ
 بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِيمِ ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ
 مِنْ تَقْصِيرِ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَلَ الْمُبَارَزَةَ . وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا
 ذَا حِيلٍ وَمَكَايِدَ ، مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجَرِبَةٍ ، فَرَأَى إِعْمَالَ الْحِيلَةِ
 وَالتَّمَهُلِ ، وَاحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ ؛ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لاسْتِنْبَاطِ

(١) طراتق : أى فرقا . (٢) حزائق : أى قطعا . (٣) التالب : التجمع . (٤) جمع : حربة .

الْحِيلَةَ وَالتَّدْبِيرَ لِأَمْرِهِ؛ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ .
 فَاسْتَدْعَى بِالْمُنَجِّمِينَ ، وَأَمَرَهُمْ بِالِاخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ
 فِيهِ سَعَادَةٌ مُحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ وَالنُّصْرَةَ عَلَيْهِ . فَاسْتَغْلَوْا بِذَلِكَ .
 وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ إِلَّا أَخَذَ الصَّنَاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَائِعِهَا
 بِالْحَدِّقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ . فَأَتَتْجَتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ
 إِلَى الصَّنَاعِ الَّذِينَ مَعَهُ فِي أَنْ يَصْنَعُوا خَيْلًا مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةٍ ،
 عَلَيْهَا تَمَّائِيلُ مِنَ الرِّجَالِ ، عَلَى بَكَرٍ تَجْرِي ، إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتْ
 سِرَاعًا . وَأَمَرَ إِذَا فَرَّغُوا مِنْهَا أَنْ تُحْشَى أَجْوَافُهَا بِالنَّفْطِ وَالْكِبْرِيتِ ،
 وَتُلْبَسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ . وَوَقْتُ مَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ
 تُضْرَمُ فِيهَا النَّيْرَانُ . فَإِنَّ الْفِيلَةَ إِذَا لَقَتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ
 وَهِيَ حَامِيَةٌ ، وَلَّتْ هَارِبَةً . وَأَوْعَزَ إِلَى الصَّنَاعِ بِالتَّشْمِيرِ وَالْإِنْكَاشِ^(١)
 وَالْفَرَاغِ مِنْهَا . فَحَذَّوْا فِي ذَلِكَ وَعَمِلُوا . وَقَرُبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيَارِ
 الْمُنَجِّمِينَ . فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ
 طَاعَتِهِ وَالْإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ . فَأَجَابَ جَوَابَ مُصْرَعٍ عَلَى مُخَالَفَتِهِ ، مُقِيمٍ

عَلَى مُحَارِبَتِهِ . فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ ،
 وَقَدَّمَ فُورُ الْفِيلَةِ أَمَامَهُ ، وَدَفَعَتِ الرُّجَالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَمَائِيلَ
 الْفُرْسَانِ ، فَأَقْبَلَتِ الْفِيلَةُ نُحُوحَهَا ، وَلَقَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا . فَلَمَّا
 أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا ، وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا ،
 وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً ، لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا
 وَطِئَتْهُ . وَتَقَطَّعَ فُورُ وَجْمَعُهُ ، وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَندَرِ ،
 وَانْخَنَوا فِيهِمْ الْجِرَاحُ . وَصَاحَ الْإِسْكَندَرُ : يَا مَلِكَ الْهِنْدِ أَبرَزْ إِلَيْنَا ،
 وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ ، وَلَا تَحْمِلْهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ
 الْمُرُوءَةِ أَنْ يَرَى الْمَلِكُ بَعْدَتَهُ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتَلِفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُجْحِفَةِ ،
 بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ . فَأَبْرَزَ إِلَى وَدَعِ الْجُنْدَ ، فَأَيْنَا
 قَهْرَ صَاحِبِهِ فَهُوَ الْأَسْعَدُ . فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ
 ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ لِمُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ ، وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً .
 فَابْرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَندَرُ فَتَجَاوَلَا عَلَى ظَهْرَيِ فَرَسَيْهِمَا سَاعَتٍ مِنْ

النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً ، وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ .
فَلَمَّا أَتَى الإسْكَندَرُ أَمْرَهُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةَ أَوْقَعَ
ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيمَةً ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ
وَالْعَسَاكِرُ ، فَالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَ مَا سَمِعَ الزَّعَقَةَ ، وَظَنَّهَا مَكِيدَةً
فِي عَسْكَرِهِ ، فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سَرِجِهِ ، وَتَبِعَهُ
بِأُخْرَى ، فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ . فَلَمَّا رَأَتْ الْهِنْدُ مَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَمَا
صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ ، حَمَلُوا عَلَى الإسْكَندَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحْبَبُوا مَعَهُ
الْمَوْتَ . فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ ، وَمَنَحَهُ اللَّهُ أَكْثَافَهُمْ ،
فَاسْتَوَلَى عَلَى بِلَادِهِمْ ، وَمَلَكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ . وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ
حَتَّى اسْتَوْثَقَ^(١) مِمَّا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتَّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ
عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَفَ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ . وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ
لَهُ . فَلَمَّا بَعُدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ ، تَغَيَّرَتِ الْهِنْدُ عَمَّا
كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالُوا لَيْسَ

(١) استوثقنا : أخذ الثقة مما أراد والذي في صفحة ٥ : استوثق الأمر من الوسق .

يَصْلَحُ لِلسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ أَنْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا
لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بِيوتِهِمْ . فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَدِلُّهُمْ
وَيَسْتَقِيلُهُمْ . وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ ؛
فَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ ، وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ
خَلْفَهُ عَلَيْهِمُ الْإِسْكَندَرُ . فَلَمَّا اسْتَوْسَقَ لَهُ الْأَمْرُ ، وَاسْتَقَرَّ لَهُ
الْمُلْكُ ، طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ ، وَجَعَلَ يَغْزُو مِنْ حَوْلِهِ مِنَ
الْمُلُوكِ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُوَيِّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا . فَهَابَتْهُ الرِّعْيَةُ .
فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ ، عَثِيَ بِالرِّعْيَةِ وَاسْتَصْغَرَ
أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ السَّيْرَةَ فِيهِمْ . وَكَانَ لَا تَرْتَقِي حَالُهُ إِلَّا أَزْدَادَ عُتُوًّا .
فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ بَرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ . وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فِيلَسُوفٌ
مِنَ الْبَرَاهِمَةِ ، فَاضِلٌ حَكِيمٌ ، يُعْرِفُ بِفَضْلِهِ ، وَيَرْجِعُ فِي الْأُمُورِ
إِلَى قَوْلِهِ ، يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ
لِلرِّعْيَةِ ، فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ ، وَرَدَّهُ إِلَى
الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، فَجَمَعَ لَذَلِكَ تَلَامِيذَهُ ، وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ
مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرَكُمْ فِيهِ ؟ اِعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمِ

وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلِزُومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السَّيْرِ
 وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ ، وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا لِمِثْلِ هَذِهِ
 الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ ، إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَلِزُومِ
 الْعَدْلِ . وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَا لَزِمَ وَقُوعُ الْمَكْرُوهِ بِنَا ، وَبُلُوغُ
 الْمُحْذُورَاتِ إِلَيْنَا ، إِذْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَالِ أَجْهَلُ مِنْهُمْ ، وَفِي
 الْعُيُونِ عَنْدهُمْ أَقَلُّ مِنْهُمْ . وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي الْجَلَاءُ عَنِ الْوَطَنِ .
 وَلَا يَسْعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ وَقُبْحِ
 الطَّرِيقَةِ . وَلَا يُمَكِّنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ السِّتِنَا . وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ
 نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَنْهَيْلَنَا مُعَانَدَتُهُ . وَإِنْ أَحْسَسْنَا بِمُخَالَفَتِهِ
 وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارِنَا . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوِرَةَ
 السُّعْيِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ الْعَيْشِ
 لَغَدْرٌ بِالنَّفْسِ . وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لِحَقِيقُ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَضْرُوفَةً
 إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ الْمُحْذُورِ ،
 وَيَدْفَعُ الْمُخَوْفَ لِاسْتِجْلَابِ الْمُحِبُّوبِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ
 فَيْلَسُوفًا كَتَبَ لِتَلْمِيزِهِ يَقُولُ : إِنَّ مُجَاوِرَ رِجَالِ السُّوءِ وَمُصَاحِبَهُمْ

كِرَاكِبِ الْبَحْرِ : إِنْ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمَخَافِ . فَإِذَا
هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرَ الْمَخُوفَاتِ ، عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ
الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا . لِأَنَّ الْحَيَوَانَ الْبَهِيمِيَّةَ ^(١) قَدْ خُصَّتْ فِي طِبَائِعِهَا
بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ : وَذَلِكَ أَنَّهَا لَمْ نَرَهَا
تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكَتُهَا . وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ
مُهْلِكٍ لَهَا ، مَالَتْ بِطِبَائِعِهَا الَّتِي رُكِبَتْ فِيهَا - شَحًّا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً
لَهَا - إِلَى الثُّغُورِ وَالتَّبَاعِدِ عَنْهُ . وَقَدْ جَمَعْتُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ : لِأَنَّكُمْ
أُسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي ؛ وَبِكُمْ اعْتَصِدُ ، وَعَلَيْكُمْ
اعْتَمِدُ . فَإِنَّ الْوَحِيدَ فِي نَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ
وَلَا نَاصِرَ لَهُ . عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْخَيْلِ
وَالْجُنُودِ . وَالْمِثْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَنْبَرَةً ^(٢) اتَّخَذَتْ أُذْحِيَةً ^(٣) وَبَاضَتْ فِيهَا
عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ ؛ وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ . فَمَرَّ ذَاتَ
يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عَشَّ الْقَنْبَرَةِ ؛ وَهَشَمَ بَيْضَهَا
وَقَتَلَ فِرَاحَهَا . فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَ مَا هَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنْ

(١) الحيوان : الحياة . قال تعالى : وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

(٢) الأفصح فيها قُبْرَةٌ وهي طائر . (٣) محلا تبيض فيه .

الفيل لا من غيره . فطارت فوقعت على رأسه باكية ، ثم قالت :
 أيها الملك لم هسمت بيضي وقتلت فراخي ، وأنا في جوارك ؟
 أفعلت هذا استصغارا منك لأمرى واحتقارا لشأني ؟ قال :
 هو الذي حملني على ذلك . فتركته وأنصرفت إلى جماعة الطير ،
 فشكت إليها ما نالها من الفيل . فقلن لها وما عسى أن نبليغ منه
 ونحن طيور ؟ فقالت للعقاعق^(١) والغربان : أحب منكن أن تصرن
 معي إليه فتفقأن عينيّه ، فإني أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرى .
 فأجبنها إلى ذلك ، وذهبن إلى الفيل ، ولم يزلن ينقرن عينيّه
 حتى ذهبن بهما . وبقي لا يهتدي إلى طريق مطعمه ومشربه
 إلا ما يلقيه من موضعه . فلما علمت ذلك منه ، جاءت إلى
 غدير فيه ضفادع كثيرة ، فشكت إليها ما نالها من الفيل . قالت
 الضفادع : ما حيلتنا نحن في عظم الفيل ؟ وأين نبليغ منه ؟ قالت :
 أحب منكن أن تصرن معي إلى وهدة قريبة منه ، فتفقن فيها ،
 وتضججن . فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشك في الماء فيهرب

(١) جمع عقق وهو طير أبيض وسواد وبياض . (٢) أرض منخفضة .

فِيهَا . فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ ، وَاجْتَمَعْنَ فِي الْهَآوِيَةِ ، فَسَمِعَ الْفِيلُ
نَقِيقَ الضَّفَادِعِ ، وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ
فِي الْوَهْدَةِ ، فَارْتَطَمَ فِيهَا . وَجَاءَتِ الْقَنْبَرَةُ تَرْفِرُ عَلَى رَأْسِهِ ،
وَقَالَتْ : أَيُّهَا الطَّاغِي الْمَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ الْمُخْتَقِرُ لِأَمْرِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ
عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ ؟
فَلْيُشِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ . قَالُوا
بِاجْمَعِهِمْ : أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْفَاضِلُ ، وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ ، أَنْتَ
الْمُقَدَّمُ فِينَا ، وَالْفَاضِلُ عَلَيْنَا ، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ
رَأْيِكَ ، وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّ السَّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ
مَعَ التَّمْسَاحِ تَغْرِيرٌ ، وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ .
وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السَّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيَجْرِبَهُ جَانٍ عَلَى
نَفْسِهِ ، فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ . وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَابَتِهِ ،
لَمْ يَأْمَنْ مِنْ وَثْبَتِهِ . وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْرَعِهُ النَّوَائِبُ ، وَلَمْ تُودِبْهُ

التَّجَارِبُ . وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَلَا عَلَى أَنْفُسِنَا سَطَوَتَهُ وَإِنَّا نَخَافُ
عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذَا لَقِيْتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ . فَقَالَ^(١)
الْحَكِيمُ بَيِّدَبَا : لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ ، لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ
الْحَازِمَ لَا يَدْعُ أَنْ يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ .
وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ .
وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ . وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ ،
وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ . غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ
رَأْيًا وَعَزَمْتُ عَزْمًا ، وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَمَجَاوِبَتِي إِيَّاهُ
فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ . وَصَرَفَهُمْ
وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيِّدَبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ
ذَلِكَ الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مَسُوحَهُ^(٢) وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ ، وَقَصَدَ بَابَ
الْمَلِكِ ، وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ،

(١) سطوته واعتدائه . (٢) جمع مسح وهو الكساء من الشعر .

وَأَعْلَاهُ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ . فَدَخَلَ
الْأَذِنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ ، وَقَالَ : بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ^(١)
بَيْدَبَا ، ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً . فَأَذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ وَوَقَفَ
بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَفَّرَ وَسَجَدَ لَهُ وَأَسْتَوَى قَائِمًا وَسَكَتَ . وَفَكَرَ دَبْشَلِيمُ^(٢)
فِي سُكُوتِهِ ، وَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ : إِمَّا
لِالْتِمَاسِ شَيْءٍ مِنَّا يُصْلِحُ بِهِ حَالَهُ ، وَإِمَّا لِأَمْرِ لِحَقِّهِ فَلَمْ تَكُنْ
لَهُ بِهِ طَاقَةً . ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ
لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ : لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ
بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ . وَقَدْ وَجَدْتُ
الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ إِلْفَيْنِ مُتَأَلِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ : مَتَى فَقَدَ أَحَدُهُمَا
لَمْ يَوْجَدْ الْآخَرَ ، كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطْبُ صَاحِبُهُ
نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسَفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَعِزَّ مِنَ الْحُكَمَاءِ
وَيُكْرِمَهُمْ ، وَيَعْرِفَ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَيَصْنَعَهُمْ عَنْ

(١) الحاجب . (٢) عظم والكفر من معانيه تعظيم الفارسي للملك والتكفير من معانيه

إيماء الذي برأسه .

المواقف الواهنة ، ويتزهدون عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله ، وخسر دنياه ، وظلم الحكماء حقوقهم ، وعد من الجهال . ثم رفع رأسه إلى بيدبا ، وقال له : نظرت إليك يا بيدبا ساكناً لا تعرض حاجتك ، ولا تذكر بغيتك ، فقلت : إن الذي أسكته هيبته ساورته أو حيرة أدركته ، وتأملت عند ذلك من طول وقوفك ، وقلت : لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادة إلا لأمير حركه لذلك ، فإنه من أفضل أهل زمانه . فهلاً نسأله عن سبب دخوله ! فإن يكن من ضميم ناله ، كنت أولى من أخذ بيده وسارع في تشريفه ، وتقدم في البلوغ إلى مراده وإعزازيه ، وإن كانت بغيته غرضاً من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب ، وإنت يكن من أمر الملك ، ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت في قدر عقوبته ، على أن مثله لم يكن ليجتري على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك ، وإن كان شيئاً من أمور الرعية يقصد فيه أني أضرب عنايتي إليهم ، نظرت ما هو ،

فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ ، وَالْجُهَّالُ يُشِيرُونَ بِضَدِّهِ .
وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ . فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا ذَلِكَ مِنْ
الْمَلِكِ أَفْرَخَ رَوْعَهُ ^(١) ، وَسَرَى عَنْهُ ^(٢) مَا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ
وَكَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ ، ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : أَوَّلَ مَا أَقُولُ أَسْأَلُ
اللَّهَ تَعَالَى بِقَاءِ الْمَلِكِ عَلَى الْأَبَدِ ، وَدَوَامِ مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ : لِأَنَّ
الْمَلِكَ قَدْ مَنَحَنِي فِي مَقَامِي هَذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ
مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ ، مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرَحًا بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْهُ ،
وَقَالَ : قَدْ عَطَفَ الْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . وَالْأَمْرُ الَّذِي
دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، وَحَمَلَنِي عَلَى الْمَخَاطَرَةِ لِكَلَامِهِ ،
وَالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، نَصِيحَةٌ اخْتَصَصْتُ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ . وَسَيَعْلَمُ
مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَقْصُرْ عَنْ غَايَةِ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى
الْحُكَمَاءِ . فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ

(١) يُقَالُ : أَفْرَخَ رَوْعَهُ وَرَوْعَهُ . أَيْ ذَهَبَ فَرْعُهُ وَخَوْفُهُ . وَقَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ إِنَّمَا هُوَ :

أَفْرَخَ رَوْعَهُ وَمَعْنَاهُ نَجَحَ الرُّوعُ وَالْفَرْعُ مِنْ رَوْعِهِ وَهُوَ الْقَلْبُ . (٢) زَالَ عَنْهُ .

وَمَا يَرَاهُ ، وَإِنْ هُوَ الْقَاهُ ، فَقَدْ بَلَغْتُ مَا يَلْزَمُنِي وَنَحَرْتُ مِنْ
لَوْمْ يَلْحَقْنِي . قَالَ الْمَلِكُ يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ كَيْفَ شِئْتَ : فَلِئَنِّي مُصْنِعٌ
إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ ، وَسَامِعٌ مِنْكَ ، حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ
إِلَى آخِرِهِ ، وَأُجَازِيكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ . قَالَ بَيْدَبَا :
إِنِّي وَجَدْتُ الْأُمُورَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ
الْحَيَوَانَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ ، وَهِيَ جُمَاعٌ^(١) مَا فِي الْعَالَمِ ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ
وَالْعِفَّةُ وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ . وَالْعِلْمُ وَالْأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ
الْحِكْمَةِ . وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ . وَالْحَيَاءُ
وَالْكَرَمُ وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ . وَالصَّدْقُ
وَالْإِحْسَانُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ .
وَهَذِهِ هِيَ الْمُحَاسِنُ ، وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِي . فَتَمَّتْ كَلَامُ هَذِهِ
فِي وَاحِدٍ لَمْ تُخْرِجْهُ الزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءِ الْخَطِّ مِنْ دُنْيَاهُ
وَلَا إِلَى نَقْصٍ فِي عُقْبَاهُ ، وَلَمْ يَتَأَسَفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ
بِبَقَائِهِ ، وَلَمْ يُخْزِنَهُ مَا تَجَرَّى بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ ، وَلَمْ يَدْهَشْ

عِنْدَ مَكْرُوهِ . فَالْحِكْمَةُ كَثْرُ لَا يَفْنَى عَلَى إِنْفَاقٍ ، وَذَخِيرَةٌ
لَا يُضْرَبُ لَهَا بِالإِمْلَاقِ ^(١) ، وَحَلَّةٌ لَا تَخْلُقُ جِدَّتُهَا ^(٢) ، وَلَذَّةٌ لَا تُصْرَمُ ^(٣)
مُدَّتُهَا . وَلَئِنْ كُنْتَ عِنْدَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ أَمْسَكْتُ عَنِ
ابْتِدَائِهِ بِالْكَلَامِ ، إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ .
وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لَأَهْلٌ أَنْ يَهَابُوا ، لَا سِيَّمَا مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ
الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ :
الزَّمِ السُّكُوتَ ، فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً ، وَتَجَنَّبِ الْكَلَامَ الْفَارِغَ ، فَإِنَّ
عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ . وَحَكَى أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمُّهُمْ مَجْلِسُ
مَلِكٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : لِيَتَكَلَّمَنَّ كُلُّ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلأَدَبِ .
فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعِلْمِ السُّكُوتُ . وَقَالَ الثَّانِي : إِنَّ
مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ .
وَقَالَ الثَّالِثُ : أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ .
وَقَالَ الرَّابِعُ : أَرْوَحُ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ .

(١) لعل الصواب "لا يضربها الإملاق" . (٢) لا تبلى . (٣) لا تقطع .

وَأَجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ
وَفَارِسَ وَالرُّومِ ، وَقَالُوا يَذْبَنِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ
تَدُونُ عَنْهُ عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ . فَقَالَ مَلِكُ الصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ
أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ . وَقَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ : عَجِبْتُ
لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ
أَوْبَقَتْهُ . وَقَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي ،
وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا . وَقَالَ مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى
مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ ، وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا .
وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى
نَفْعٍ . وَأَفْضَلُ مَا اسْتَظَلَّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِسَانُهُ . غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ ،
أَطَالَ اللَّهُ مَدَّتَهُ ، لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ ،
كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَرَةُ
ذَلِكَ لَهُ دُونِي ، وَأَنْ أُخْتَصَّهُ بِالْفَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنَّ الْعُقْبَى
هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ ، وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ،
وَأَكُونُ أَنَا قَدْ قَضَيْتُ فَرَضًا وَجِبَ عَلَى فَأَقُولُ :

(١) أهلكته . (٢) وفي نسخة وأعضل ما ضلَّ به الإنسان لسانه .

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْحَبَابَةِ الَّذِينَ
 أَسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ ، وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ ، وَبَنَوْا الْقِلَاعَ وَالْحُصُونَ ،
 وَمَهَّدُوا الْبِلَادَ ، وَقَادُوا الْجُيُوشَ ؛ وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ ^(١) ، وَطَالَتْ
 لَهُمُ الْمُدَّةُ ^(٢) ، وَاسْتَكْثَرُوا مِنَ السَّلَاحِ وَالْكِرَاعِ ^(٣) ، وَعَاشُوا الدُّهُورَ ،
 فِي الْغِبْطَةِ وَالسَّرُورِ ؛ فَلَمْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ مِنْ اكْتِسَابِ جَمِيلِ الذِّكْرِ ،
 وَلَا قَطْعَهُمْ عَنْ اغْتِنَامِ الشُّكْرِ ؛ وَلَا اسْتِعْمَالَ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خَوَّلُوهُ ،
 وَالْإِرْفَاقِ بِمَنْ وَلَّوهُ ، وَحُسْنِ السَّيْرِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ ؛ مَعَ عِظَمِ
 مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غُرَّةِ الْمُلْكِ ^(٣) ، وَسَكْرَةِ الْإِقْتِنَادِ . وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 السَّعِيدُ جَدُّهُ ، الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ ، قَدْ وَرَثْتَ أَرْضَهُمْ
 وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتُهُمْ ؛ فَأَقَمْتَ فِيهَا خَوْلَتَ
 مِنَ الْمُلْكِ وَوَرَثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ ؛ فَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ
 مَا يَجِبُ عَلَيْكَ ؛ بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى الرِّعْيَةِ ،
 وَأَسَاءْتَ السَّيْرَةَ ، وَعَظُمَتْ مِنْكَ الْبَلِيَّةُ . وَكَانَ الْأَوَّلَى وَالْأَشْبَهَ

(١) استجاش الجيش : جمعه . (٢) الكراع : اسم لجمع الخيل وقيل الخيل والسلاح .

(٣) غروره .

بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أُسْلَافِكَ ، وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ ،
وَتَقْفُو مُحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ ، وَتُقْلِعَ عَمَّا عَارُهُ لَا زِمٌ لَكَ ،
وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ بِكَ ، تُحَسِّنُ النَّظَرَ بِرِعْيَتِكَ ، وَتَسُنُّ لَهُمْ سُنَنَ
الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ ، وَيُعْقِبُكَ الْجَمِيلَ فَخْرُهُ ، وَيَكُونُ
ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلَامَةِ وَأَدْوَمَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ . فَإِنَّ الْجَاهِلَ
الْمُغْتَرَّ مَنْ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ الْبَطَرَ وَالْأُمْنِيَّةَ ، وَالْحَازِمَ اللَّيْبَ مَنْ
سَاسَ الْمُلْكَ بِالْمُدَارَاةِ وَالرَّفْقِ ، فَانْظُرَايَهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ ،
وَلَا يَثْقُلَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكَ : فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذَا ابْتِغَاءَ عَرَضٍ يُجَازِينِي
بِهِ ، وَلَا ابْتِمَاسَ مَعْرُوفٍ تُكَافِئُنِي فِيهِ ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا
مُشْفِقًا عَلَيْكَ .

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ ، وَقَضَى مُنَاصَحَتَهُ ، أَوْغَرَ صَدْرَ
الْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ ، وَقَالَ : لَقَدْ
تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي
يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ مَا أَقَدَمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ

مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ ، وَضَعْفِ مُتِّكَ ^(١) وَعَجْزِ قُوَّتِكَ ؟ وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ
 إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ ، وَتَسْلُطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ
 حَدَّكَ . وَمَا أَجْدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ .
 فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيُرُومَ مَا رُمْتَ أَنْتَ
 مِنَ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ
 وَيُصَلَّبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ ، فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَجْمَعَ عَنْهُ ،
 ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ . فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ فِي طَلَبِ تَلَامِيذِهِ
 وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ الْبَحَارِ ،
 فَكَثَّ يَدْبَا فِي مَحْبِسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ ، وَلَا يَلْتَفِتُ
 إِلَيْهِ ، وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنْ
 اللَّيَالِي سَهَدَ الْمَلِكُ سَهْدًا شَدِيدًا ^(٢) ، فَطَالَ سَهْدُهُ ، وَمَدَّ إِلَى الْفَلَكَ
 بَصَرَهُ ، وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ الْفَلَكَ وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ ^(٣) ، فَأَغْرَقَ
 الْفِكْرَ فِيهِ ، فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ
 الْفَلَكَ ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ يَدْبَا ، وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ ،

(١) قوتك . (٢) أرق أرقا شديدا . (٣) استدارة مدار النجوم .

(١) فَأَرَعَوَى لِدَلِكْ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ
 بِهَذَا الْفِيلْسُوفِ ، وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ ، وَحَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ
 سُرْعَةُ الْغَضَبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ
 فِي الْمُلُوكِ : الْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا ، وَالْبُخْلُ فَإِنَّ
 صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْدُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ ، وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ
 أَنْ يُجَاوِرَهُ ، وَالْعُنْفُ فِي الْمُحَاوَرَةِ فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا .
 وَإِنِّي أَتَى إِلَى رَجُلٍ نَصَحَ لِي ، وَلَمْ يَكُنْ مُبَلِّغًا ، فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ
 مَا يَسْتَحِقُّ ، وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ . وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ
 مِنِّي ، بَلْ كَانَ الْوَاجِبَ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ ، وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ .
 ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :
 يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هَمَّتِي ، وَعَجَزْتَ رَأْيِي
 فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا ؟ قَالَ لَهُ بَيْدَبَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ
 الشَّفِيقُ ، وَالصَّادِقُ الرَّفِيقُ ، إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ
 وَلِرَعِيَّتِكَ ، وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا أَعِذْ عَلَيَّ

(١) ارهوى ارهواء : نزع عن الجهل ورجع عنه .

كَلَامَكَ كُلَّهُ ، وَلَا تَدْعُ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِثَّتْ بِهِ . فَجَعَلَ بِيَدَيَا
يَنْتَرُ كَلَامَهُ ، وَالْمَلِكُ مُضْجِعٌ إِلَيْهِ . وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ
شَيْئًا يَنْكُتُ الْأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ . ثُمَّ رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى
بَيْدَبَا ، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ . وَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا ، إِنِّي قَدْ اسْتَعَذَبْتُ
كَلَامَكَ وَحَسَنَ مَوْقِعَهُ مِنْ قَلْبِي . وَأَنَا نَاطِرٌ فِي الَّذِي أَشْرْتَ
بِهِ ، وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ . ثُمَّ أَمَرَ بِقِيُودِهِ فَخُلَّتْ . وَأَلْقَى عَلَيْهِ
مِنْ لِبَاسِهِ ، وَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ . فَقَالَ بَيْدَبَا : يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ
فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ . قَالَ : صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ
الْفَاضِلُ . وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي
مَمْلَكَتِي . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَغْنِيَنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ : فَلِإِنِّي
غَيْرُ مُضْطَلَعٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلَّا بِكَ . فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ ،
عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ ، فَبَعَثَ فَرْدَهُ . وَقَالَ : إِنِّي
فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِمَّا عَرَضَتْهُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا
بِكَ ، وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ ، وَلَا يَضْطَلَعُ بِهِ سِوَاكَ . فَلَا
تُخَالِفْنِي فِيهِ . فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذَلِكَ .

وَكَانَ عَادَةُ مُلُوكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوَزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى
رَأْسِهِ تَاجًا ، وَيُرْكَبَ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ ، وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ .
فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِبَيْدَبَا ذَلِكَ . فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ ،
وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ فِجْلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ :
يَأْخُذُ لِلدَّنِيِّ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ،
وَرَدَّ الْمَظْلَمَ ، وَوَضَعَ سَنَنَ الْعَدْلِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ .
وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِتَلَامِيذِهِ بِخَاءِوَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَرِحِينَ بِمَا جَدَّدَ
اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدٍ رَأَى الْمَلِكُ فِي بَيْدَبَا ، وَشَكَرُوا^(١) اللَّهُ تَعَالَى عَلَى
تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيَرَةِ ،
وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ
فِي بِلَادِ الْهِنْدِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا أَخْلَى فِكْرَهُ مِنْ اشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ ، تَفَرَّغَ
لِوَضْعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا ، فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً ، فِيهَا
دَقَائِقُ الْحَيْلِ . وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ

(١) تعديّة الشكر باللام أنصح .

السيرة والعدل في الرعية . فرغبت إليه الملوك الذين كانوا
 في نواحيه ، وأنقادت له الأمور على استوائها . وفرحت به
 رعيته وأهل مملكته . ثم إنَّ بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم ،
 ووعدهم وعدا جميلا . وقال لهم : لست أشك أنه وقع في نفوسكم
 وقت دخولي على الملك أن قاتم : إنَّ بيدبا قد ضاعت حكمته ،
 وبطلت فكرته : إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغى .
 فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري . وإني لم آتِه جهلا به :
 لأنني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول : إنَّ الملوك لها
 سورة^(١) كسورة الشراب : فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ
 العلماء وأدب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتعظوا
 بمواعظ العلماء . والواجب على العلماء تقويم الملوك بالسنتها ،
 وتأديبها بحكمتها ، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم : ليرتدعوا
 عما هم عليه من الإغوجاج والخروج عن العدل . فوجدت
 ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم

مِنْ رَقَدَتِهِمْ ، كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ
 الْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصُّحَّةِ . فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ
 أَوْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ بِيَدَيَّ
 الْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ الطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .
 فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنَهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، قَالُوا : كَانَ
 الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جَوَارِهِ أَوْلَى بِهِ ، وَالْإِتْرَعَا جُ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ ،
 فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي ، فَأَكُونُ قَدْ أَتَيْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ
 الْحُكَمَاءِ بَعْدَى عُذْرًا . فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيرِ ^(١) أَوْ الظَّفَرِ بِمَا
 أُرِيدُهُ . وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ : فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ
 الْأَمْثَالِ : إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِأِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا بِمَشَقَّةٍ ^(٢)
 تَنَالَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ . وَمَنْ
 لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ . وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ
 بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ . فَلْيَضَعْ كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ ، وَلْيَعْرِضْهُ عَلَى لَأَنْظَرِ مِقْدَارَ

(١) التعريض للهلاك . (٢) أي أن يكون صاحب عقيدة صحيحة يتمسك بها مع أنه يؤذى
 ويفتنق في سبيلها ، فإذا ناله وكس بسبب ذلك فإنه لا بد أن يعرف الناس قدره بعد حين .

عقله، وأين بلغ من الحكمة فهمه . قالوا : أيها الحكيم الفاضل ،
والليب العاقل ، والذي وهب لك ما منحك من الحكمة والعقل
والآدب والفضيلة ، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قط . وأنت
رئيسنا وفاصلنا ، وبك شرفنا ، وعلى يدك انتعاشنا . ولكن
سنجهد أنفسنا فيما أمرت . ومكث الملك على ذلك من حسن
السيرة زمانا يتولى ذلك له بيديا ويقوم به .

ثم إن الملك دبشليم لما استقر له الملك ، وسقط عنه النظر
في أمور الأعداء بما قد كفاه ذلك بيديا ، صرف همهته إلى
النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لابائه وأجداده ،
فوقع في نفسه أن يكون له أيضا كتاب مشروح ينسب إليه
وتذكر فيه أيامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله . فلما عزم
على ذلك ، علم أنه لا يقوم ذلك إلا بيديا : فدعاه وخلا به ،
وقال له : يا بيدبا ، إنك حكيم الهند وفيلسوفها . وإني فكرت
ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي ، فلم أرفيهم
أحدا إلا وقد وضع كتابا يذكر فيه أيامه وسيرته ، وينبئ عن

أَدَبِهِ وَأَهْلٍ مَمْلُوكَتِهِ ، فَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا ، وَذَلِكَ
لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا ، وَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ حُكَّامُهَا . وَأَخَافُ أَنْ
يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلَئِكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ ، وَلَا يُوجَدُ فِي نَخَائِثِي
كِتَابٌ أَذْكَرُ بِهِ بَعْدِي ، وَأَنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي
بِكُتُبِهِمْ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ
يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ وَتَأْدِيبُهَا ، وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ
وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ ، فَيَسْقُطَ بِذَلِكَ
عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمَلِكِ . وَأُرِيدُ أَنْ
يَبْقَى لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ . فَلَمَّا سَمِعَ
بَيْدَبَا كَلَامَهُ نَحَرَ لَهُ سَاجِدًا ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
السَّعِيدُ جَدُّهُ ، عَلَا نَجْمُكَ ، وَغَابَ نَحْسُكَ ، وَدَامَتْ أَيَّامُكَ ،
إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جَوْدَةِ الْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ
حَرَكَهُ لِعَالِي الْأُمُورِ ، وَسَمَّتْ بِهِ نَفْسَهُ وَهَمَّتْهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ
مَنْزِلَةً ، وَأَبْعَدَهَا غَايَةً ، وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى

مَا عَزَمَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ . فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ
بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ : فَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى غَرَضِهِ ، مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي .
قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ
الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذَلِكَ ، وَاخْتَرْتُ أَنْ
تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ ، وَتَعْمَلَ فِيهِ فِكْرَكَ ، وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ ،
بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَلَيْسَ كُنْ مُشْتِمَلًا عَلَى الْجِدِّ وَالْهَزْلِ
وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ . فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ ، وَقَالَ : قَدْ
أَجَبْتُ الْمَلِكَ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ ، وَجَعَلْتُ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ أَجَلًا . قَالَ : وَكَمْ هُوَ الْأَجَلُ ؟ قَالَ : سَنَةٌ . قَالَ :
قَدْ أَجَلْتُكَ ، وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ
فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي الْأَخْذِ فِيهِ ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَتَدَيُّ بِهَا
فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي لِأَمْرٍ
فِيهِ نَخْرِي وَنَخْرُكُمْ وَنَخْرِبُ بِلَادَكُمْ ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ .
ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ ، وَالْغَرَضِ الَّذِي

قَصْدَ فِيهِ ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ
فَكَرَّ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَتِمُّ بِاسْتِيفَارِغِ
الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ ، وَقَالَ : أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
إِلَّا بِالْمَلَّاحِينَ : لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا ، وَإِنَّمَا تَسْلُكُ الْجَلَّةُ بِمُدْبِرِهَا
الَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَتِهَا ^(١) ، وَمَتَى شُحِنَتْ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ
مَلَّاحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرَقِ . وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ
فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ ، مَعَ رَجُلٍ مِنْ
تَلَامِيذِهِ كَانَ يَشُقُّ بِهِ ، فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا مَعَهُ ، بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ
الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئًا ، وَمِنْ الْقُوْتِ مَا يَقُومُ بِهِ
وَيَتَلَبَّذُهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ . وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ ، وَرَدَا عَلَيْهِمَا الْبَابَ
ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يَمْلِي وَتِلْمِيذُهُ
يَكْتُبُ ، وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِثْقَانِ
وَالْإِحْكَامِ . وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ
بِنَفْسِهِ . وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا ، لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ

فِيهِ حِظٌّ مِنَ الْهُدَايَةِ . وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا ،
وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةِ . ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ : لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لِهَوَا الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ ، وَبَاطِنُهُ
رِيَاضَةُ لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ . وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ
سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ
دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَآخِرَتِهِ وَأَوَّلَاهُ ، وَيَحْضُهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ
وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانِبَتُهُ خَيْرًا لَهُ . ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسَمِ
سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ : فَصَارَ الْحَيَوَانُ لِهَوَا ، وَمَا يَنْطِقُ
بِهِ حِكْمَةً وَأَدَبًا . فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيِّدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ
وَصَفَ الصَّدِيقِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ الصَّدِيقَانِ ، وَكَيْفَ تُقَطَّعُ
الْمُودَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةِ ذِي النَّمِيمَةِ . وَأَمَرَ تَلْبِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ
عَلَى لِسَانِ بَيِّدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَرْطُهُ فِي أَنْ جَعَلَهُ لِهَوَا
وَحِكْمَةً . فَذَكَرَ بَيِّدَبَا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ النِّقَلَةِ أَفْسَدَهَا
وَجُهَلَتْ حِكْمَتُهَا . فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتَلْبِيذُهُ يُعْمَلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا
سَأَلَهُ الْمَلِكُ ، حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ

بِهِمَّتَيْنِ . فَوَقَعَ لهُمَا مَوْضِعُ اللَّهِ وَاهْزَنَ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ . وَكَانَتْ
 الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ . فَأَصْغَتِ الْحُكْمَاءُ إِلَى حِكْمِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ
 وَاللَّهُوَ ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ . وَمَالَتْ إِلَيْهِ
 الْجُهَالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بِهِمَّتَيْنِ ، وَلَمْ يَشْكُوا فِي ذَلِكَ ، وَاتَّخَذُوهُ
 لَهْوًا ، وَتَرَكُوا مَعْنَى الْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْغَرَضَ
 الَّذِي وَضَعَ لَهُ ، لِأَنَّ الْفَيْلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي الْبَابِ
 الْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ
 عَلَى التَّحْفِظِ مِنْ أَهْلِ السَّعَايَةِ^(١) وَالتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ
 الْمُتَحَابِّينَ : لِيَجْرَ بِذَلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ . فَلَمْ يَزَلْ يَدْبَا وَتَلْبِيذُهُ
 فِي الْمَقْصُورَةِ ، حَتَّى اسْتَتَمَّ عَمَلَ الْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ . فَلَمَّا
 تَمَّ الْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ فَمَاذَا صَنَعْتَ ؟
 فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ يَدْبَا : إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ الْمَلِكَ . فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمَلِهِ ،
 بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ لِنُكُونِ قِرَاءَتِي هَذَا الْكِتَابِ بِحَضْرَتِهِمْ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سَرَّ بِذَلِكَ ، وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ

(١) السَّعَايَةُ : الْوَشَايَةُ وَالنَّمِيَّةُ .

أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ الْكِتَابِ . فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ ، أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ ؛ وَكَرَاسِيٌّ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ . وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ . فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ الثِّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ وَهِيَ الْمُسُوحُ السُّودُ ، وَحَمَلَ الْكِتَابَ تَلْبِيذُهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَقَامَ الْمَلِكُ شَاكِراً . فَلَمَّا قَرَّبَ مِنَ الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ ، وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا أَرْفَعْ رَأْسَكَ ، فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ هَنَاءٍ وَفَرَجٍ وَسُرُورٍ ، وَأَمْرُهُ أَنْ يُجْلِسَ . فَخِنَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ ، سَأَلَهُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ . فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ بَابٍ . فَازْدَادَ الْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّباً وَسُرُوراً . فَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ الَّذِي فِي نَفْسِي ؛ وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ ، فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ . فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْحَدِّ . وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا الْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَأَمَّا الْكُسُوفُ فَلَا أُخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي

هَذَا شَيْئًا ، وَلَسْتُ أَخْلِي الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ . قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا
مَا حَاجَتُكَ ؟ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ . قَالَ : يَا أَمْرُ الْمَلِكِ
أَنْ يَدُونَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دُونَ آبَاوَهُ وَأَجْدَادِهِ كَتَبَهُمْ ، وَيَأْمُرُ
بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ : فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَيَتَنَاوَلَهُ
أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ ، فَالْمَلِكُ يَا أَمْرُ أَلَّا يُخْرَجَ مِنْ بَيْتِ
الْحِكْمَةِ . ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلَامِيذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَازِزَ . ثُمَّ إِنَّهُ
لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَكَانَ مُسْتَأْثَرًا بِالْكُتُبِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ ، فَلَمْ يَقَرَّرْ قَرَارَهُ
حَتَّى بَعَثَ بَرْزَوِيَهَ الطَّيِّبَ وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ
فَأَقَرَّهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ .

بَابُ بَعْثَةِ بَرْزَوِيَهَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ بِرَحْمَتِهِ ، وَمَنْ عَلَى عِبَادِهِ
بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَرَزَقَهُمْ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلَاحِ مَعَاشِهِمْ
فِي الدُّنْيَا ، وَيُذَرِّكُونَهُ بِاسْتِنْقَادِ أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ
فِي الْآخِرَةِ ، وَأَفْضَلَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْعَقْلُ

الَّذِي هُوَ الدُّعَامَةُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالَّذِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا
 عَلَى إِصْلَاحِ مَعِيشَتِهِ وَلَا إِحْرَازِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ إِلَّا بِهِ .
 وَكَذَلِكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ الْمُنْجِي بِهِ رُوحَهُ لَا يَقْدِرُ
 عَلَى إِثْمَامِ عَمَلِهِ وَإِكْمَالِهِ إِلَّا بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ
 وَمِفْتَاحُ كُلِّ سَعَادَةٍ . فَلَيْسَ لِأَحَدٍ غِنًى عَنِ الْعَقْلِ . وَالْعَقْلُ
 مُكْتَسَبٌ بِالتَّجَارِبِ وَالْأَدَبِ . وَلَهُ غَرِيزَةٌ مَكْنُونَةٌ فِي الْإِنْسَانِ
 كَامِنَةٌ كَالنَّارِ فِي الْحَجَرِ لَا تَظْهَرُ وَلَا يَرَى ضَوْؤُهَا حَتَّى يَقْدَحَهَا
 قَادِحٌ مِنَ النَّاسِ ؛ فَإِذَا قُدِحَتْ ظَهَرَتْ طَبِيعَتُهَا . وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ
 كَامِنٌ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهِرَهُ الْأَدَبُ وَتَقْوِيهِ
 التَّجَارِبُ . وَمَنْ رَزَقَ الْعَقْلَ وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِ وَأَعَيْنَ عَلَى صِدْقِ
 قَرِيبَتِهِ بِالْأَدَبِ حَرَصَ عَلَى طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ ، وَأَذَرَ فِي الدُّنْيَا
 أَمَلَهُ ، وَحَازَ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابَ الصَّالِحِينَ . وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْمَلِكَ
 السَّعِيدَ أَنْوَشِرَوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ ، وَمِنَ الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ ؛ وَمِنَ
 الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصُوبَهَا ، وَمِنَ الْأَفْعَالِ أَسَدَّهَا ، وَمِنَ الْبَحْثِ
 عَنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ أَنْفَعَهُ ؛ وَبَلَغَهُ مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ ،

وَبُلُوغَ مَنْزِلَةِ الْفَلَسَفَةِ ، مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ ،
 حَتَّى كَانَ فِيهَا طَلَبٌ وَبَحْثٌ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابٍ
 بِالْهِنْدِ ، عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى
 كُلِّ مَنْفَعَةٍ ، وَمِفْتَاحُ عَمَلِ الْآخِرَةِ وَعِلْمُهَا ، وَمَعْرِفَةُ النِّجَاةِ مِنْ
 هَوَاهَا ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بِرُجْمِهِ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ
 عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِصِيرٍ بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ ، مَاهِرٍ فِي كَلَامِ
 الْهِنْدِ ، وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللَّسَانَيْنِ جَمِيعًا ، حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ
 مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ ، مُبَادِرًا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَالْبَحْثِ
 عَنْ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ . فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ ،
 مَعْرُوفٍ بِصِنَاعَةِ الطِّبِّ ، مَاهِرٍ فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ
 بَرْزَوِيهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :
 يَا بَرْزَوِيهِ : إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغْتَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ ،
 وَحَرِيصَتِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ . وَقَدْ بَلَغْتَنِي عَنْ كِتَابٍ
 بِالْهِنْدِ مَخْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ . وَقَالَ لَهُ :
 تَجَهَّزْ فَإِنِّي مَرَّحُوكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ ، فَتَلَطَّفَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ

أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ ، لِاسْتِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ
قَبْلِ عُلَمَائِهِمْ ؛ فَتَسْتَفِيدَ بِذَلِكَ وَتُفِيدَنَا . وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ
كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَأَحْمِلْهُ مَعَكَ ؛ وَخُذْ
مَعَكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَتَحْمِلُ ذَلِكَ ، وَلَا تُقْصِرْ
فِي طَلَبِ الْعُلُومِ وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ النِّفَقَةَ ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي
خَزَائِنِي مَبْدُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ . وَأَمْرٌ بِإِحْضَارِ الْمُتَجَمِّينَ ؛
فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ ، وَسَاعَةً صَالِحَةً يُخْرَجُ فِيهَا . وَحَمَلَ
مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا ؛ كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافِ
دِينَارٍ . فَلَمَّا قَدِمَ بَرَزَوِيهِ بِلَادَ الْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ الْمَلِكِ وَتَجَالَسَ
السُّوقَةَ ^(١) ، وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ
وَالْفَلَاسِفَةِ ؛ فَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالتَّحِيَّةِ ،
وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِيُطَلِّبَ الْعُلُومَ وَالْأَدَبَ ،
وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمْ فِي ذَلِكَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا
يَتَأَدَّبُ عَنْ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ

شَيْئًا ، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتَرْبُغِيتهُ وَحَاجَتَهُ . وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ
الْحَالَةِ لَطُولَ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ
وَالْفَلَاسِفَةِ وَالسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ ، وَكَانَ قَدْ
اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدْ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ وَمَا يُحِبُّ
مُشَاوَرَتَهُ فِيهِ ، لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ ، وَاسْتَبَانَ لَهُ مِنْ
صِحَّةِ إِخَائِهِ ، وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ ، وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ
مَا أَهَمَّهُ . إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ مِنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ
يَبْلُوهُ وَيُخْبِرَهُ ، وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ . فَقَالَ
لَهُ يَوْمًا وَهُمَا جَالِسَانِ : يَا أَخِي مَا أَرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرٍ
فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ . فَأَعْلَمَ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ ، وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي
يُظْهِرُ مِنِّي ، وَالْعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ ،
حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : إِنِّي
وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتُ لَهُ ، وَإِيَّاهُ تُرِيدُ ،
وَأَنَّكَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ ، وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ ، مَا خَفِيَ عَلَى ذَلِكَ مِنْكَ .
وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَائِكَ ، كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ . وَإِنِّهُ قَدْ

اسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ مِنِّي . فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ ، وَأَفْصَحْتَ
 بِهِ وَبِالْكَلَامِ فِيهِ ، فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَمُظْهِرُكَ لِكَسْرِكَ ،
 وَمُعْلِمُكَ بِحَالِكَ الَّتِي قَدِمْتَ لَهَا ، فَإِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادِنَا لِتَسْلُبَنَا
 كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ ، فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَتُسَرِّبَهَا مِلْكَكَ .
 وَكَانَ قُدُومُكَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ . وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ ،
 وَمَوَاطِنَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ ، وَالتَّحَفُّظِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ
 الْكَلَامُ ، مَعَ طُولِ مُكْنِكَ عِنْدَنَا ، بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سِرِّيرَتِكَ
 وَأُمُورِكَ ، أَزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ ، وَثِقَةً بِعَقْلِكَ ، فَأَحْبَبْتُ
 مَوَدَّتَكَ . فَإِنِّي لَمْ أَرَفِ الرُّجَالَ رَجُلًا هُوَ أَرْضَنُ مِنْكَ عَقْلًا ،
 وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا ، وَلَا أَصْبِرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَلَا أَكْتُمُ لِسِرِّهِ
 مِنْكَ ، وَلَا سِيَّيًا فِي بِلَادِ غُرَبَةٍ ، وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ ، عِنْدَ
 قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ . وَإِنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ :
 الْأُولَى الرِّفْقُ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا .
 وَالثَّالِثَةُ طَاعَةُ الْمُلُوكِ ، وَالتَّحَرُّى لِمَا يُرْضِيهِمْ . وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ

الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ .
 وَالْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِقَ اللُّسَانِ ^(١) .
 وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا . وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ
 عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا ، فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ . وَالثَّامِنَةُ
 إِنْ كَانَ بِالْمَحْفَلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنْ اجْتَمَعَتْ
 فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِيَ الْخَيْرِ إِلَى نَفْسِهِ . وَهَذِهِ
 الْخِصَالُ كُلُّهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيكَ ، وَبَانَتْ لِي مِنْكَ . فَاللَّهُ تَعَالَى
 يَحْفَظُكَ ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ ، فُصَادَقْتُكَ إِيَّايَ ، وَإِنْ
 كَانَتْ لِنَسْلَبِي كَنْزِي وَنَخْرِي وَعِلِّي ، تَجْعَلُكَ أَهْلًا لِأَنْ تُسَعَفَ
 بِحَاجَتِكَ ، وَتُسَفَعَ بِطَلِبَتِكَ ^(٢) ، وَتُعْطَى سُؤْلُكَ ^(٣) . فَقَالَ لَهُ بَرْزَوِيهِ :
 إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلَامًا كَثِيرًا ، وَشَعَبْتُ لَهُ شُعُوبًا ، وَأَنْشَأْتُ
 لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنْ أَطْلَاعِكَ
 عَلَى أَمْرِي وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ ، وَالْقَيْتَهُ عَلَى مَنْ ذَاتِ نَفْسِكَ ،
 وَرَغَبَتِكَ فِيمَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ ، أَكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخُطَابِ

مَعَكَ ، وَعَرَفْتُ الْكَبِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالصَّغِيرِ مِنَ الْكَلَامِ ،
 وَاقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِيجَازِ . وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ
 بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ : فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا
 أُلْقِيَ إِلَى الْفَيْلَسُوفِ ، وَالسَّرَّ إِذَا اسْتُودِعَ إِلَى اللَّيِّيبِ الْحَافِظِ ،
 فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِغَ بِهِ نِهَآيَةُ أَمَلٍ صَاحِبِهِ ، كَمَا يُحَصِّنُ الشَّيْءُ
 النَّفِيسُ فِي الْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : لَا شَيْءَ أَفْضَلُ
 مِنَ الْمَوَدَّةِ . وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ
 بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَدَّخِرَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا : فَإِنَّ حِفْظَ السَّرِّ
 رَأْسُ الْأَدَبِ . فَإِذَا كَانَ السَّرُّ عِنْدَ الْأَمِينِ الْكُتُومِ فَقَدْ احْتَرَزَ
 مِنَ التَّضْيِيعِ ، مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ إِلَّا يَتَكَلَّمُ بِهِ ، وَلَا يَتِمُّ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ
 قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَاهُ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسَّرِّ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ
 مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا ، فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ ، حَتَّى
 لَا يَسْتَطِيعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْحَدَهُ وَيُكَابِرَ عَنْهُ ، كَالْغَيْمِ إِذَا كَانَ
 مُتَقَطِّعًا فِي السَّمَاءِ فَقَالَ قَائِلٌ : هَذَا غَيْمٌ مُتَقَطِّعٌ ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ
 عَلَى تَكْذِيبِهِ . وَأَنَا قَدْ يَدَاخَلْنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخِلَاطِنِكَ سُرُورٌ^(١)

لَا يَعِدُهُ شَيْءٌ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ
الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا تُكْتَمُ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهَرَ ، حَتَّى يَتَحَدَّثَ
بِهِ النَّاسُ . فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِ هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ
عَلَى الْفِدَاءِ مِنْهُ بِالْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ : لِأَنَّ مَلِكًا فَظٌّ غَلِيظٌ ، يُعَاقِبُ
عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ أَشَدَّ الْعِقَابِ ، فَكَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ
الْعَظِيمِ ؟ وَإِذَا حَمَلْتَنِي الْمَوَدَّةُ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَاسْعِفْتُكَ بِحَاجَتِكَ
لَمْ يَرُدَّ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءٌ . قَالَ بَرْزَوِيهِ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتْ
الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى الْفَوْزِ . وَهَذَا الْأَمْرُ
الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ ، لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ ، وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ ، وَأَنَا وَاثِقٌ
بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ
أَنْ أُبْدِيَهُ ، بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ الطَّائِفِينَ بِكَ وَبِالْمَلِكِ أَنْ
يَسْعَوْا بِكَ إِلَيْهِ . وَأَنَا أَرْجُو أَلَّا يَسْبِيحَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ :
لِأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ ، وَمَا أَقَمْتُ فَلَا ثَالِثَ بَيْنَنَا . فَتَعَاهَدَا
عَلَى هَذَا جَمِيعًا . وَكَانَ الْهِنْدِيُّ خَازِنَ الْمَلِكِ ، وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ
خَزَائِنِهِ . فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ .

فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقَلَهُ مِنَ اللُّسَانِ الْهِنْدِيِّ إِلَى اللُّسَانِ الْفَارِسِيِّ ؛
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ ، وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌّ
وَفَزِعٌ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ ؛ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ الْمَلِكُ
الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفَهُ فِي خَزَائِنِهِ . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ
اتِّسَاحِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ . كَتَبَ إِلَى
أَنُوشِرْوَانَ يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ ، سَرَّ بِذَلِكَ
سُرُورًا شَدِيدًا ، ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ الْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْغِصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ ؛
فَكَتَبَ إِلَى بَرَزَوِيهِ بِأَمْرِهِ بِتَعْجِيلِ الْقُدُومِ . فَسَارَ بَرَزَوِيهِ
مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كَسْرَى . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ الشَّحُوبِ ^(١)
وَالْتَعَبِ وَالنَّصَبِ ، قَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ
مَا قَدْ غَرَسَ ، ابْشِرْ وَقَرِّ عَيْنًا : فَإِنِّي مُشْرَفُكَ وَبَالِغُ بِكَ أَفْضَلَ
دَرَجَةٍ . وَأَمْرُهُ أَنْ يَرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ . فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ ،
أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا ،
أَمَرَ بَرَزَوِيهِ بِالْحُضُورِ . فَحَضَرَ مَعَهُ الْكُتُبُ ؛ فَفَتَحَهَا وَقَرَأَهَا

(١) تغير اللون من السفر ونحوه .

عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ . فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ
فَرَحُوا فَرَحًا شَدِيدًا ، وَشَكَرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ ، وَمَدَحُوا
بِرَزْوِيهِ وَاثْنُوا عَلَيْهِ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ تَفْتَحَ لِبِرَزْوِيهِ خَزَائِنُ اللُّلُؤِ
وَالزَّبَرَجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ
الْخَزَائِنِ مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ أَوْ كُسُوفَةٍ ، وَقَالَ : يَا بِرَزْوِيهِ إِنِّي قَدْ
أَمَرْتُ أَنْ تُجَاسَّ عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هَذَا ، وَتُلْبَسَ تَاجًا ،
وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْرَافِ . فَسَجَدَ بِرَزْوِيهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ
وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ وَقَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلِكَ كَرَامَةَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ ، فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مُسْتَغْنٍ
عَنِ الْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي اللَّهُ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ الْجَدِّ ، الْعَظِيمِ
الْمَلِكِ ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِالْمَالِ ، لَكِنِّ لَمَّا كَلَّفَنِي الْمَلِكُ ذَلِكَ
وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسْرُهُ ، أَنَا أَمْضِي إِلَى الْخَزَائِنِ فَأَخْذُ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ
وَأَمْتِنًا لِأَمْرِهِ . ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ الثِّيَابِ فَأَخْذَ مِنْهَا تَحْتًا مِنْ^(١)
طَرَائِفِ خُرَاسَانَ مِنْ مَلَابِسِ الْمُلُوكِ . فَلَمَّا قَبِضَ بِرَزْوِيهِ

(١) رعاء تصان فيه الثياب .

مَا اخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ الثِّبَابِ قَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ الْمَلِكَ وَمَدَّ
فِي عُمُرِهِ أَبَدًا . لَا بُدَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ ،
وَإِنْ كَانَ قَدْ اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا رِضَا الْمَلِكِ .
وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ ، لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ
فِيهِ الشَّرَفَ يَا أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ ! فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ تَابِعًا
رِضَاكُمْ ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا . وَالشَّاقَّ هَيِّنًا ، وَالنَّصَبَ
وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً : لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًا وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ .
وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسَعِفُنِي بِهَا ، وَتُعْطِينِي فِيهَا
سُؤْلِي : فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ ، وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ . قَالَ
أَنُوشِرَوَانُ : قُلْ فَكُلْ حَاجَةً لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ : فَإِنَّكَ عِنْدَنَا
عَظِيمٌ ، وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا ، وَلَمْ نَزِدْ طَلِبَتَكَ ،
فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ ؟ فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمْ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا
مَبْدُولَةٌ لَكَ . قَالَ بَرْزَوِيهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي
فِي رِضَاكَ وَانْكِاشِي^(١) فِي طَاعَتِكَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزُمُنِي بَذَلُ

(١) الانكاش في الأمر : الجذ فيه .

مُهَجَّتِي فِي رِضَاكَ ، وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيماً وَلَا
وَاجِباً عَلَى الْمَلِكِ ، وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدٌ إِلَى مُجَازَاتِي ،
وَحَصْنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بَعُلُوُ الْمَرْتَبَةِ وَرَفَعَ الدَّرَجَةِ ، حَتَّى لَوْ قَدَرَ
أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ . فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا
أَفْضَلَ الْجَزَاءِ . قَالَ أُنُوشِرَوَانُ : أَذْكُرُ حَاجَتَكَ ، فَعَلَى مَا يَسُرُّكَ .
فَقَالَ بَرْزَوِيهِ : حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ ، أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ،
وَزِيرَهُ بَزْرَجْمَهْرَ بْنَ الْبَخْتِكَانِ ، وَيُقَسِّمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمَلَ فِكْرُهُ ،
وَيَجْمَعَ رَأْيُهُ ، وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ ، وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ
كَلَامٍ مُتَقِنٍ مُحْكَمٍ ، وَيَجْعَلَهُ بَاباً يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي ،
وَلَا يَدْعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . وَيَأْمُرُهُ
إِذَا أَسْتَتَمَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ
وَالثَّوْرِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ
الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَابْقَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِياً عَلَى
الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ .

فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَالْعُظْمَاءُ مَقَالَتهُ وَمَا سَمِعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ
 مِنْ مَحَبَّةٍ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ اسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ ، وَقَالَ كِسْرَى :
 حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بَرَزَوِيهَ ، إِنَّكَ لِأَهْلٌ أَنْ تُسَعِفَ بِحَاجَتِكَ ،
 فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرُهُ عِنْدَنَا ! وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ^(١)
 عَظِيمًا . ثُمَّ أَقْبَلَ أَنْوَشِرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بَرَزَجْمَهَرَ فَقَالَ لَهُ : قَدْ
 عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بَرَزَوِيهِ لَنَا ، وَتَجَشَّمَهُ^(٢) الْمَخَافُوفَ وَالْمَهَالِكَ فِيمَا يُقَرِّبُهُ
 مِنَّا ، وَإِثْعَابَهُ بِدَنِّهِ فِيمَا يُسَرِّنَا ، وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ ،
 وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا نَفْرَهُ ، وَمَا
 عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، فَلَمْ تَمَلْ
 نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ بَغِيْتَهُ وَطَلِبَتَهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَأَاهُ
 هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ ، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تُتَكَلَّمَ
 فِي ذَلِكَ وَتُسَعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسَرِّنِي ،
 وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنَ الْإِجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَّغْتَهُ ، وَإِنْ نَالَكَ فِيهِ
 مَشَقَّةٌ . وَهُوَ أَنْ تُكْتُبَ بَابًا مُضَارِعًا لِنَتْلِكَ الْأَبْوَابَ الَّتِي
 فِي الْكِتَابِ ، وَتَذَكَّرَ فِيهِ فَضْلَ بَرَزَوِيهِ ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ

(١) القدر والشرف . (٢) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة .

أَمْرُهُ وَشَأْنُهُ ، وَتَنْسِبُهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، وَتَذَكُّرُ فِيهِ
بَعَثَتُهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا ، وَمَا أَفَدْنَا عَلَى يَدَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ ،
وَشُرْفَنَا بِهِ وَفَضْلَنَا عَلَى غَيْرِنَا ، وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرَزَوِيهِ وَقُدُومُهُ
مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيطِ وَالْإِطْنَابِ
فِي مَدْحِهِ ، وَبَالِغِ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالَغَةِ وَاجْتِهَدِ فِي ذَلِكَ اجْتِهَادًا
يَسْرُ بَرَزَوِيهِ وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . وَإِنَّ بَرَزَوِيهِ أَهْلٌ لِدَلِكْ مِنِّي وَمِنْ
جَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيُّضًا : لِحُبَّتِكَ لِلْعُلُومِ . وَاجْهَدْ أَنْ
يَكُونَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرَزَوِيهِ أَفْضَلَ مِنْ
أَغْرَاضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً لِلْحَالِ
هَذَا الْعِلْمِ : فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلَّهُمْ بِذَلِكَ : لِانْفِرَادِكَ بِهَذَا
الْكِتَابِ ، وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ . فَإِذَا أَنْتَ عَمَلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ
فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلَمْنِي لِأَجْمَعَ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، فَيُظْهِرُ فَضْلَكَ
وَاجْتِهَادَكَ فِي مُحَبَّتِنَا ، فَيَكُونُ لَكَ بِذَلِكَ نَفْرٌ . فَلَمَّا سَمِعَ بَرَزَجِمَهُرُ
مَقَالََةَ الْمَلِكِ نَحْرَهُ سَاجِدًا ، وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
الْبَقَاءَ ، وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ،
لَقَدْ شَرَفْتَنِي بِذَلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ . ثُمَّ نَخَرَجَ بَرَزَجِمَهُرُ مِنْ

عِنْدَ الْمَلِكِ ، فَوصَفَ بَرَزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ ،
 وَمُضِيَّهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ ؛ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ
 خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ ؛ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أُنُوشِرَوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ
 الْكِتَابِ . وَلَمْ يَدَّغْ مِنْ فَضَائِلِ بَرَزَوِيهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ
 وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا نَسَّقَهُ ، وَأَتَى بِهِ بِأَجُودَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ .
 ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكُ بِفِرَاغِهِ مِنْهُ . فَجَمَعَ أُنُوشِرَوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَاهْلَ
 مَمْلَكَتِهِ ، وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَأَمَرَ بَرَزَوِيَّ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ ،
 وَبَرَزَوِيهِ قَائِمًا إِلَى جَانِبِ بَرَزَجْمَهَرٍ ، وَابْتَدَأَ بِوصفِ بَرَزَوِيهِ
 حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ . فَقَرَّحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بَرَزَجْمَهَرٌ مِنَ
 الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . ثُمَّ أَتَى الْمَلِكُ وَجَمِيعٌ مِنْ حَضْرِهِ عَلَى بَرَزَجْمَهَرٍ ،
 وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ ؛ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُسُوفٍ وَحُلِيِّ
 وَأَوَانٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسُوفٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ
 الْمُلُوكِ . ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بَرَزَوِيهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ ؛ وَأَقْبَلَ
 بَرَزَوِيهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ
 بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بَرَزَجْمَهَرٌ مِنْ صُنْعِهِ
 الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي .

بَابُ عَرْضِ الْكِتَابِ . تَرْجَمَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ

هَذَا كِتَابُ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةِ ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعَهُ عَلِمَاءُ الْهِنْدِ مِنَ
الْأَمْثَالِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي أَتَمُّوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا
مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّحْوِ الَّذِي أَرَادُوا . وَلَمْ تَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ
مِلَّةٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ عَنْهُمْ ، وَيَحْتَالُونَ فِي ذَلِكَ بِصُنُوفِ
الْحِيلِ ، وَيَتَتَفَعَّلُونَ إِنْجَرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَلِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ
تِلْكَ الْعِلَلِ وَضَعُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ . فَاجْتَمَعَ
لَهُمْ بِذَلِكَ خِلَالٌ . أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُتَصَرِّفًا فِي الْقَوْلِ وَشِعَابًا
يَأْخُذُونَ مِنْهَا . وَأَمَّا الْكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهْوًا : فَاخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ
لِحِكْمَتِهِ . وَالسُّفَهَاءُ لِلْهَوَى ، وَالْمُتَعَلِّمُونَ الْأَحْدَاثِ نَاشِطٌ
فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبِطُ فِي صَدْرِهِ وَلَا يَدْرِي مَا هُوَ ،
بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفَرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ . وَكَانَ كَالرَّجُلِ
الَّذِي لَمَّا اسْتَكْبَلَ الرُّجُولِيَّةَ وَجَدَ أَبْوِيَهُ قَدْ كَنَزَا لَهُ كُنُوزًا وَعَقْدًا
لَهُ عُقُودًا اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الْكَدْجِ فِيمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ ،
فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ
وُجُوهِ الْأَدَبِ .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الْوُجُوهَ الَّتِي وُضِعَتْ
لَهُ ، وَإِلَى أَى غَايَةٍ جَرَى مُؤَلَّفُهُ فِيهِ عِنْدَ مَا نَسَبَهُ إِلَى الْبَهَائِمِ
وَأَضَافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصِحٍ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْضَاحِ الَّتِي جَعَلَهَا
أَمْثَالًا : فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَدْرِ مَا أُرِيدَ بِتِلْكَ الْمَعَانِي ،
وَلَا أَى ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا ، وَلَا أَى نَتِيجَةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ
مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْكِتَابُ . وَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ غَايَتُهُ اسْتِثْمَامَ قِرَاءَتِهِ إِلَى
آخِرِهِ دُونَ مَعْرِفَةِ مَا يَقْرَأُ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ .
وَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ الْعُلُومِ وَقِرَاءَةِ الْكُتُبِ ، مِنْ غَيْرِ إِعْمَالِ
الرَّوِيَّةِ فِيهَا يَقْرُوهُ ، كَانَ خَلِيقًا إِلَّا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا أَصَابَ الرَّجُلَ
الَّذِي زَعَمَتِ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ اجْتَازَ بَعْضَ الْمَفَاوِزِ ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ
آثَارِ كُنْزٍ ، فَجَعَلَ يَحْفِرُ وَيَطْلُبُ ، فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنِ
وَرِقٍ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنْ أَنَا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هَذَا الْمَالِ
قَلِيلًا قَلِيلًا طَالَ عَلَيَّ ، وَقَطَعَنِي الْإِشْتَغَالُ بِنَقْلِهِ وَإِحْرَازِهِ عَنِ
اللَّذَةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوَامًا يَحْمِلُونَهُ إِلَى مَنْزِلِي ،
وَأَكُونُ أَنَا آخِرُهُمْ ، وَلَا يَكُونُ بَقِي وَرَائِي شَيْءٌ يَشْغَلُ فِكْرِي

بِنَقْلِهِ ، وَأَكُونُ قَدْ اسْتَظْهَرْتُ لِنَفْسِي فِي إِرَاحَةٍ بَدَنِي عَنِ الْكَدِّ
 بِسِيرِ أَجْرَةٍ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا . ثُمَّ جَاءَ بِالْحَمَّالِينَ ، فَجَعَلَ يُحْمَلُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَيَفُوزُ بِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ
 مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ . فَأَنْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ : فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنْ
 الْمَالِ شَيْئًا ، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا . وَإِذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَمَّالِينَ
 قَدْ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ
 وَالتَّعَبُ : لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هَذَا
 الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ،
 لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ ، كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَدَّمَ لَهُ
 جَوْزٌ صَحِيحٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكْسِرَهُ ، وَكَانَ أَيْضًا كَالرَّجُلِ
 الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، فَأَتَى صَدِيقًا لَهُ مِنْ
 الْعُلَمَاءِ ، لَهُ عِلْمٌ بِالْفَصَاحَةِ ، فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الْفَصِيحِ ،
 فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيحَ الْكَلَامِ وَتَصَارِيفَهُ
 وَوُجُوهُهُ ، فَأَنْصَرَفَ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَجَعَلَ يَكْثُرُ قِرَاءَتَهَا وَلَا

يَقِفُ عَلَى مَعَانِيهَا . ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مُحْفِلٍ مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ ، فَخَرَّتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيهَا ،
فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْجَمَاعَةِ : إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ ، وَالْوَجْهُ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ
بِهِ . فَقَالَ وَكَيْفَ أَخْطِئْتُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْرَاءَ ، وَهِيَ
فِي مَنْزِلِي ؟ فَكَانَتْ مَقَالَتُهُ لَهُمْ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَزَادَهُ ذَلِكَ
قُرْبًا مِنَ الْجَهْلِ وَبُعْدًا مِنَ الْأَدَبِ .

ثُمَّ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا فَهِمَ هَذَا الْكِتَابَ وَبَلَغَ نِهَايَةَ عَلَيْهِ فِيهِ ،
يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عِلْمُ مِنْهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، وَيَجْعَلَهُ مِثَالًا
لَا يَحِيدُ عَنْهُ . فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، كَانَ مِثْلَهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي
زَعَمُوا أَنْ سَارِقًا تَسَوَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ ، فَعَلِمَ بِهِ فَقَالَ :
وَاللَّهِ لَا أَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ ، وَلَا أَذْعُرُهُ ، وَلَا أُغْلِبُهُ
أَنْيَ قَدْ عَلِمْتُ بِهِ . فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ ، فَغَضَّتْ ذَلِكَ
عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ . وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ ، وَطَالَ
تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ ، فَغَلَبَ الرَّجُلُ النُّعَاسُ فَنَامَ ، وَفَرَّغَ
اللُّصُّ مِمَّا أَرَادَ ، وَأَمْكَنَهُ الذَّهَابُ . وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ ، فَوَجَدَ

اللصّ قد أخذ المتاع وفاز به . فأقبل على نفسه يلومها ،
 وعرف أنه لم ينتفع بعليه بالّصّ : إذ لم يستعمل في أمره
 ما يجب . فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به
 كالثمرة . وإثمًا صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن
 لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالمًا . ولو أن رجلاً كان عالمًا
 بطريق مخوف ، ثم سلكه على عام به ، سمى جاهلاً ، ولعله إن
 حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواءً هجمت بها فيما هو
 أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق
 المخوف الذي قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي
 أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمرّيض العالم
 برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمّله الشره
 على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من
 علته . وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب
 مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض
 كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل

إِلَى حُفْرَةٍ فَوْقَهَا فِيهَا ، كَانَا إِذَا صَارَا فِي قَاعِهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ،
غَيْرَ أَنَّ الْبَصِيرَ أَقْلٌ عُذْرًا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ : إِذْ كَانَتْ لَهُ
عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا ، وَذَلِكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلٌ غَيْرُ عَارِفٍ .

وَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ وَيُودِّبَهَا بِعِلْمِهِ ، وَلَا تَكُنْ غَايَتُهُ
اِقْتِنَاؤُهُ الْعِلْمَ لِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ ، وَيَكُونُ كَالْعَيْنِ الَّتِي يَشْرَبُ النَّاسُ
مَاءَهَا وَلَيْسَ لَهَا فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمَنْفَعَةِ ، وَكَدُودَةِ الْقَرْزِ الَّتِي
تُحْكَمُ صَنْعَتُهُ وَلَا تَنْتَفِعُ بِهِ . فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ
بِعِظَةِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبِسَهُ ^(١) ، فَإِنْ خَلَا لَا يَنْبَغِي
لصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيَهَا وَيُقْبِسَهَا : مِنْهَا الْعِلْمُ وَالْمَالُ . وَمِنْهَا
اِتِّخَاذُ الْمَعْرُوفِ . وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَعِيبَ أَمْرًا بِشَيْءٍ فِيهِ مِثْلُهُ ،
وَيَكُونُ كَالْأَعْمَى الَّذِي يُعِيرُ الْأَعْمَى بِعَمَاهُ . وَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ غَايَةٌ وَنِهَايَةٌ ، وَيَعْمَلُ بِهَا ، وَيَقِفَ عِنْدَهَا ،
وَلَا يَتَمَادَى فِي الطَّلَبِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ سَارَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ

(١) أَقْبَسَهُ الْعِلْمَ وَقَبَسَهُ إِيَّاهُ يَقْبِسُهُ : أَفَادَهُ إِيَّاهُ ، وَيُقَالُ : اقْتَبَسْتُ مِنْهُ عِلْمًا وَتَبَسْتُ اسْتَفَدْتُ

يُوشِكُ أَنْ تَنْقَطِعَ بِهِ مَطِيَّتُهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ حَقِيقًا ^(١) إِلَّا يَعْنِي نَفْسَهُ
 فِي طَلَبِ مَا لَا حَدَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَنْلَهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَلَا يَتَأَسَفُ
 عَلَيْهِ ؛ وَلَا يَكُونُ لِدُنْيَاهُ مُوَرِّئًا عَلَى آخِرَتِهِ : فَإِنْ مَنْ لَمْ يُلْقِ قَلْبَهُ
 بِالْغَايَاتِ قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا . وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ
 إِنَّهُمَا يَجْمَلَانِ بِكُلِّ أَحَدٍ ^(٢) : أَحَدُهُمَا النَّسْكُ وَالْآخَرُ الْمَالُ الْحَلَالُ
 وَلَا يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُوَنِّبَ نَفْسَهُ عَلَى مَا فَاتَهُ وَيَأْسَ فِي مَقْدُورِهِ ؛
 فَرُبَّمَا أَتَاهُ اللَّهُ لَهُ مَا يَهْنَأُ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ . وَمِنْ أَمْثَالِ
 هَذَا أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِهِ فَاقَةٌ وَجُوعٌ وَعُرَى ، فَأَلْجَأَهُ ذَلِكَ إِلَى
 أَنْ سَأَلَ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُودُ
 بِهِ عَلَيْهِ . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذْ بَصُرَ بِسَارِقٍ فِيهِ ،
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخَافُ عَلَيْهِ : فَلْيَجْهَدْ السَّارِقُ
 جُهْدَهُ . فَبَيْنَمَا السَّارِقُ يَجُولُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَابِيَةٍ فِيهَا
 حِنْطَةٌ ، فَقَالَ السَّارِقُ : وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ عَنَائِي اللَّيْلَةُ
 بَاطِلًا . وَلَعَلِّي لَا أَصِلُ إِلَى مَوْضِعِ آخِرٍ ، وَلَكِنْ سَأَخْمِلُ هَذِهِ

(٢) يتعبها . (٢) العبادة . (٣) بصربه كظرف وفرح أبصره .

الْحِنْطَةُ . ثُمَّ بَسَطَ قَمِيصَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الْحِنْطَةُ . فَقَالَ الرَّجُلُ :
 أَيَذْهَبُ هَذَا بِالْحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرَائِي سِوَاهَا ؟ فَيَجْتَمِعُ عَلَى مَعَ
 الْعُرَى ذَهَابُ مَا كُنْتُ أَقْتَاتُ بِهِ . وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللَّهِ هَاتَانِ
 الْخِلَتَانِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَهْلَكَاهُ . ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ ، وَأَخَذَ هِرَاوَةً^(١)
 كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْسَّارِقِ حِيلَةٌ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ ، وَتَرَكَ
 قَمِيصَهُ وَنَجَّى بِنَفْسِهِ ، وَغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِيًا . وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ
 يَرْكُنَ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَيَدَعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَذَرِ وَالْعَمَلِ فِي
 مِثْلِ هَذَا لِصَلَاحِ مَعَاشِهِ ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ تُؤَاتِيهِ الْمَقَادِيرُ
 وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ التَّكَّاسِ مِنْهُ : لِأَنَّ أَوْلِيكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ ،
 وَالْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي الْكَدِّ وَالسَّعْيِ فِيمَا يُصْلِحُ
 أَمْرَهُ وَيُنَالُ بِهِ مَا أَرَادَ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَرِصُهُ عَلَى مَا طَابَ
 كَسْبُهُ وَحَسَنَ نَفْعُهُ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ لِمَا يَجْلِبُ عَلَيْهِ الْعَنَاءُ
 وَالشَّقَاءُ ، فَيَكُونَ كَالْحِمَامَةِ الَّتِي تُفْرِخُ الْفِرَاحَ فَتُوْخِذُ وَتَذْبُجُ ،
 ثُمَّ لَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ أَنْ تَعُودَ فَتُفْرِخَ مَوْضِعَهَا ، وَتُقِيمَ بِمَكَانِهَا فَتُوْخِذَ

(١) الهراوة بالكسر : العما الضخمة .

الثَّانِيَةُ مِنْ فِرَاحِهَا فَتُذَبِّحُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ
لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يُوقَفُ عَلَيْهِ . وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي أَشْيَاءٍ حَدَّهَا
أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا . وَيُقَالُ : مَنْ كَانَ سَعْيُهُ
لِآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فحَيَاتُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَيُقَالُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ يَجِبُ
عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلَاحُهَا وَبَذْلُ جُهِدِهِ فِيهَا : مِنْهَا أَمْرُ
مَعِيشَتِهِ ، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنْهَا مَا يَكْسِبُهُ الذِّكْرُ
الْجَمِيلَ بَعْدَ . وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مِنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَسْتَقِمَّ لَهُ عَمَلٌ .
مِنْهَا التَّوَانِي ، وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الْفُرْصِ ، وَمِنْهَا التَّصَدِيقُ لِكُلِّ
مُخْبِرٍ . فَرُبَّ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقَلَهُ وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ .
وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مَتْنًا ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ
حَدِيثًا ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الْخَطَا إِذَا ظَهَرَ لَهُ خَطْوُهُ وَلَا يُقَدِّمَ
عَلَى أَمْرٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ ، وَتَتَضَحَّ لَهُ الْحَقِيقَةُ ، وَلَا
يَكُونُ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الطَّرِيقِ ، فَيَسْتَمِرَّ عَلَى الضَّلَالِ ،
فَلَا يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ إِلَّا جَهْدًا ، وَعَنِ الْقَصْدِ إِلَّا بُعْدًا ،
وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْذَى عَيْنُهُ فَلَا يَزَالُ يُحْكُمُهَا ، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ

الْحَكُّ سَبَبًا لِدَهَابِهَا . وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَصَدَّقَ بِالْقَضَاءِ
وَالْقَدَرِ ، وَيَأْخُذَ بِالْحَزْمِ ، وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَلَا
يَلْتَمِسَ صَلَاحَ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ
خَلِيقًا أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيقِهِ .

فَإِنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ تَاجِرٌ ، وَكَانَ لَهُ شَرِيكٌ ، فَاسْتَأْجَرَا
حَانُوتًا ، وَجَعَلَا مَتَاعَهُمَا فِيهِ . وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبَ الْمَنْزِلِ مِنَ
الْحَانُوتِ ، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عَدْلًا مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ ،^(١)
وَمَكَرَ الْحِيلَةَ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ : إِنْ أَتَيْتُ لَيْلًا لَمْ أَمِنْ أَنْ أُحْمَلَ
عَدْلًا مِنْ أَعْدَالِي أَوْ رِزْمَةً مِنْ رِزْمِي وَلَا أُعْرِفَهَا ، فَيَذْهَبَ
عَنَّا نِي وَتَعْبِي بَاطِلًا . فَأَخَذَ رِدَاءَهُ ، وَأَلْفَاهُ عَلَى الْعِدْلِ الَّذِي
أَضْمَرَ أَخْذَهُ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ . وَجَاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ
لِيُصْلِحَ أَعْدَالَهُ ، فَوَجَدَ رِدَاءَ شَرِيكِهِ عَلَى بَعْضِ أَعْدَالِهِ ، فَقَالَ :
وَاللَّهِ هَذَا رِدَاءُ صَاحِبِي ، وَلَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ نَسِيَهُ . وَمَا الرَّأْيُ
أَنْ أَدْعَهُ هَاهُنَا ، وَلَكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رِزْمِهِ ، فَلَعَلَّهُ يَسْبِقُنِي إِلَى

(١) الأعدال : الأمتعة . (٢) الرزمة بالكسر : هي التي فيها ضروب من الثياب .

الحَانُوتِ فَيَجِدُهُ حَيْثُ يُحِبُّ . ثُمَّ أَخَذَ الرُّدَاءَ فَأَلْقَاهُ عَلَى عَدْلِ
 مِنْ أَعْدَائِ رَفِيقِهِ ، وَأَقْفَلَ الحَانُوتَ ، وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ . فَلَمَّا
 جَاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيقَهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَّاهُ^(١) عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ،
 وَضَمِنَ لَهُ جُعْلًا عَلَى حِمْلِهِ ؛ فَصَارَ إِلَى الحَانُوتِ ؛ فَالْتَمَسَ
 الْإِزَارَ فِي الظُّلْمَةِ فَوَجَدَهُ عَلَى الْعَدْلِ ؛ فَاحْتَمَلَ ذَلِكَ الْعَدْلُ ،
 وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ ، وَجَعَلَا يَتَرَاوَحَانِ عَلَى حِمْلِهِ ؛ حَتَّى أَتَى
 مَنْزِلَهُ ، وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَبًا . فَلَمَّا أَصْبَحَ أَفْتَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ
 أَعْدَائِهِ ؛ فَندِمَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ . ثُمَّ أَنْطَلَقَ نَحْوَ الحَانُوتِ ، فَوَجَدَ
 شَرِيكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ فَفَتَحَ الحَانُوتَ وَوَجَدَ الْعَدْلَ مَفْقُودًا :
 فَاعْتَمَ لَذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا ؛ وَقَالَ : وَاسُوءَتَاهُ مِنْ رَفِيقِ صَالِحٍ
 قَدْ ائْتَمَنِي عَلَى مَالِهِ وَخَلَفَنِي فِيهِ ! مَاذَا يَكُونُ حَالِي عِنْدَهُ ؟
 وَلَسْتُ أَشْكُ فِي تَهْمَتِهِ إِيَّايَ . وَلَكِنْ قَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي عَلَى
 غَرَامَتِهِ . ثُمَّ أَتَى صَاحِبَهُ فَوَجَدَهُ مُغْتَمًّا ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ؛ فَقَالَ
 إِنِّي قَدْ افْتَقَدْتُ الْأَعْدَالَ ، وَفَقَدْتُ عِدْلًا مِنْ أَعْدَائِكَ ، وَلَا

(١) أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ ؛ وَإِنِّي لَا أَشُكُّ فِي تَهْمَتِكَ إِيَّايَ ؛ وَإِنِّي قَدْ وَطَّنتُ
نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ . فَقَالَ لَهُ : يَا أَخِي لَا تَغْتَمَّ : فَإِنَّ الْحَيَاةَ
شَرُّ مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ ، وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ لَا يُودِيَانِ إِلَى خَيْرٍ ؛
وَصَاحِبُهُمَا مَغْرُورٌ أَبَدًا ، وَمَا عَادَ وَبَالَ الْبَغْيِ إِلَّا عَلَى صَاحِبِهِ ؛
وَأَنَا أَحَدُ مَنْ مَكَرَ وَخَدَعَ وَأَخْتَالَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بِخَبْرِهِ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ :
مَا مِثْلُكَ إِلَّا مِثْلُ اللَّصِّ وَالتَّاجِرِ . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ تَاجِرًا كَانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خَادِمَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ
حِنْطَةً ، وَالْأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا . فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللَّصُوصِ
زَمَانًا ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَيَّامِ تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ الْمَنْزِلِ ؛
فَتَغَفَّلَ اللَّصُّ (٣) ، وَدَخَلَ الْمَنْزِلَ ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهِ . فَلَمَّا
هَمَّ بِأَخْذِ الْخَاطِيَةِ الَّتِي فِيهَا الدَّنَانِيرُ أَخَذَ الَّتِي فِيهَا الْحِنْطَةُ ،
وَوَظَّنَهَا الَّتِي فِيهَا الذَّهَبُ ؛ وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِهَا
مَنْزِلَهُ فَلَمَّا فَتَحَهَا وَعَلِمَ مَا فِيهَا نَدِمَ . قَالَ لَهُ الْخَائِنُ : مَا أَبْعَدَتْ

(١) أشعر . (٢) الخابية الجبّ أي البجرة الضخمة وأصلها الهمز لأنها من خباء . (٣) اغتم غفله .

المثل ، وَلَا تَجَاوَزْتَ الْقِيَاسَ ، وَقَدْ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطِيئِي
عَلَيْكَ ، وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَهَذَا . غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ
الرَّدِيئَةَ تَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . فَقَبِلَ الرَّجُلُ عِذْرَتَهُ ، وَأَضْرَبَ عَنْ
تَوْبِيخِهِ وَعَنِ الثُّقَةِ بِهِ ، وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَ مَا عَايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ
وَتَقْدِيمِ جَهْلِهِ .

وَقَدْ يَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي كِتَابِنَا هَذَا أَلَّا تَكُونَ غَايَتُهُ التَّصَفُّحُ
لِتَزَاوِيَقِهِ ، بَلْ يُشْرِفُ عَلَى مَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْأَمْثَالِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ
مِنْهُ ، وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمَةٍ ، وَيُعْمَلَ فِيهَا رَوِيَّتُهُ ،
وَيَكُونَ مِثْلَ أَصْغَرِ الْإِخْوَةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفَ لَهُمْ أَبُوهُمُ الْمَالُ
الكَثِيرَ ، فَتَنَازَعُوهُ بَيْنَهُمْ ، فَأَمَّا الْكَبِيرَانِ فَإِنَّهُمَا أَسْرَعَا فِي إِتْلَافِهِ
وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ
أَخَوَاهُ مِنْ إِسْرَافِهِمَا وَتَحْلِيهِمَا مِنَ الْمَالِ ، أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ
يُسَاوِرُهَا وَقَالَ : يَا نَفْسِي إِنَّكَ الْمَالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ ، وَيَجْمَعُهُ
مِنْ كُلِّ وَجْهِ : لِبَقَاءِ حَالِهِ ، وَصَلَاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاةِ ، وَشَرَفِ

(١) أصل معناه يطلع عليه من فوق والمراد هنا يدق ويأمل . (٢) تنازعه : تناولوه .

مَتَرَلْتِه فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَأَسْتِغْنَاهُ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَصَرَفَهُ
فِي وَجْهِهِ : مِنْ صَلَةِ الرَّحِمِ ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَالْإِفْضَالِ
عَلَى الْإِخْوَانِ . فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلَا يُنْفِقُهُ فِي حُقُوقِهِ ، كَانَ
كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيرًا وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا . وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِمْسَاكُهُ
وَالْقِيَامَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَعْدَمْ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ ، وَحَمْدٍ
يُضَافُ إِلَيْهِ ، وَمَتَى قَصَدَ إِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي عَلِمْتَ ،
لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ . وَلَكِنَّ الرَّأْيَ
أَنْ أُمْسِكَ هَذَا الْمَالَ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللَّهُ بِهِ : وَيُغْنِيَ
أَخَوَيَّ عَلَى يَدَيَّ : فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أَبِيهِمَا . وَإِنْ أَوَّلَى
الْإِنْفَاقِ عَلَى صَلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعُدَتْ ، فَكَيْفَ بِأَخَوَيَّ ؟ فَأَنْفَذَ
فَأَحْضَرَهُمَا وَشَاطَرَهُمَا مَالَهُ ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِئِ هَذَا الْكِتَابِ
أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ ،
وَلَا يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ الْإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةٍ بِهِمَتَيْنِ أَوْ مُحَاوَرَةٍ سَبْعٍ
لِثَوْرِ : فَيَنْصَرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ . وَيَكُونُ مَثَلُهُ
مَثَلُ الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلُجَانِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ

(١) فِي زَوْرٍ فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَرْضِ الْمَاءِ صَدَقَةً تَتَلَا لَا حُسْنَ ،
فَتَوَهَّمَا جَوْهَرًا لَهُ قِيَمَةٌ وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَّتَهُ فِي الْبَحْرِ ،
فَاشْتَلَّتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ ، فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ
فِي الْمَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدَقَةَ ، فَلَمَّا أُتْرِجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ
فِيهَا مِمَّا ظَنَّ . فَندِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ ، وَتَأَسَّفَ
عَلَى مَا فَاتَهُ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ،
وَأَلْقَى شَبَكَّتَهُ ، فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا ، وَرَأَى أَيْضًا صَدَقَةً سَنِيَّةً ،
فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا ، فَتَرَكَهَا . فَاجْتَاَزَ بِهَا
بَعْضُ الصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا .
وَكَذَلِكَ الْجُهَالُ إِذَا أَغْفَلُوا أَمْرَ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَتَرَكُوا
الْوُقُوفَ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهِ ، وَأَخَذُوا بِظَاهِرِهِ . وَمَنْ صَرَفَ
هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوَابِ الْهَزْلِ ، كَانَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا
طَيِّبَةً حَرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا ، فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا ، حَتَّى إِذَا قُرِبَ خَيْرُهَا

وَأَيُّنَعَتْ ، تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرِ وَقَطَعَ الشَّوْكَ ،
فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً .

وَيَنْبَغِي لِلنَّاطِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةٍ
أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهِ عَلَى السِّنَةِ الْبَهَائِمِ
غَيْرِ النَّاطِقَةِ لِيُسَارِعَ إِلَى قِرَائَتِهِ أَهْلُ الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ ،
فَتُسْتَمَالَ بِهِ قُلُوبُهُمْ : لِأَنَّهُ الْغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيلِ الْحَيَوَانِ .
وَالثَّانِي إِيْظَهَارُ خَيَالَاتِ الْحَيَوَانِ بِصُنُوفِ الْأَصْبَاغِ وَالْأَلْوَانِ :
لِيَكُونَ أَنْسًا لِقُلُوبِ الْمُلُوكِ ، وَيَكُونَ حِرْصَهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ
فِي تِلْكَ الصُّوَرِ . وَالثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ : فَيَتَّخِذُهُ
الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ ، فَيَكْثُرُ بِذَلِكَ اتِّسَاخُهُ ، وَلَا يَبْطُلُ فَيَخْلَقَ عَلَى
مُرُورِ الْأَيَّامِ ، وَلِيَنْتَفِعَ بِذَلِكَ الْمَصُورُ وَالنَّاسِخُ أَبَدًا . وَالْغَرَضُ
الرَّابِعُ ، وَهُوَ الْأَقْصَى ، وَذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْفَيَّاسُوفِ خَاصَّةً .

بَابُ بَرَزَوِيهِ تَرْجَمَهُ بَرَزَجِمَهْرُ بْنُ الْبَخْتِكَانِ

قَالَ بَرَزَوِيهِ رَأْسُ أَطِبَّاءِ فَارِسَ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ
 هَذَا الْكِتَابِ ، وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ (١) وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذَلِكَ
 مِنْ قَبْلُ : أَبِي كَانَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمِّي مِنْ عُظَمَاءِ بِيُوتِ
 الزَّمَاذِمَةِ . وَكَانَ مَنْشِيٌّ فِي نِعْمَةٍ كَامِلَةٍ ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبِي
 عَلَيْهِمَا ، وَكَانَا بِي أَشَدَّ احْتِفَاطًا مِنْ دُونِ إِخْوَتِي ، حَتَّى إِذَا
 بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ ، أَسْلَمَانِي إِلَى الْمُؤَدِّبِ ؛ فَلَمَّا حَدِثْتُ
 الْكِتَابَةَ ، شَكَرْتُ أَبِي ، وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ ، فَكَانَ أَوَّلَ
 مَا ابْتَدَأْتُ بِهِ ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ ، عِلْمُ الطَّبِّ : لِأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ
 فَضْلَهُ . وَكَلَّمَا ازْدَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا ازْدَدْتُ فِيهِ حِرْصًا ، وَلَهُ اتِّبَاعًا .
 فَلَمَّا هَمَّتُ نَفْسِي بِمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى ، وَعَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَتَهَا
 ثُمَّ خَيْرَتَهَا بَيْنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ ، وَفِيهَا يَرْغَبُونَ ،
 وَلَهَا يَسْعَوْنَ . فَقُلْتُ : أَيُّ هَذِهِ الْخِلَالِ أَبْتَغِي فِي عِلْمِي ؟ وَأَيُّهَا
 أُخْرَى بِي فَأُدْرِكُ مِنْهُ حَاجَتِي ؟ الْمَالُ ، أَمْ الذِّكْرُ ، أَمْ اللَّذَاتُ

أَمْ الْآخِرَةُ ؟ وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَطِبَّاءِ
 مَنْ وَاظَبَ عَلَى طَبِّهِ ، لَا يَتَنَغَّى إِلَّا الْآخِرَةَ . فَرَأَيْتُ أَنَّ أَطْلُبَ
 الْإِشْتِغَالَ بِالطَّبِّ ابْتِغَاءَ الْآخِرَةِ : لِئَلَّا أَكُونَ كَالْتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ
 يَاقُوتَةً ثَمِينَةً بِخَرَزَةٍ لَا تُسَاوِي شَيْئًا ، مَعَ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ
 الْأَوَّلِينَ أَنَّ الطَّيِّبَ الَّذِي يَتَنَغَّى بِطَبِّهِ أَجْرَ الْآخِرَةِ لَا يَنْقُصُهُ
 ذَلِكَ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا . وَإِنَّ مِثْلَهُ مِثْلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَعْمُرُ أَرْضَهُ
 ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ لَا ابْتِغَاءَ الْعُشْبِ ، ثُمَّ هِيَ لَا مُحَالَةٌ نَابَتْ فِيهَا الْوَأْنُ
 الْعُشْبِ مَعَ يَانِعِ الزَّرْعِ . فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرَضِيِّ ابْتِغَاءَ أَجْرِ
 الْآخِرَةِ ، فَلَمْ أَدْعُ مَرِيضًا أَرْجُو لَهُ الْبُرءَ ، وَآخِرًا لَا أَرْجُو لَهُ
 ذَلِكَ ، إِلَّا أَنِّي أَطْمَعُ أَنْ يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ الْمَرَضِ ، إِلَّا بِالْغَتِّ
 فِي مُدَاوَاتِهِ مَا أَمَكَّتَنِي الْقِيَامُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي ؛ وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى
 الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَصَفْتُ لَهُ مَا يُصْلِحُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّوَاءِ مَا يُعَالِجُ
 بِهِ . وَلَمْ أَرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذَلِكَ جَزَاءً وَلَا مُكَافَأَةً ؛ وَلَمْ أَغِطْ
 أَحَدًا مِنْ نَظَرَائِي الَّذِينَ هُمْ دُونِي فِي الْعِلْمِ وَفَوْقِي فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ
 وَغَيْرِهِمَا مِمَّا لَا يَعُودُ بِصَلَاحٍ وَلَا حُسْنِ سِيرَةٍ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا .

(١)
وَلَمَّا تَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى غَشْيَانِهِمْ وَتَمَنَّتْ مَنَازِلَهُمْ أَثَبْتُ لَهَا الْخُصُومَةَ،
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ ، أَمَا تَعْرِفِينَ نَفْعَكَ مِنْ ضُرِّكَ ؟ أَلَا تَنْتَهِينَ
عَنْ تَمَنِّي مَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ إِلَّا قَلَّ انْتِفَاعُهُ بِهِ ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيهِ ،
وَاشْتَدَّتْ الْمَثُونَةُ عَلَيْهِ وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ ؟ يَا نَفْسِي ،
أَمَا تَذْكُرِينَ مَا بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ : فَيُنْسِيكَ مَا تَشْرَهينَ إِلَيْهِ مِنْهَا ؟
أَلَا تَسْتَحْيِينَ مِنْ مُشَارَكَةِ الْفُجَّارِ فِي حُبِّ هَذِهِ الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ
الَّتِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ ، وَلَيْسَ يَبَاقُ عَلَيْهِ ،
فَلَا يَأْلُفُهَا إِلَّا الْمُعْتَرُونَ الْجَاهِلُونَ ؟ يَا نَفْسُ انْظُرِي فِي أَمْرِكَ ،
وَانصُرِي عَنِ هَذَا السَّفَهَةِ ، وَأَقْبِلِي بِقُوَّتِكَ وَسَعْيِكَ عَلَى تَقْدِيمِ
الْخَيْرِ ، وَإِيَّاكَ وَالشَّرَّ ، وَادْكُرِي أَنَّ هَذَا الْجَسَدَ مَوْجُودٌ لَأَفَاتٍ ،
وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ أَخْلَاطًا فَاسِدَةً قَدِيرَةٌ ، تَعْقِدُهَا الْحَيَاةُ ، وَالْحَيَاةُ إِلَى
نَفَادٍ ، كَالصَّنَمِ الْمَفْصَلَةِ أَعْضَاؤُهُ إِذَا رَكِبَتْ وَوَضِعَتْ ، يَجْمَعُهَا
مِيسَارٌ وَاحِدٌ ، وَيَضُمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا أَخَذَ ذَلِكَ الْمِيسَارُ
تَسَاقَطَتِ الْأَوْصَالُ . يَا نَفْسُ ، لَا تَغْتَرِّي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكَ

وَأَصْحَابِكَ ، وَلَا تَحْرِصِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ الْحَرِصِ : فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ -
 عَلَى مَا فِيهَا مِنَ السُّرُورِ - كَثِيرَةٌ الْمُثُونَةُ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ الْفِرَاقُ .
 وَمِثْلُهَا مِثْلُ الْمِغْرَفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِهَا لِسُخُونَةِ الْمَرْقِ ،
 فَإِذَا أَنْكَسَرَتْ صَارَتْ وَقُودًا . يَا نَفْسُ ، لَا يَحْمِلَنَّكَ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ^(١)
 عَلَى جَمْعِ مَا تَهْلِكُ فِيهِ ، إِرَادَةُ صَلَاتِهِمْ ، فَإِذَا أَنْتِ كَالدُّخْنَةِ^(٢)
 الْأَرْجَةِ الَّتِي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخَرُونَ بِرِيحِهَا . يَا نَفْسُ ، لَا يَبْعُدُ
 عَلَيْكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ فَتَمِيلِي إِلَى الْعَاجِلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَلِيلِ وَبَيْعِ
 الْكَثِيرِ بِالْيَسِيرِ ، كَالْتَّاجِرِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِلْءُ بَيْتٍ مِنَ الصَّنَدَلِ ،
 فَقَالَ : إِنْ بَعْتُهُ وَزَنَّا طَالَ عَلَيَّ ، فَبَاعَهُ جُزْأً بِأَبْجَسِ الثَّمَنِ .^(٣)
 وَقَدْ وَجَدْتُ آرَاءَ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً وَأَهْوَاءَهُمْ مُتَبَايِنَةً ، وَكُلُّ عَلَى
 كُلِّ رَأْيٍ ، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتَابٌ ، وَلِقَوْلِهِ مُخَالَفٌ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ
 لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلًا ، وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ صَدَّقْتُ
 أَحَدًا مِنْهُمْ لَا عِلْمَ لِي بِحَالِهِ ، كُنْتُ فِي ذَلِكَ كَالْمُصَدِّقِ الْمَخْدُوعِ

(١) الدخنة : بخور تجزبه الثياب أو البيت . (٢) ذات الرائحة الطيبة .

(٣) مثلث الفاء أى بالحدس والتقدير .

الَّذِي زَعَمُوا فِي شَأْنِهِ أَنَّ سَارِقًا عَلَا ظَهَرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ،
وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَاسْتَيْقَظَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ مِنْ
حَرَكَةِ أَقْدَامِهِمْ ، فَعَرَفَ أَمْرَاتَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : رَوَيْدًا إِنِّي
لَأَحْسِبُ اللَّصُوصَ عَلَا الْبَيْتَ ، فَأَيْقِظْنِي بِصَوْتِ يَسْمَعَهُ
اللَّصُوصُ وَقُولِي أَلَّا تُخْبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوَالِكَ هَذِهِ الْكَثِيرَةِ
وَكُنُوزِكَ الْعَظِيمَةِ ؟ فَإِذَا نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فَالْحَيَّ عَلَى
بِالسُّؤَالِ . فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَهَا ، وَأَنْصَتَتْ
اللَّصُوصُ إِلَى سَمَاعِ قَوْلِهِمَا . فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ : أَيُّهَا الْمَرْأَةُ ، قَدْ
سَاقَكَ الْقَدَرُ إِلَى رِزْقٍ وَاسِعٍ كَثِيرٍ : فَكُلِي وَأَسْكِنِي ، وَلَا تَسْأَلِي
عَنْ أَمْرٍ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِهِ لَمْ أَمِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ ، فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ
مَا أَتُكَّرُهُ وَتُكْرِهِينَ . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَلَعَمْرِي
مَا بِقُرْبِنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلَامَنَا . فَقَالَ لَهَا : فَإِنِّي أَخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجْعَلْ
هَذِهِ الْأَمْوَالَ إِلَّا مِنَ السَّرِيقَةِ . قَالَتْ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ وَمَا
كُنْتَ تَصْنَعُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ لِعَلِّمِ أَصْبَتَهُ فِي السَّرِيقَةِ ، وَكَانَ
الْأَمْرُ عَلَى يَسِيرٍ ، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهَمَنِي أَحَدٌ أَوْ يَرْتَابَ فِيَّ .

قَالَتْ : فَأَذْكُرْ لِي ذَلِكَ ، قَالَ : كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقَمَّرَةِ ،
 أَنَا وَأَصْحَابِي ، حَتَّى أَعْلُو دَارَ بَعْضِ الْأَغْنِيَاءِ مِثْلَانَا ، فَأَتَيْتُ إِلَى
 الْكَوَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضَّوُّ فَأَرَقِي بِهِذِهِ الرُّقِيَّةَ وَهِيَ شَوْلَمُ شَوْلَمُ
 سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَأَعْتَنَقُ الضَّوُّ ، فَلَا يُحْسُ بِوُقُوعِي أَحَدٌ ، فَلَا
 أَدْعُ مَالًا وَلَا مَتَاعًا إِلَّا أَخَذْتُهُ . ثُمَّ أَرَقِي بِتِلْكَ الرُّقِيَّةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ،
 وَأَعْتَنَقُ الضَّوُّ ، فَيَجْذِبُنِي ، فَأَصْعَدُ إِلَى أَصْحَابِي ، فَنَمْضِي
 سَالِمِينَ آمِنِينَ . فَلَمَّا سَمِعَ اللَّصُوصُ ذَلِكَ قَالُوا : قَدْ ظَفَرْنَا
 اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيدُ مِنَ الْمَالِ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا الْمَكْثَ حَتَّى ظَنُّوا
 أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا ، فَقَامَ قَائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ
 الضَّوِّ ، وَقَالَ : شَوْلَمُ شَوْلَمُ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ أَعْتَنَقَ الضَّوُّ
 لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنْزِلِ ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنْكَسًا . فَوَثَبَ إِلَيْهِ
 الرَّجُلُ بِهَرَاوَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الْمُصَدِّقُ
 الْمَخْدُوعُ الْمُغْتَرِبُ بِمَا لَا يَكُونُ أَبَدًا ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ رُقِيَّتِكَ . فَلَمَّا تَحَرَّزْتُ
 مِنْ تَصَدِيقِ مَا لَا يَكُونُ ، وَلَمْ أَمِنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أَنْ يُوقِعَنِي فِي مَهْلَكَةٍ
 عُدْتُ إِلَى طَلَبِ الْأَدْيَانِ وَالْتِمَاسِ الْعَدْلِ مِنْهَا ، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ

أَحَدٍ مِّنْ كَلِمَتِهِ جَوَابًا فِيمَا سَأَلَتْهُ عَنْهُ فِيهَا ، وَلَمْ أَرَفِيَا كَلِمَوْنِي بِهِ
شَيْئًا يَحِقُّ لِي فِي عَقْلِي أَنْ أُصَدِّقَ بِهِ وَلَا أَنْ أَتَّبِعَهُ . فَقُلْتُ لَمَّا
لَمْ أَجِدْ ثِقَةً أَخَذُ مِنْهُ ، الرَّأْيُ أَنْ أَلْزِمَ دِينَ آبَائِي وَأَجْدَادِي الْآي
وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ . فَلَمَّا ذَهَبْتُ التَّمِسُّ الْعُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُومِ دِينِ
الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، لَمْ أَجِدْ لَهَا عَلَى الثُّبُوتِ عَلَى دِينِ الْآبَاءِ طَاقَةً ،
بَلْ وَجَدْتُهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الْأَدْيَانِ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهَا ،
وَلِلنَّظَرِ فِيهَا ، فَهَجَسَ^(١) فِي قَلْبِي وَخَطَرَ عَلَى بَالِي قُرْبُ الْأَجَلِ
وَسُرْعَةُ انْقِطَاعِ الدُّنْيَا^(٢) وَاعْتِبَاطُ أَهْلِهَا^(٣) وَتَحْرُمُ الدَّهْرِ حَيَاتَهُمْ .
فَفَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ وَالتَّحَوُّلِ ، رَأَيْتُ الْآ
أَتَعَرَّضُ لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنْهُ الْمَكْرُوهَ ، وَأَنْ أَقْتَصِرَ عَلَى عَمَلِ تَشْهَدُ
النَّفْسُ أَنَّهُ يُوَافِقُ كُلَّ الْأَدْيَانِ . فَكَفَفْتُ يَدَيَّ عَنِ الْقَتْلِ
وَالضَّرْبِ ، وَطَرَحْتُ نَفْسِي عَنِ الْمَكْرُوهِ وَالْغَضَبِ وَالسَّرِقَةِ
وَالخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْغِيبَةِ ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي الْآ
أَبْغَى عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَكْذِبُ بِالْبَعْثِ وَلَا الْقِيَامَةِ وَلَا الثَّوَابِ وَلَا

(١) وقع وخطر وبابه ضرب . (٢) هلاكهم بدون مرض . (٣) القطع والاستئصال .

الْعِقَابُ؛ وَزَايَلْتُ الْأَشْرَارَ بِقَلْبِي ، وَحَاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الْأَخْيَارِ
 بِجُهْدِي ، وَرَأَيْتُ الصَّلَاحَ لَيْسَ كَمَثَلِهِ صَاحِبٌ وَلَا قَرِينٌ ،
 وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللَّهُ وَأَعَانَ يَسِيرًا ، وَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى
 الْخَيْرِ وَبُشِيرٍ بِالنُّصْحِ ، فِعَلَ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ ؛ وَوَجَدْتُهُ
 لَا يَنْقُصُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مِنْهُ ؛ بَلْ يَزْدَادُ جِدَّةً وَحُسْنًا ؛ وَوَجَدْتُهُ
 لَا خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْضَبَهُ ، وَلَا مِنَ الْمَاءِ أَنْ
 يُغْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ اللَّصُوصِ أَنْ تَسْرِقَهُ ،
 وَلَا مِنَ السَّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمَزِّقَهُ ؛ وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ
 السَّاهِيَ اللَّاهِيَّ الْمُؤَثِّرَ الْيَسِيرَ يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ وَيَعْدِمُهُ فِي غَدِهِ عَلَى
 الْكَثِيرِ الْبَاقِي نَعِيمُهُ ، يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ
 كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ ، فَاسْتَأْجَرَ لِنَفْسِهِ رَجُلًا ، الْيَوْمَ بِمِائَةِ دِينَارٍ ،
 وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ ؛ وَإِذَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ صَنْجٌ^(٢)
 مَوْضُوعٌ . فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ : هَلْ تُحْسِنُ أَنْ تَلْعَبَ بِالصَّنْجِ ؟

(١) هي ضد البلى . (٢) الصنج نوعان : ما يتخذ من الصفر يضرب به مع الدف

(ويسمى عند عوام مصر بالكاسات) وما له أوتار .

قَالَ : نَعَمْ ، وَكَانَ يَلْعَبُهُ مَاهِرًا . فَقَالَ التَّاجِرُ : دُونَكَ وَالصَّنَجَ
فَأَسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ . فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنَجَ ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ
الضَّرْبَ الصَّحِيحَ ، وَالصَّوْتَ الرَّفِيعَ ، وَالتَّاجِرُ يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ
طَرِبًا ، حَتَّى أَمْسَى . فَلَمَّا حَانَ الْغُرُوبُ قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ :
مُرْنِي بِالْأُجْرَةِ . فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ : وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئًا تَسْتَحِقُّ بِهِ
الْأُجْرَةَ ؟ فَقَالَ لَهُ : عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، وَأَنَا أَجِيرُكَ ، وَمَا
أَسْتَعْمَلْتَنِي عَمِلْتُ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِائَةَ دِينَارٍ .
وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوبٍ . فَلَمْ أَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظْرًا ، إِلَّا
أَزْدَدْتُ فِيهَا زَهَادَةً وَمِنْهَا هَرَبًا . ^(١) وَوَجَدْتُ النَّسْكَ هُوَ الَّذِي
يُمَهِّدُ لِلْعَادِ كَمَا يُمَهِّدُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ ، وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْبَابُ الْمَفْتُوحُ
إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فِعْلَتُهُ بِالسَّكِينَةِ
فَشَكَرَ ، وَتَوَاضَعَ وَقِنَعَ فَاسْتَغْنَى ، وَرِنَى وَلَمْ يَهْتَمْ ، وَخَلَعَ الدُّنْيَا
فَنَجَا مِنَ الشُّرُورِ ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ طَاهِرًا ، وَاطَّرَحَ
الْحَسَدَ فَوَجَبَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ ، وَسَخَّتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَاسْتَعْمَلَ

(١) النسك مثله النون وبضمين : العبادة .

العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة ، ولم يخف الناس ولم يدب
إليهم فسليم منهم . فلم أزد في أمر النسيك نظراً ، إلا أزدت
فيه رغبةً ، حتى هممت أن أكون من أهله . ثم تحوفت
ألا أصبر على عيش الناس ، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت
في النسيك ، أن أضعف عن ذلك ، ورفضت أعمالاً كنت أرجو
عائدتها ، وقد كنت أعملها فأنتفع بها في الدنيا ، فيكون
مثلي في ذلك مثل الكلب الذي مرّ بنهر وفي فيه ضلع ، فرأى
ظلمتها في الماء ، فهوى ليأخذها ، فأتلف ما كان معه ، ولم يجد
في الماء شيئاً . فهبت النسيك مهابة شديدة ، وخفت من
الضجر وقلة الصبر ، وأردت الثبوت على حالي التي كنت
عليها . ثم بدا لي أن أسبر ما أخاف إلا أصبر عليه من الأذى
والضيق والخشونة في النسيك ، وما يصيب صاحب الدنيا من
البلاء ، وكان عندي أنه ليس شيء من شهوات الدنيا ولذاتها

إِلَّا وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الْأَذَى وَمَوْلِدٌ لِلْحَزَنِ . فَالْدُّنْيَا كَالْمَاءِ الْمُنْجِ
الَّذِي لَا يَزْدَادُ شَارِبُهُ شُرْبًا ، إِلَّا آزْدَادَ عَطْشًا . وَهِيَ كَالْعَظْمِ
الَّذِي يُصِيبُهُ الْكَلْبُ فَيَجِدُ فِيهِ رِيحَ اللَّحْمِ ، فَلَا يَزَالُ يَطْلُبُ
ذَلِكَ حَتَّى يُدْمِيَ فَاهُ . وَكَالْحِدَاةِ الَّتِي تَظْفَرُ بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ ،
فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ ، فَلَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَدَابُّ حَتَّى تَعْيَا
وَتَتَعَبَ ، فَإِذَا تَعِبَتْ أُلْقَتْ مَا مَعَهَا . وَكَالْكُوزِ مِنَ الْعَسَلِ
الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السَّمُّ الَّذِي يَذَاقُ مِنْهُ حَلَاوَةٌ عَاجِلَةٌ وَآخِرُهُ مَوْتُ
دُعَافٌ^(١) ، وَكَأَحْلَامِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ ،
فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الْفَرَحُ . فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ،
رَجَعْتُ إِلَى طَلَبِ النَّسِكِ ، وَهَزَّنِي الْإِشْتِيَاقُ إِلَيْهِ ،
ثُمَّ خَاصَمْتُ نَفْسِي إِذْ هِيَ فِي شُرُورِهَا سَارِحَةٌ ، وَقَدْ لَا تَثْبُتُ
عَلَى أَمْرِ تَعَزُّمٍ عَلَيْهِ : كَقَاضِ سَمِيعٍ مِنْ خَصِمٍ وَاحِدٍ فَحَكَمَ لَهُ ،
فَلَمَّا حَضَرَ الْخَصْمُ الثَّانِي عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ وَقَضَى عَلَيْهِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الَّذِي أَكْبَدُهُ مِنْ أَحْتِمَالِ النَّسِكِ وَضِيقِهِ ، فَقُلْتُ :
 مَا أَصْغَرَ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ فِي جَانِبِ رَوْحِ الْأَبَدِ وَرَاحَتِهِ . ثُمَّ نَظَرْتُ
 فِيمَا تَشْرُهُ إِلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : مَا أَمْرٌ هَذَا
 وَأَوْجَعُهُ ، وَهُوَ يَدْفَعُ إِلَى عَذَابِ الْأَبَدِ وَأَهْوَالِهِ ! وَكَيْفَ لَا يَسْتَخْلِي
 الرَّجُلُ مَرَارَةً قَلِيلَةً تَعْقِبُهَا حَلَاوَةٌ طَوِيلَةٌ ؟ وَكَيْفَ لَا تُمْرُ عَلَيْهِ
 حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ تَعْقِبُهَا مَرَارَةٌ دَائِمَةٌ ؟ وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا
 عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ مِائَةَ سَنَةٍ ، لَا يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ
 إِلَّا بَضْعَ مِنْهُ بَضْعَةٌ ^(١) ، ثُمَّ أُعِيدَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَشْرُطُ لَهُ ،
 أَنَّهُ إِذَا اسْتَوَفَى السِّنِينَ الْمِائَةَ ، نَجَا مِنْ كُلِّ أَلَمٍ وَأَذَى ، وَصَارَ
 إِلَى الْأَمْنِ وَالسُّرُورِ ، كَانَ حَقِيقًا إِلَّا يَرَى تِلْكَ السِّنِينَ شَيْئًا .
 وَكَيْفَ يَأْتِي الصَّبْرَ عَلَى أَيَّامٍ قَلَائِلَ يَعِيشُهَا فِي النَّسِكِ ، وَأَذَى
 تِلْكَ الْأَيَّامِ قَلِيلٌ يُعَقِّبُ خَيْرًا كَثِيرًا ؟ فَلْنَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا بَلَاءٌ
 وَعَذَابٌ . أَوَلَيْسَ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابِ الدُّنْيَا مِنْ

حِينَ يَكُونُ جَنِينًا إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَيَّامَ حَيَاتِهِ؟ فَإِذَا كَانَ طِفْلًا
ذَاقَ مِنَ الْعَذَابِ الْوَنَاءَ : إِنْ جَاعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِطْعَامٌ ،
أَوْ عَطِشَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِشْقَاءٌ ، أَوْ وَجِعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِغَاثَةٌ ،
مَعَ مَا يَلْقَى مِنَ الْوَضِيعِ وَالْحَمْلِ وَاللِّفِّ وَالذَّهْنِ وَالْمَسْحِ ،
إِنْ أُنِيمَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقَلُّبًا ، ثُمَّ يَلْقَى أَصْنَافَ الْعَذَابِ
مَا دَامَ رَضِيْعًا ، فَإِذَا أَفْلَتَ مِنْ عَذَابِ الرِّضَاعِ ^(١) ، أَخَذَ فِي عَذَابِ
الْأَدَبِ ، فَأَذِيقَ مِنْهُ الْوَنَاءَ مِنْ عُنْفِ الْمُعَلِّمِ ، وَضَجَرِ
الدَّرْسِ ، وَسَامَةِ الْكِتَابَةِ ، ثُمَّ لَهُ مِنَ الدَّوَاءِ وَالْجَمِيَةِ وَالْأَسْقَامِ
وَالْأَوْجَاعِ أَوْفَى حَظٍّ . فَإِذَا أَذْرَكَ كَانَتْ هِمَّتُهُ فِي جَمْعِ الْمَالِ
وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ وَمُخَاطَرَةِ الطَّلَبِ وَالسَّغْيِ وَالْكَدِّ وَالتَّعَبِ . وَهُوَ مَعَ
ذَلِكَ يَتَقَلَّبُ مَعَ أَعْدَائِهِ الْبَاطِنِيَّةِ الْلاَزِمَةِ لَهُ : وَهِيَ الصَّفَرَاءُ
وَالسُّودَاءُ وَالرَّيْحُ وَالْبَلْغَمُ وَالْدَّمُ وَالسَّمُّ الْمُمِيتُ وَالْحَيَّةُ اللَّاذِعَةُ ،
مَعَ انْخَوْفٍ مِنَ السَّبَاعِ وَالْهَوَامِّ ، مَعَ صَرْفِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ
وَالْمَطَرِ وَالرِّيَّاحِ ، ثُمَّ أَنْوَاعَ عَذَابِ الْهَرَمِ لِمَنْ يَبْلُغُهُ . فَلَوْلَمْ

يَخَفُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ شَيْئًا ، وَكَانَ قَدْ أَمِنَ وَوَثِقَ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا
فَلَمْ يَفَكِّرْ فِيهَا ، لَوَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي يَحْضُرُهُ فِيهَا
الْمَوْتُ ، فَيُفَارِقَ الدُّنْيَا ، وَيَتَذَكَّرُ مَا هُوَ نَازِلٌ بِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ :
مِنْ فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ وَالْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَكُلِّ مَضْنُونٍ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا ،
وَالْإِشْرَافِ عَلَى الْهَوْلِ الْعَظِيمِ بَعْدَ الْمَوْتِ . فَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ،
لَكَانَ حَقِيقًا أَنْ يُعَدَّ عَاجِزًا مُفْرَطًا مُجَبًّا لِلدَّنَاءَةِ مُسْتَحِقًّا لِلنُّومِ ،
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا يَحْتَالُ لِعَدِّ جُهْدَهُ فِي الْحِيلَةِ ، وَيَرْفُضُ
مَا يَشْغَلُهُ وَيُلْهِمُهُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغُرُورِهَا ؟ وَلَا سِيَّما فِي هَذَا
الزَّمَانِ الشَّبِيهِ بِالصَّافِي وَهُوَ كَدِرٌ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ حَازِمًا عَظِيمَ
الْمَقْدَرَةِ ، رَفِيعَ الْهِمَّةِ بَلِيعَ الْفَخْرِ ، عَدْلًا مَرْجُوًّا صَدُوقًا
شُكُورًا ، رَحْبَ الدِّرَاعِ مُفْتَقِدًا مُوَظَّبًا مُسْتَمِرًّا عَلِيمًا بِالنَّاسِ
وَالْأُمُورِ ، مُحِبًّا لِلْعِلْمِ وَالْخَيْرِ وَالْأَخْيَارِ ، شَدِيدًا عَلَى الظَّالِمَةِ ، غَيْرَ
جَبَانٍ وَلَا خَفِيفِ الْقِيَادِ ، رَفِيقًا بِالتَّوَسُّعِ عَلَى الرِّعْيَةِ فِيمَا يُحِبُّونَ ،
وَالدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُونَ ، فَإِنَّا قَدْ نَرَى الزَّمَانَ مُذْبِرًا بِكُلِّ مَكَانٍ ،
فَكَأَنَّ أُمُورَ الصِّدْقِ قَدْ تُزِعَتْ مِنَ النَّاسِ ، فَأَصْبَحَ مَا كَانَ

عَزِيزًا فَقْدَهُ مَفْقُودًا ، وَمَوْجُودًا مَا كَانَ ضَائِرًا ^(١) وَجُودَهُ . وَكَانَ
الْخَيْرَ أَصْبَحَ ذَائِلًا وَالشَّرَّ أَصْبَحَ نَاضِرًا . وَكَانَ الْفَهْمَ أَصْبَحَ قَدْ
زَالَتْ سَبِيلُهُ . وَكَانَ الْحَقَّ وَلِيَّ كَسِيرًا وَأَقْبَلَ الْبَاطِلَ تَابِعَهُ . وَكَانَ
اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ وَإِضَاعَةَ الْحِكْمِ أَصْبَحَ بِالْحُكَّامِ مُوَكَّلًا ؛ وَأَصْبَحَ
الْمَظْلُومُ بِالْخَيْفِ مُقْرًا وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مُسْتَطِيلًا . وَكَانَ الْحِرْصَ
أَصْبَحَ فَاعِرًا فَاهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَتَلَقَّفُ مَا قُرْبَ مِنْهُ وَمَا بَعْدَ .
وَكَانَ الرِّضَا أَصْبَحَ مَجْهُولًا . وَكَانَ الْأَشْرَارَ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ
صُعُودًا . وَكَانَ الْأَخْيَارَ يُرِيدُونَ بَطْنَ الْأَرْضِ ؛ وَأَصْبَحَتِ
الْمُرُوءَةُ مَقْدُوفًا بِهَا مِنْ أَعْلَى شَرَفٍ إِلَى أَسْفَلِ دَرَكٍ ؛ وَأَصْبَحَتِ
الدَّنَاءَةُ مَكْرَمَةً مُمْكِنَةً ؛ وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَقِلًا عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ
إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ . وَكَانَ الدُّنْيَا جَذَلَةً مَسْرُورَةً تَقُولُ : قَدْ غُيِّبَتْ
الْخَيْرَاتُ وَأُظْهِرَتِ السَّيِّئَاتُ . فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَأُمُورِهَا ؛
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِيهَا وَأَفْضَلُهُ ؛ ثُمَّ هُوَ لَا يَتَقَلَّبُ
إِلَّا فِي الشُّرُورِ وَالْهَمُومِ ، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ ذُو عَقْلٍ يَعْلَمُ

ذَلِكَ ثُمَّ لَا يَحْتَالُ لِنَفْسِهِ فِي النِّجَاةِ؛ فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ الْعَجَبِ .
 ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا الْإِنْسَانُ لَا يَمْنَعُهُ عَنِ الْإِحْتِيَالِ لِنَفْسِهِ إِلَّا لَذَّةُ
 صَغِيرَةٍ حَقِيرَةٍ غَيْرِ كَبِيرَةٍ مِنَ الشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَاللَّمْسِ:
 فَعَلَهُ يُصِيبُ مِنْهَا الطَّفِيفُ أَوْ يَقْتَنِي مِنْهَا الْيَسِيرُ؛ فَإِذَا ذَلِكَ
 يَشْغَلُهُ وَيَذْهَبُ بِهِ عَنِ الْإِهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النِّجَاةِ لَهَا .

فَالْتَمَسْتُ لِلْإِنْسَانِ مَثَلًا، فَإِذَا مَثَلُهُ مِثْلُ رَجُلٍ نَجَا مِنْ خَوْفٍ
 فِيلٍ هَائِجٍ إِلَى بَيْرٍ، فَتَدَلَّى فِيهَا، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ كَانَا عَلَى
 سَمَائِهَا، فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ الْبَيْرِ . فَإِذَا حَيَاتٌ
 أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَ رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهِنَّ، ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا فِي قَاعِ
 الْبَيْرِ تَيْنِ^(١) فَاتِحٌ فَاهُ مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى
 الْغُصْنَيْنِ فَإِذَا فِي أَصْلِهِمَا جُرْذَانِ أَسْوَدٌ وَأَبْيَضٌ، وَهُمَا يَقْرِضَانِ^(٢)
 الْغُصْنَيْنِ دَائِبَيْنِ لَا يَفْتَرَانِ، فَيَنَامَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ وَالْإِهْتِمَامِ
 لِنَفْسِهِ، إِذْ أَبْصَرَ قَرِيبًا مِنْهُ كَوَارَةً فِيهَا عَسَلٌ نَحْلٍ، فَذَاقَ^(٣)

(١) ضرب من الحيات . (٢) مثنى جرذ : ضرب من القار . (٣) شئ . يتخذ للنحل
 من القضبان وهي الخلية .

العسل ، فشغلته حلاوته وألته لذة عن الفكرة في شيء من أمره ، وأن ياتمس الخلاص لنفسه ، ولم يذكر أن رجله على حيات أربع لا يدري متى يقع عليهن ، ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ، ومتى انقطعا وقع على التنين . فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك . فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشرواً ، ومخافات وعاهات ، وشبهت بالحيات الأربع الأخطا الأربعة التي في البدن : فإنها متى هاجت أو أحدها كانت حمة^(١) الأفاعي والسّم المميت ، وشبهت بالغصنين الأجل الذي لا بد من انقطاعه ، وشبهت بالجرذين الأسود والأبيض الليل والنهار اللذين هما دائبان في إفناء الأجل ، وشبهت بالتنين المصير الذي لا بد منه ، وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الإنسان فيطعم ويسمع ويشم ويدس ، ويتشاغل عن نفسه ، ويلهو عن شأنه ، ويصد عن سبيل قصده . فحينئذ

(١) إمرة النحلة ونحوها .

صَارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَا بِحَالِي وَإِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلَاحَهُ
 مِنْ عَمَلِي : لَعَلِّي أَصَادِفُ بَاقِيَ أَيَّامِي زَمَانًا أُصِيبُ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى
 هِدَايَ ، وَسُلْطَانًا عَلَى نَفْسِي ^(١) ، وَقَوَامًا لِأَمْرِي ، فَأَقَمْتُ عَلَى هَذِهِ
 الْحَالِ وَانْتَسَخْتُ كُتُبًا كَثِيرَةً ، وَانْصَرَفْتُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، وَقَدْ
 نَسَخْتُ هَذَا الْكِتَابَ . (انقضى باب برزويه المتطبب)

بَابُ الْأَسَدِ وَالثَّورِ وَهُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ ، وَهُوَ رَأْسُ الْبِرَاهِمَةِ :
 اضْرِبْ لِي مَثَلًا لِمُتَحَابِّينَ يَقْطَعُ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ الْمُحْتَالُ ، حَتَّى
 يَحْمِلَهُمَا عَلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ . قَالَ بَيْدَبَا : إِذَا أَبْتَلِيَ الْمُتَحَابِّانِ
 بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ الْمُحْتَالُ ، لَمْ يَلْبَثَا أَنْ يَتَقَاطَعَا
 وَيَتَدَابَّرَا . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ دَسْتَاوَنْدَ رَجُلٌ
 شَيْخٌ ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ . فَلَمَّا بَلَغُوا أَشَدَّهُمْ اسْرَفُوا فِي مَالِ
 آبِيهِمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا أَحْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِهَا خَيْرًا .

فَلَا مَهُمُّ أَبْوَهُمْ ، وَوَعَظَاهُمْ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ :
يَا بَنِيَّ إِنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ لَنْ يُدْرِكَهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةِ
أَشْيَاءَ : أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ ، فَالْسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَالْمَنْزِلَةُ
فِي النَّاسِ وَالزَّادُ لِلْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دَرْكِ
هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ، فَالْكَتْسَابُ الْمَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهِ يَكُونُ ،
ثُمَّ حُسْنُ الْقِيَامِ عَلَى مَا اكْتَسَبَ مِنْهُ ، ثُمَّ اسْتِثْمَارُهُ ، ثُمَّ إِنْفَاقُهُ
فِيمَا يُصْلِحُ الْمَعِيشَةَ وَيُرِضِي الْأَهْلَ وَالْإِخْوَانَ ، فَيَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ
فِي الْآخِرَةِ . فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ لَمْ يُدْرِكْ مَا أَرَادَ
مِنْ حَاجَتِهِ : لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيشُ
بِهِ ، وَإِنْ هُوَ كَانَ ذَا مَالٍ وَاكْتَسَابٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنْ الْقِيَامَ عَلَيْهِ ،
أَوْ شَكَ الْمَالُ أَنْ يَفْنَى وَيَبْقَى مُعْدِمًا ، وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ
يَسْتِثْمِرْهُ ، لَمْ تَمْنَعْهُ قَلَّةُ الْإِنْفَاقِ مِنْ سُرْعَةِ الذَّهَابِ : كَالْكُحْلِ
الَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلَّا غُبَارُ الْمِيلِ ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيعُ فَنَائِهِ .
وَإِنْ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَاخْطَأَ
نَهْ مَوَاضِعَ اسْتِخْدَاقِهِ ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ ،

ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مَالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالْحَوَادِثِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي
 عَلَيْهِ ، كَمَحِيسِ الْمَاءِ الَّذِي لَا تَزَالُ الْمِيَاهُ تَنْصَبُ فِيهِ ، فَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ وَمَفِيزٌ وَمَتَنَفَسٌ يَخْرُجُ الْمَاءُ مِنْهُ بِقَدْرِ
 مَا يَنْبَغِي ، نَحْرَبَ وَسَالَ وَتَزَّ مِنْ نَوَاجِحَ كَثِيرَةٍ ، وَرُبَّمَا انْبَثَقَ الْبَثَقُ^(١)
 الْعَظِيمُ فَذَهَبَ الْمَاءُ ضَيَاعًا . ثُمَّ إِنَّ بَنِي الشَّيْخِ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ
 آبَائِهِمْ وَأَخَذُوا بِهِ وَعَلِمُوا أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ ، فَانْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ
 نَحْوَ أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا مَيُونُ ، فَأَتَى فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ وَحَلٌ
 كَثِيرٌ ، وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجْرُهَا ثَوْرَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا شَتْرَبَةٌ
 وَلِلْآخَرِ بَنْدَبَةٌ ، فَوَحَلَ شَتْرَبَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَعَالَجَهُ الرَّجُلُ
 وَأَصْحَابُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ الْجَهْدُ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْرَاجِهِ ،
 فَذَهَبَ الرَّجُلُ وَخَلَفَ عِنْدَهُ رَجُلًا يُسَارِفُهُ : لَعَلَّ الْوَحَلَ يَنْشَفُ
 فَيَتَّبِعُهُ بِالثَّوْرِ . فَلَمَّا بَاتَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ ، تَبَرَّمَ بِهِ^(٢)
 وَاسْتَوْحَشَ ، فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالتَّحَقَّ بِصَاحِبِهِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ
 مَاتَ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ وَحَانَتْ مَنِيَّتُهُ

(١) انشق وانفجر . (٢) ضمير .

فَهُوَ وَإِنْ أَجْتَهَدَ فِي التَّوَقُّي مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ
الْهَلَاكَ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَرُبَّمَا عَادَ اجْتِهَادُهُ فِي تَوَقُّيهِ
وَحَذَرُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ ^(١) .

كَالَّذِي قِيلَ : إِنَّ رَجُلًا سَلَكَ مَفَازَةً فِيهَا خَوْفٌ مِنَ السَّبَاعِ ،
وَكَانَ الرَّجُلُ خَيْرًا بَوَغِثَ تِلْكَ الْأَرْضَ وَخَوْفِهَا ، فَلَمَّا سَارَ
غَيْرَ بَعِيدٍ اعْتَرَضَ لَهُ ذِئْبٌ مِنْ أَحَدِ الذَّنَابِ وَأَضْرَاَهَا ،
فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الذِّئْبَ قَاصِدٌ نَحْوَهُ خَافَ مِنْهُ ، وَنَظَرَ
يَمِينًا وَشِمَالًا لِيَجِدَ مَوْضِعًا يَحْزُزُ فِيهِ مِنَ الذِّئْبِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا
قَرْيَةً خَلْفَ وَادٍ ، فَذَهَبَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْقَرْيَةِ ، فَلَمَّا أَتَى الْوَادِي
لَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةً ، وَرَأَى الذِّئْبَ قَدْ أَدْرَكَهُ ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ ،
وَهُوَ لَا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ ، وَكَادَ يَغْرُقُ ، لَوْلَا أَنَّ بَصْرَهُ قَوْمٌ
مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَتَوَاقَعُوا لِإِنْخِرَاجِهِ فَأَخْرَجُوهُ ، وَقَدْ أَشْرَفَ
عَلَى الْهَلَاكِ ، فَلَمَّا حَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ غَائِلَةِ الذِّئْبِ رَأَى عَلَى عُذْوَةِ الْوَادِي بَيْتًا مُفْرَدًا ، فَقَالَ :

(١) وخيم العاقبة . (٢) العدو بضم العين وكسر ها : جانب الوادي .

أَدْخُلْ هَذَا الْبَيْتَ فَاسْتَرِجْ فِيهِ . فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ جَمَاعَةً
 مِنَ اللَّصُوصِ قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الثَّجَارِ ،
 وَهُمْ يَقْتَسِمُونَ مَالَهُ ، وَيُرِيدُونَ قَتْلَهُ ؛ فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ
 حَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَضَى نَحْوَ الْقَرْيَةِ ؛ فَاسْتَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى حَائِطٍ
 مِنْ حِيطَانِهَا لِيَسْتَرِجَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْإِغْيَاءِ ، إِذْ سَقَطَ
 الْحَائِطُ عَلَيْهِ فَمَاتَ . قَالَ التَّاجِرُ : صَدَقْتَ ؛ قَدْ بَلَغَنِي
 هَذَا الْحَدِيثُ . وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكَانِهِ وَانْبَعَثَ ؛ فَلَمْ
 يَزَلْ فِي مَرَجٍ مُخَصَّبٍ كَثِيرِ الْمَاءِ وَالْكَلَّا ؛ فَلَمَّا سَمِنَ وَامِنَ
 جَعَلَ يَخُورُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخَوَارِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَجْمَةٌ فِيهَا
 أَسَدٌ عَظِيمٌ ؛ وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَمَعَهُ سِبَاعٌ كَثِيرَةٌ وَذِيَّابٌ
 وَبَنَاتٌ آوَى وَثَعَالِبٌ وَفُهُودٌ وَنَمُورٌ ؛ وَكَانَ هَذَا الْأَسَدُ مُنْفَرِدًا
 بِرَأْيِهِ دُونَ أَخِيذٍ بِرَأْيِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ خَوَارَ
 الثَّوْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثَوْرًا قَطُّ ، وَلَا سَمِعَ خَوَارَهُ ؛ لِأَنَّهُ
 كَانَ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشُطُ ؛ بَلْ يُؤْتِي بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ
 عَلَى يَدِ جُنْدِهِ . وَكَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ السِّبَاعِ ابْنَا آوَى يُقَالُ

لأَحَدِهِمَا كَلِيلَةٌ وَلِلْآخَرِ دِمْنَةٌ ، وَكَانَا ذَوِي دَهَاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ .
فَقَالَ دِمْنَةُ لِأَخِيهِ كَلِيلَةُ : يَا أَخِي مَا شَأْنُ الْأَسَدِ مُقِيمًا مَكَانَهُ
لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشُطُ ؟ قَالَ لَهُ كَلِيلَةُ : مَا شَأْنُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةُ عَنْ
هَذَا ؟ نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِينَ بِمَا أَحَبَّ وَتَارِكِينَ مَا يَكْرَهُ ،
وَلَسْنَا مِنْ أَهْلِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاولُ أَهْلُهَا كَلَامَ الْمُلُوكِ وَالنَّظَرَ
فِي أُمُورِهِمْ . فَأَمْسَكَ عَنْ هَذَا ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ تَكَلُّفٍ مِنَ الْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْقِرْدَ مِنَ النَّجَارِ .
قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا
رَأَى نَجَّارًا يَسُقُ خَشَبَةً بَيْنَ وَتَدَيْنِ ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَأَعْجَبَهُ
ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ . فَقَامَ الْقِرْدُ ، وَتَكَلَّفَ
مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ ، فَرَكِبَ الْخَشَبَةَ ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبَلَ الْوَتِدِ ،
وَوَجْهَهُ قِبَلَ الْخَشَبَةِ ، فَتَدَلَّى ذَنْبُهُ فِي الشَّقِّ ، وَتَزَعَّ الْوَتِدُ فَلَزِمَ^(١)
الشَّقَّ عَلَيْهِ نَحْرٌ مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ فَرَأَاهُ مَوْضِعَهُ ،
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ . فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ

مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْحَشَبَةِ . قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ ،
وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْنُو مِنَ الْمُلُوكِ لَيْسَ يَدْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ ،
وَإِنَّمَا يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَسَّرَ الصَّدِيقَ وَيَكْبِتَ الْعَدُوَّ . وَإِنَّ مِنَ
النَّاسِ مَنْ لَا مَرْوَةَ لَهُ ؛ وَهُمْ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ وَيَرْضَوْنَ
بِالدُّونِ ؛ كَالْكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا فَيَفْرَحُ بِهِ . وَأَمَّا
أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمَرْوَةِ فَلَا يَقْنَعُهُمُ الْقَلِيلُ ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ ،
دُونَ أَنْ تَسْمُو بِهِ نَفُوسُهُمْ إِلَى مَا هُمْ أَهْلُ لَهُ ، وَهُوَ أَيْضًا لَهُمْ
أَهْلٌ ؛ كَالْأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الْأَرْنَبَ ، فَإِذَا رَأَى الْبَعِيرَ تَرَكَهَا
وَطَلَبَ الْبَعِيرَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يُبْصِصُ^(١) بِذَنْبِهِ . حَتَّى
تُرْمَى لَهُ الْكِسْرَةُ ، وَأَنَّ الْفِيلَ الْمُعْتَرِفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِذَا قَدِمَ إِلَيْهِ
عَلْفَهُ لَا يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يَمْسَحَ وَيَتَمَلَّقَ لَهُ . فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ وَكَانَ
ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلَى أَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمُرُهُ طَوِيلُ
الْعُمُرِ . وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشِهِ ضَيْقٌ وَقِلَّةٌ وَإِمْسَاكٌ عَلَى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ

فَالْمَقْبُورُ أَحْيَا مِنْهُ . وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَقِنَعَ وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ
عَدَّ مِنَ الْبَهَائِمِ .

قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ ، فَرَا جَعِ عَقْلَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَةً وَقَدْرًا . فَإِنْ كَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا
مُمَاسِكًا ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَقْنَعَ . وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَنْزِلَةِ مَا يَحُطُّ
حَالُنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا . قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الْمَنَازِلَ مُتَنَازِعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ
عَلَى قَدْرِ الْمَرْوَةِ ، فَالْمَرْءُ تَرْفَعُهُ مَرْوَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى
الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ، وَمَنْ لَا مَرْوَةَ لَهُ يُحُطُّ نَفْسُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ
إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ . وَإِنَّ الِارْتِفَاعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الشَّرِيفَةِ شَدِيدٌ ،
وَالِانْحِطَاطَ مِنْهَا هَيِّنٌ ، كَأَنْ تَجْرَ الثَّقِيلُ : رَفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى
الْعَاقِقِ عَسِرٌ ، وَوَضَعُهُ إِلَى الْأَرْضِ هَيِّنٌ . فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَرُومَ
مَا فَوْقَنَا مِنَ الْمَنَازِلِ ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذَلِكَ بِمَرْوَتِنَا . ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ
بِهَا وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْهَا ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : فَمَا الَّذِي اجْتَمَعَ
عَلَيْهِ رَأْيُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْأَسَدِ عِنْدَ هَذِهِ
الْفُرْصَةِ : فَإِنَّ الْأَسَدَ ضَعِيفُ الرَّأْيِ . وَلَعَلِّي عَلَى هَذِهِ الْحَالِ

أَذْنُو مِنْهُ فَأَصِيبَ عِنْدَهُ مَنَزَلَةً وَمَكَانَةً . قَالَ كَلِيلَةٌ : وَمَا يَدْرِيكَ
 أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : بِالْحِسِّ وَالرَّأْيِ
 أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ : فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حَالَ صَاحِبِهِ
 وَبَاطِنَ أَمْرِهِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِيلِهِ وَشَكْلِهِ . قَالَ كَلِيلَةٌ : فَكَيْفَ
 تَرْجُو الْمَنَزَلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ بِصَاحِبِ السُّلْطَانِ ، وَلَا لَكَ عِلْمٌ
 بِخِدْمَةِ السَّلَاطِينِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقَوَى لَا يُعْجِزُهُ
 الْحِمْلُ الثَّقِيلُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الْحِمْلُ ، وَالرَّجُلُ الضَّعِيفُ
 لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ . قَالَ كَلِيلَةٌ : فَإِنَّ
 السُّلْطَانَ لَا يَتَوَخَّى بِكَرَامَتِهِ فَضْلَاءَ مَنْ بِحَضْرَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُوَثِّرُ
 الْأَذْنَى وَمَنْ قُرْبَ مِنْهُ . وَيُقَالُ : إِنَّ مَثَلَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ
 مَثَلُ شَجَرِ الْكَرْمِ الَّذِي لَا يَعْلُقُ إِلَّا بِأَقْرَبِ الشَّجَرِ . وَكَيْفَ
 تَرْجُو الْمَنَزَلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ تَدْنُو مِنْهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ فَهِمْتُ
 كَلَامَكَ بِجَمِيعِهِ وَمَا ذَكَرْتَ ، وَأَنْتَ صَادِقٌ . لَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي
 هُوَ قَرِيبٌ مِنَ السُّلْطَانِ وَلَا ذَلِكَ مَوْضِعُهُ وَلَا تِلْكَ مَنَزِلَتُهُ ،

لَيْسَ كَمَنْ دَنَا مِنْهُ بَعْدَ الْبُعْدِ وَلَهُ حَقٌّ وَحُرْمَةٌ ، وَأَنَا مُلْتَمِسٌ بُلُوغَ
مَكَانَتِهِمْ بِجُهْدِي . وَقَدْ قِيلَ : لَا يُوَاطِبُ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ
إِلَّا مَنْ يَطْرَحُ الْأَنْفَ وَيَحْمِلُ الْأَذَى وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ وَيَرْفُقُ بِالنَّاسِ
وَيَكْتُمُ السِّرَّ ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرَادَهُ . قَالَ كَلِيلَةُ :
هَبْكَ وَصَلْتَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَمَا تَوْفِيقُكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ
تَسَالَ بِهِ الْمَنْزِلَةَ وَالْحُظُوءَةَ لَدَيْهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لَوْ دَنَوْتُ مِنْهُ
وَعَرَفْتُ أَخْلَاقَهُ ، لَرَفَقْتُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَقِلَّةِ الْخِلَافِ لَهُ . وَإِذَا
أَرَادَ أَمْرًا هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ ، زَيْنَتْهُ لَهُ وَصَبَرَتْهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَفَتْهُ
بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ ، وَشَجَعَتْهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ،
حَتَّى يَزْدَادَ بِهِ سُرُورًا . وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَشَيْنُهُ ،
بَصُرَتْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرِّ وَالشَّيْنِ ، وَأَوْقَفَتْهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ
النَّفْعِ وَالزَّيْنِ ، بِحَسَبِ مَا أَجَدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ
أَزْدَادَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْأَسَدِ مَكَانَةً وَيَرَى مِنِّي مَا لَا يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي :
فَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شَاءَ أَنْ يُبْطَلَ حَقًّا أَوْ يُحَقَّ بِاطِّلًا

لَفَعَلَ : كَالْمُصَوِّرِ الْمَاهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْحِيطَانِ صُورًا كَأَنَّهَا
خَارِجَةٌ وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ .
قَالَ كَلِيلَةُ : أَمَّا إِنْ قُلْتُ هَذَا أَوْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ
مِنَ السُّلْطَانِ فَإِنَّ صُحْبَتَهُ خَطَرَةٌ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلََاءُ : إِنَّ أُمُورًا
ثَلَاثَةً لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إِلَّا أَهْوَجُ ، وَلَا يَسْلُمُ مِنْهِنَّ إِلَّا قَلِيلٌ ،
وَهِيَ : صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَائْتِمَانُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَشُرْبُ
السِّمِّ لِلتَّجَرِبَةِ . وَإِنَّمَا شَبَّهَ الْعُلََاءُ السُّلْطَانَ بِالْحَبْلِ الصَّغْبِ
الْمُرْتَقَى الَّذِي فِيهِ الثَّمَارُ الطَّيِّبَةُ وَالْجَوَاهِرُ النَّفِيسَةُ وَالْأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ .
وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدِنُ السَّبَاعِ وَالثَّمُورِ وَالذِّئَابِ وَكُلِّ ضَارٍ مُخَوِّفٍ .
فَالِارْتِقَاءُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ ، وَالْمُقَامُ فِيهِ أَشَدُّ . قَالَ دِمْنَةُ : صَدَقْتَ
فِيمَا ذَكَرْتَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ ، لَمْ يَنْلِ الرِّغَابَ ،
وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ يَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعَلَّهُ
أَنْ يَتَوَقَّاهُ ، فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيًّا . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ خِصَالًا ثَلَاثًا
لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بِمَعُونَةٍ مِنْ عُلُوِّ هِمَّةٍ وَعَظِيمِ خَطَرٍ : مِنْهَا

عَمَلُ السُّلْطَانِ وَتِجَارَةُ الْبَحْرِ وَمُنَاجَزَةُ الْعَدُوِّ ^(١) . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ
 فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ : إِنَّهُ لَا يَرَى إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ ، وَلَا
 يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُمَا : إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَمًا ، وَإِمَّا مَعَ النَّسَاكِ مُتَعَبِدًا ،
 كَالْفِيلِ إِمَّا بِجَمَالِهِ وَبِهَآوِهِ فِي مَكَانَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَرَاهُ وَخَشِيًّا وَإِمَّا
 مَرْبُكًا لِلْمُلُوكِ . قَالَ كَلِيلَةُ ^(٢) : خَارَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ .
 ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ انْطَلَقَتْ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ
 الْأَسَدُ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ .
 قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَبَاهُ . ثُمَّ سَأَلَهُ أَيْنَ تَكُونُ ؟ قَالَ :
 لَمْ أَزَلْ مُلَازِمًا بَابَ الْمَلِكِ ، رَجَاءً أَنْ يُحْضَرَ أَمْرُ فَأَعِينَ الْمَلِكَ
 فِيهِ بِنَفْسِي وَرَأْيِي : فَإِنَّ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ تَكْتَرِفُ فِيهَا الْأُمُورَ الَّتِي
 رُبَّمَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى الَّذِي لَا يُؤْبَهُ لَهُ ^(٣) ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْغُرُ
 أَمْرُهُ إِلَّا وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ بَعْضُ الْغَنَاءِ وَالْمَنَافِعِ عَلَى قَدَرِهِ ،
 حَتَّى الْعُودُ الْمُلْتَقَى فِي الْأَرْضِ رُبَّمَا نَفَعَ ، فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ فَيَكُونُ
 عِدَّتُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ قَوْلَ دِمْنَةَ أُعْجِبَهُ ،

(١) مقاتلة . (٢) جعل لك فيه الخير . (٣) يفتن .

وَوَظَنَ أَنَّ عِنْدَهُ نَصِيحَةً وَرَأْيًا . فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقَالَ :
 إِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْعِلْمِ وَالْمُرُوءَةِ يَكُونُ خَامِلَ الذِّكْرِ خَافِضَ الْمَنْزِلَةِ ،
 فَتَأْتِي مَنَزِلَتُهُ إِلَّا أَنْ تَسِبَّ وَتَرْتَفِعَ ، كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُهَا
 صَاحِبُهَا وَتَأْتِي إِلَّا ارْتِفَاعًا . فَلَمَّا عَرَفَ دِمْنَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ
 عَجِبَ مِنْهُ قَالَ : إِنَّ رَعِيَّةَ الْمَلِكِ تَحْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، رَجَاءً
 أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَهَا مِنْ عِلْمٍ وَافِرٍ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْفَضْلَ
 فِي أَمْرَيْنِ : فَضْلُ الْمُقَاتِلِ عَلَى الْمُقَاتِلِ وَالْعَالِمِ عَلَى الْعَالِمِ .
 وَإِنْ كَثُرَ الْأَعْوَانُ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُحْتَبَرِينَ رَبَّمَا تَكُونُ مَضَرَّةً عَلَى
 الْعَمَلِ : فَإِنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ رَجَاوُهُ بِكَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَلَكِنْ بِصَالِحِي
 الْأَعْوَانِ . وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الْحِجْرَ الثَّقِيلَ ،
 فَيُثْقَلُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَلَا يَجِدُ لَهُ ثَمَنًا . وَالرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى
 الْحُدُوعِ لَا يُجْزِيهِ الْقَصَبُ وَإِنْ كَثُرَ . فَأَنْتَ الْآنَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 حَقِيقٌ إِلَّا تَحْقِرَ مُرُوءَةً أَنْتَ تَجِدُهَا عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيرِ الْمَنْزِلَةِ :
 فَإِنَّ الصَّغِيرَ رَبَّمَا عَظُمَ ، كَالْعَصَبِ يُؤْخَذُ مِنَ الْمَيْتَةِ فَإِذَا عَمِلَ مِنْهُ
 الْقَوْسُ أَكْرَمَ ، فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْبَاسِ وَاللَّهْوِ .

وَأَحَبُّ دِمْنَةٍ أَنْ يَرَى الْقَوْمَ أَنَّ مَا نَالَهُ مِنْ كَرَامَةِ الْمَلِكِ إِنَّمَا
هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَعَقْلِهِ : لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ
لِمَعْرِفَتِهِ أَبَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّ السُّلْطَانَ لَا يَقْرِبُ الرِّجَالَ لِقُرْبِ
آبَائِهِمْ ، وَلَا يَبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِمْ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ
رَجُلٍ بِمَا عِنْدَهُ : لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْرَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ جَسَدِهِ
وَمِنْ جَسَدِهِ مَا يَدْوِي حَتَّى يُوْذِيَهُ وَلَا يَدْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا بِالدَّوَاءِ^(١)
الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِ .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةٌ مِنْ مَقَالَتِهِ هَذِهِ أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِهِ إِعْجَابًا شَدِيدًا ،
وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِ ، وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ . ثُمَّ قَالَ لِجُلَسَائِهِ : يَنْبَغِي
لِلسُّلْطَانِ أَلَّا يَلِجَ فِي تَضْيِيعِ حَقِّ ذَوِي الْحُقُوقِ . وَالنَّاسُ
فِي ذَلِكَ رَجُلَانِ : رَجُلٌ طَبَعُهُ الشَّرَاسَةُ ، فَهُوَ كَالْحَيَّةِ إِنْ وَطَّئَهَا
الْوَاطِئُ فَلَمْ تَلْدَغْهُ ، لَمْ يَكُنْ جَدِيرًا أَنْ يَغْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا ، فَيَعُودَ
إِلَى وَطْئِهَا ثَانِيًا فَتَلْدَغْهُ ، وَرَجُلٌ أَصْلُ طَبَاعِهِ السُّهُولَةُ ، فَهُوَ
كَالصَّنَدَلِ الْبَارِدِ الَّذِي إِذَا أُفْرِطَ فِي حِكِّهِ صَارَ حَارًّا مُؤْذِيًا .

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالْأَسَدِ وَخَلَا بِهِ . فَقَالَ لَهُ يَوْمًا : أَرَى الْمَلِكَ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لَا يَبْرَحُ مِنْهُ ، فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟ فَبَيْنَمَا هُمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِذْ خَارَ شَتْرِبَةُ خَوَارًا شَدِيدًا : فَهَبَجَ الْأَسَدُ وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِمَا نَالَهُ ، وَعَلِمَ دِمْنَةَ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ قَدْ أَدْخَلَ عَلَى الْأَسَدِ رِيبةً وَهَيْبَةً ^(١) . فَسَأَلَهُ : هَلْ رَأَى الْمَلِكَ سَمَاعُ هَذَا الصَّوْتِ ؟ قَالَ لَمْ يَرِنِّي شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ . قَالَ دِمْنَةُ : لَيْسَ الْمَلِكُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَدَعَ مَكَانَهُ لِأَجْلِ صَوْتٍ . فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كُلِّ الْأَصْوَاتِ تَجِبُ الْهَيْبَةُ . قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا مِثْلُ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجْمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ ، وَكَلَّمَا هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى قُضْبَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَّكَتَهَا ، فَضَرَبَتِ الطَّبْلَ فَسَمِعَ لَهُ صَوْتُ عَظِيمٌ ، فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ نَحْوَهُ لِأَجْلِ مَا سَمِعَ مِنْ عَظِيمِ صَوْتِهِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ ضَخْمًا ، فَأَيَقَنَ

(١) ظنًا لما يخاف منه . (٢) الشجر الكثير الملتف .

فِي نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ . فَعَالَجَهُ حَتَّى شَقَّهُ . فَلَمَّا رَأَاهُ
 أَجْوَفَ لَا شَيْءَ فِيهِ ، قَالَ : لَا أَذْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ الْأَشْيَاءِ
 أَجْهَرُهَا صَوْتًا وَأَعْظَمُهَا جُثَّةً . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ
 لَتَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ الَّذِي رَاعَنَا ، لَوْ وَصَلْنَا إِلَيْهِ ، لَوَجَدْنَاهُ
 أَيْسَرَ مِمَّا فِي أَنْفُسِنَا . فَإِنْ شَاءَ الْمَلِكُ بَعَثَنِي وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ
 حَتَّى آتِيَهُ بَيَانُ هَذَا الصَّوْتِ . فَوَافَقَ الْأَسَدَ قَوْلُهُ ، فَأَذِنَ لَهُ
 بِالذَّهَابِ نَحْوِ الصَّوْتِ . فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ
 شَرَبَةٌ . فَلَمَّا فَصَلَ دِمْنَةُ مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ، فَكَّرَ الْأَسَدُ فِي أَمْرِهِ ،
 وَنَدِمَ عَلَى إِرْسَالِ دِمْنَةَ حَيْثُ أَرْسَلَهُ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :
 مَا أَصَبْتُ فِي آثِمَانِي دِمْنَةَ ، وَقَدْ كَانَ بِيَابِي مَطْرُوحًا ،
 فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ يَحْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أَبْطَلَتْ حُقُوقُهُ مِنْ
 غَيْرِ جُرْمٍ كَانَ مِنْهُ ، أَوْ كَانَ مَبْغِيًّا عَلَيْهِ عِنْدَ سُلْطَانِهِ ، أَوْ كَانَ
 عِنْدَهُ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ وَالْحَرِصِ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ ضَرْ وَضِيقٌ
 فَلَمْ يَنْعِشْهُ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَجْتَرَمَ جُرْمًا فَهُوَ يَخَافُ الْعُقُوبَةَ مِنْهُ ، أَوْ
 كَانَ يَرْجُو شَيْئًا يَضُرُّ الْمَلِكَ وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ ، أَوْ يَخَافُ فِي شَيْءٍ

مِمَّا يَنْفَعُهُ ضَرًّا ، أَوْ كَانَ لَعَدُوِّ الْمَلِكِ مُسَالِمًا ، وَلِمُسَالِمِهِ مُحَارِبًا ،
فَلَيْسَ السُّلْطَانُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَعْجَلَ بِالْإِسْتِرْسَالِ إِلَيْهِ ، وَالثِّقَّةُ بِهِ ،
وَالْإِئْتِمَانُ لَهُ : فَإِنَّ دِمْنَةَ دَاهِيَةٍ أَرِيبٌ . وَقَدْ كَانَ بِبَابِي
مَطْرُوحًا مَجْفُورًا . وَلَعَلَّهُ قَدْ اخْتَمَلَ عَلَىٰ بِذَلِكَ ضِغْنًا ، وَلَعَلَّ
ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ خِيَانَتِي وَإِعَانَةِ عَدُوِّي وَنَقِصَتِي عِنْدَهُ ، وَلَعَلَّهُ
صَادَفَ صَاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطَانًا مِنِّي فِرَغَبَ بِهِ عَنِّي
وَيَمِيلَ مَعَهُ عَلَى . ثُمَّ قَامَ مِنْ مَكَانِهِ فَمَشَى غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَبَصُرَ
بِدِمْنَةٍ مُقْبِلًا نَحْوَهُ فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ ،
وَدَخَلَ دِمْنَةً عَلَى الْأَسَدِ فَقَالَ لَهُ : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ وَمَاذَا رَأَيْتَ ؟
قَالَ : رَأَيْتُ ثَوْرًا هُوَ صَاحِبُ الْخَوَارِ وَالصَّوْتِ الَّذِي سَمِعْتَهُ .
قَالَ : فَمَا قُوَّتُهُ ؟ قَالَ : لَا شَوْكَةَ لَهُ . وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَحَاورْتَهُ
مُحَاوَرَةً الْأَكْفَاءِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئًا . قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَغُرَّنَكَ
ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ : فَإِنَّ الرِّيحَ الشَّدِيدَةَ لَا تَعْبَأُ
بِضَعِيفِ الْحَشِيشِ ، لَكِنَّهَا تُحْطِمُ طَوَالَ النَّخْلِ وَعَظِيمَ الشَّجَرِ .

قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَهَابَنَّ أَيُّهَا الْمَلِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ أَمْرُهُ : فَإِنَّا آتِيكَ بِهِ لِيَكُونَ لَكَ عَبْدًا سَامِعًا مُطِيعًا . قَالَ الْأَسَدُ : دُونَكَ وَمَا بَدَا لَكَ .

فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ ، فَقَالَ لَهُ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُكْتَرِثٍ : إِنَّ الْأَسَدَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِآتِيَهُ بِكَ . وَأَمَرَنِي ، إِنْ أَنْتَ عَجَلْتَ إِلَيْهِ طَائِعًا ، أَنْ أُؤَمِّنَكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ فِي التَّأَخُّرِ عَنْهُ وَتَرِكَكَ لِقَاءَهُ ، وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ عَنْهُ وَاجْتَمَعْتَ ، أَنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعَةَ إِلَيْهِ فَأُخْبِرَهُ . قَالَ لَهُ شَتْرَبَةُ : وَمَنْ هُوَ هَذَا الْأَسَدُ الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَيَّ ؟ وَأَيْنَ هُوَ ؟ وَمَا حَالُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : هُوَ مَلِكُ السَّبَاعِ ، وَهُوَ بِمَكَانٍ كَذَا ، وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيرٌ مِنْ جِنْسِهِ فَرِعَبَ شَتْرَبَةُ مِنْ ذِكْرِ الْأَسَدِ وَالسَّبَاعِ . وَقَالَ : إِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ عَلَى نَفْسِي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ . فَأَعْطَاهُ دِمْنَةُ مِنَ الْأَمَانِ مَا وَثِقَ بِهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ وَالثَّوْرُ مَعَهُ ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَأَحْسَنَ الْأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ ، وَقَالَ لَهُ : مَتَى قَدِمْتَ هَذِهِ الْبِلَادَ ؟ وَمَا أَقْدَمَكَهَا ؟ فَقَصَّ شَتْرَبَةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ أَصْحَبَنِي وَالزَّمَنِي : فَإِنِّي مُكْرِمُكَ . فَدَعَا لَهُ الثَّوْرُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ قَرَّبَ شَتْرَبَةً وَأَكْرَمَهُ وَأَنَسَ بِهِ وَاتَّمَنَّهُ عَلَى أَسْرَارِهِ
وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْإِيَّامُ إِلَّا عَجَبًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ
وَتَقَرُّبًا مِنْهُ ؛ حَتَّى صَارَ اخْتَصَّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنَزَلَةً . فَلَمَّا رَأَى
دِمْنَةً أَنَّ الثَّورَ قَدْ اخْتَصَّ بِالْأَسَدِ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ ، وَانَّهُ قَدْ
صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخُلَوَاتِهِ وَلَهْوِهِ ، حَسَدَهُ حَسَدًا عَظِيمًا ، وَبَلَغَ
مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ : فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِ كِيلَةَ ؛ وَقَالَ لَهُ :
أَلَا تَعْجَبُ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي ، وَصُنْعِي بِنَفْسِي ؟ وَنَظَرِي
فِيمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ ، وَأَغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي حَتَّى جَلَبْتُ إِلَى الْأَسَدِ
ثُورًا غَلَبَنِي عَلَى مَنَزَلَتِي .

قَالَ كِيلَةُ : أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَعْرِمَ عَلَيْهِ
فِي ذَلِكَ . قَالَ دِمْنَةُ : أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ الْيَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزْدَادَ
مَنَزَلَتِي عِنْدَ الْأَسَدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنْ التَّمَسُّ أَنْ أَعُودَ
إِلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ : فَإِنَّ أُمُورًا ثَلَاثَةً الْعَاقِلُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ فِيهَا ،
وَالْأَخْتِيَالُ لَهَا بِجَهْدِهِ : مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضَى مِنَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ،

فِيحْتَرِسُ مِنَ الضَّرِّ الَّذِي أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ لَيْثًا يَعُودُ إِلَى ذَلِكَ
الضَّرِّ ، وَيَلْتَمِسُ النَّفْعَ الَّذِي مَضَى وَيَحْتَالُ لِمُعَاوَدَتِهِ ، وَنَهَا
النَّظْرُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، وَالِاسْتِشْقَاقُ بِمَا
يَنْفَعُ وَالْهَرَبُ بِمَا يَضُرُّ ، وَمِنْهَا النَّظْرُ فِي مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنْ
قَبْلِ النَّفْعِ ، وَمَا يَخَافُ مِنْ قَبْلِ الضَّرِّ ، فَيَسْتَتِمُّ مَا يَرْجُو وَيَتَوَقَّى
مَا يَخَافُ بِجُهْدِهِ . وَإِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو
أَنْ تَعُودَ مَنَزِلَتِي ، وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، لَمْ أَجِدْ
حِيلَةً وَلَا وَجْهًا إِلَّا الْإِحْتِيَالَ لِأَكْلِ الْعُشْبِ هَذَا ، حَتَّى أَفَرِّقَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ : فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الْأَسَدَ عَادَتْ لِي مَنَزِلَتِي .
وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ خَيْرًا لِلْأَسَدِ : فَإِنَّ إِفْرَاطَهُ فِي تَقْرِيبِ الثَّوْرِ
خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كِيلَةُ : مَا أَرَى عَلَى
الْأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنَزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْنًا وَلَا شَرًّا .
قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّكَ يُونَى السُّلْطَانِ وَيَفْسُدُ أَمْرُهُ مِنْ قَبْلِ سِتَّةِ
أَشْيَاءَ : الْحَرَمَانِ وَالْفِتْنَةِ وَالْهَوَى وَالْفِظَاطَةَ وَالزَّمَانَ وَالْخُرْقَ .

(١) أتى فلان كنى أشرف عليه العدو والمراد فتح باب الشر عليه .

فَأَمَّا الْحَرَمَانُ فَإِنَّ يُحْرَمَ صَالِحَ الْأَعْوَانِ وَالنُّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ مِنْ
أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَتَرَكَ التَّفَقُّدَ لِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ . وَأَمَّا
الْفِتْنَةُ فَهِيَ تَحَارِبُ النَّاسِ وَوُقُوعُ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ . وَأَمَّا الْهُوَى
فَالْغَرَامُ بِالْحَدِيثِ وَاللَّهْوِ وَالشَّرَابِ وَالصَّيْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَأَمَّا
الْفَظَاطَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشَّدَّةِ حَتَّى يَجْمَحَ اللِّسَانُ بِالشَّتْمِ وَالْيَدُ
بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِمَا . وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيبُ النَّاسَ
مِنَ السِّنِينَ وَالْمَوْتِ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالْغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ .
وَأَمَّا الْخَرْقُ فَإِعْمَالُ الشَّدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ ، وَاللَّيْنِ فِي مَوْضِعِ
الشَّدَّةِ . وَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ أُغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرَامًا شَدِيدًا هُوَ الَّذِي
ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيُضِرَّهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ :
وَكَيْفَ تَطِيقُ الثَّوْرَ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْكَ
وَأَكْثَرُ أَعْوَانًا ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَنْظُرُ إِلَى صِغَرِي وَضَعْفِي :
فَإِنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضَّعْفِ وَلَا الْقُوَّةَ وَلَا الصِّغَرِ وَلَا الْكِبَرِ
فِي الْجُشَّةِ : فَرُبَّ صَغِيرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِجِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ
مَا يَعْجِزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ . أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرَابًا ضَعِيفًا
اِحْتَالَ لِأَسْوَدَ حَتَّى قَتَلَهُ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ ،
وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جَرُّ ثُعْبَانٍ أَسْوَدَ ، فَكَانَ الْغُرَابُ إِذَا فَرَّخَ عَمْدَ
الْأَسْوَدِ إِلَى فِرَاحِهِ فَأَكَلَهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْغُرَابِ وَأَحْزَنَهُ ،
فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوَى ، وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ
مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ
الْغُرَابُ : قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْأَسْوَدِ إِذَا نَامَ ، فَأَنْقُرَ
عَيْنَيْهِ ، فَأَفْقَاهُمَا ، لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ مِنْهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : بِئْسَ
الْحِيلَةُ الَّتِي اخْتَلَتْ ، فَالْتِمِسْ أَمْرًا تُصِيبُ فِيهِ بَغْيَتَكَ مِنَ
الْأَسْوَدِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِكَ وَتُخَاطِرَ بِهَا . وَإِيَّاكَ أَنْ
يَكُونَ مِثْلَكَ مِثْلَ الْعُلْجُومِ ^(١) الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرَّطَانِ ^(٢) فَقَتَلَ
نَفْسَهُ . قَالَ الْغُرَابُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوَى : زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا عَشَّشَ فِي أَجْمَةٍ كَثِيرَةٍ
السَّمَكِ ، فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ ، ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ،
فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، فَجَلَسَ حَزِينًا يَلْتَمِسُ الْحِيلَةَ

(١) طائر أبيض . (٢) حيوان بحري معروف .

فِي أَمْرِهِ ؛ فَمَرَّ بِهِ سَرَطَانٌ ، فَرَأَى حَالَتَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَآبَةِ
 وَالْحُزْنِ ؛ فَدَنَا مِنْهُ وَقَالَ : مَا لِي أَرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هَكَذَا حَزِينًا
 كَثِيبًا ؟ قَالَ الْعُلْجُومُ : وَكَيْفَ لَا أُحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أُعِيشُ مِنْ
 صَيْدِ مَا هَاهُنَا مِنَ السَّمَكِ ؟ وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ
 مَرَّ بِهَذَا الْمَكَانِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هَاهُنَا سَمَكًا
 كَثِيرًا أَفَلَا نَصِيدُهُ أَوَّلًا ؟ فَقَالَ الْآخَرُ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانٍ
 كَذَا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ ؛ فَلَنَبْدَأُ بِذَلِكَ ، فَإِذَا فَرَغْنَا
 مِنْهُ جِئْنَا إِلَى هَذَا فَأَقْنِينَاهُ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا إِذَا فَرَّغَا مِمَّا
 هُنَاكَ ، أَتَيْتُمَا إِلَى هَذِهِ الْأَجْمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
 فَهُوَ هَلَاكِي وَنَفَادُ مَدَّتِي . فَاَنْطَلَقَ السَّرَطَانُ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى
 جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ ؛ فَأَقْبَلْنَ إِلَى الْعُلْجُومِ فَاسْتَشَرْنَهُ ؛
 وَقُلْنَ لَهُ : إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنَا : فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ لَا يَدْعُ مُشَاوَرَةَ
 عَدُوِّهِ . قَالَ الْعُلْجُومُ : أَمَّا مُكَابَرَةُ الصَّيَّادَيْنِ فَلَا طَاقَةَ لِي بِهِمَا ؛
 وَلَا أَعْلَمُ حِيلَةً إِلَّا الْمَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ هَاهُنَا ، فِيهِ سَمَكٌ
 وَمِيَاهُ عَظِيمَةٌ وَقَصَبٌ ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتُنَّ الْإِنْتِقَالَ إِلَيْهِ ، كَانَ فِيهِ

صَلَّاحُكُنَّ وَخَضْبُكُنَّ . فَقُلْنَ لَهُ : مَا يَمُنُّ عَلَيْنَا بِذَلِكَ غَيْرُكَ .
فَجَعَلَ الْعُلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَتَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى
بَعْضِ التِّلَالِ فَيَأْكُلُهُمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ لِأَخِذِ
السَّمَكَتَيْنِ ، فَجَاءَهُ السَّرَطَانُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَيْضًا قَدْ أَشْفَقْتُ
مِنْ مَكَانِي هَذَا وَاسْتَوَحَشْتُ مِنْهُ فَأَذْهَبْ بِي إِلَى ذَلِكَ الْغَدِيرِ ،
فَاحْتَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التَّلِّ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ
السَّمَكَ فِيهِ نَظَرَ السَّرَطَانُ فَرَأَى عِظَامَ السَّمَكِ مَجْمُوعَةً هُنَاكَ ،
فَعَلِمَ أَنَّ الْعُلْجُومَ هُوَ صَاحِبُهَا ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقَالَ
فِي نَفْسِهِ : إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا
هَالِكٌ ، سَوَاءٌ قَاتَلَ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ
نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفَاطًا ^(١) ، ثُمَّ أَهْوَى بِكَلْبَتَيْهِ عَلَى عُنُقِ الْعُلْجُومِ ،
فَعَصَرَهُ فَمَاتَ ، وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ
بِذَلِكَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِيلَةِ

(١) أُنْقَة . (٢) كَلْبَتَا السَّرَطَانِ : هُمَا قَرْنَاهُ اللَّذَانِ يُشْبَهُانِ الْأَدَاةَ الَّتِي يَأْخُذُ بِهَا

الْحَدَّادُ الْحَدِيدَ الْمُحْمَى أَوْ الَّتِي يُخْرِجُ بِهَا النُّجَّارُ الْمَسَامِيرَ مِنَ الْخَشَبِ (الْكَاشَةُ) .

مَهْلَكَةٌ لِلْمُحْتَالِ وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ ، إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ ،
كَانَ فِيهِ هَلَاكُ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهْلِكَ بِهِ نَفْسُكَ ، وَتَكُونُ
فِيهِ سَلَامَتُكَ . قَالَ الْغُرَابُ : وَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوَى : تَنْطَلِقُ فَتَبْصُرُ فِي طَيْرَانِكَ : لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ
بِشَيْءٍ مِنْ حَلِيِّ النِّسَاءِ فَتَخْطِفَهُ ، وَلَا تَزَالُ طَائِرًا وَاقِعًا ، بِحَيْثُ
لَا تَفُوتُ الْعُيُونُ ، حَتَّى تَأْتِيَ جُحْرَ الْأَسْوَدِ فَتَرْمِي بِالْحَلِيِّ عِنْدَهُ .
فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَخَذُوا حَلِيَّهُمْ وَأَرَاخُوكَ مِنَ الْأَسْوَدِ .
فَانْطَلَقَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا فِي السَّمَاءِ ^(١) ، فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ الْعُظَمَاءِ
فَوْقَ سَطْحٍ تَغْتَسِلُ ، وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا وَحُلِيِّهَا نَاحِيَةً ، فَاثْقَضَ
وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّهَا عِقْدًا ، وَطَارَ بِهِ ، فَتَبِعَهُ النَّاسُ ، وَلَمْ يَزَلْ
طَائِرًا وَاقِعًا ، بِحَيْثُ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ
الْأَسْوَدِ ، فَأَلْقَى الْعِقْدَ عَلَيْهِ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا أَتَوْهُ
أَخَذُوا الْعِقْدَ وَقَتَلُوا الْأَسْوَدَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ
لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْرِي مَالًا تُجْرِي الْقُوَّةُ . قَالَ كَلِيلَةُ : إِنَّ الثَّورَ

(١) مستديرًا في طيرانه كالحلقة .

لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكَانَ كَمَا تَقُولُ . وَلَكِنَّ لَهُ مَعَ
شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ . فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ ؟ قَالَ
دِمْنَةُ : إِنَّ الثَّورَ لَكَأَ ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ وَرَأْيِهِ ، وَلَكِنَّهُ مُقَرَّرٌ لِي
بِالْفَضْلِ ، وَأَنَا خَلِيقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ كَمَا صَرَعَتِ الْأَرْنبُ الْأَسَدَ .
قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْمِيَاهِ
وَالْعُشْبِ ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْوُحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِيَاهِ
وَالْمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهَا ذَلِكَ لِحَوْفِهَا مِنَ
الْأَسَدِ ، فَاجْتَمَعَتْ وَاتَّتْ إِلَى الْأَسَدِ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ
لَتُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فِيهِ
صَلَاحٌ لَكَ وَأَمْنٌ لَنَا . فَإِنْ أَنْتَ أَمْنَتْنَا وَلَمْ تُخَفِّنَا ، فَلَكَ عَلَيْنَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ : فَرَضَى الْأَسَدُ
بِذَلِكَ ، وَصَالَحَ الْوُحُوشَ عَلَيْهِ ، وَوَفَّقَنَ لَهُ بِهِ . ثُمَّ إِنَّ أَرْنبًا
أَصَابَتْهَا الْقُرْعَةُ ، وَصَارَتْ غَدَاءَ الْأَسَدِ ، فَقَالَتْ لِلْوُحُوشِ :
إِنْ أَنْتَنَّ رَفَقَتَنِي بِي فِيمَا لَا يَضُرُّكُنَّ ، رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنْ

الأسد . فقالت الوحوش : وما الذي تكلفيننا من الأمور ؟
 قالت : تأمرن الذي ينطلق بي إلى الأسد أن يمهلني ريثما
 أبطي عليه بعض الإبطاء . فقلن لها ذلك لك . فانطلقت
 الأرنب متباطئة ، حتى جاوزت الوقت الذي كان يتغدى فيه
 الأسد . ثم تقدمت إليه وحدها رويداً ، وقد جاع ، فغضب
 وقام من مكانه نحوها ، فقال لها : من أين أقبلت ؟ قالت :
 أنا رسول الوحوش إليك : بعثني ومعى أرنب لك ، فتبعني
 أسد في بعض تلك الطريق ، فأخذها مني ، وقال : أنا أولى
 بهذه الأرض وما فيها من الوحش . فقلت : إن هذا غداء الملك
 أرسلني به الوحوش إليه . فلا تغصبنه ، فسبك وشتمك .
 فأقبلت مسرعة لأخبرك . فقال الأسد : انطلقني معي فأريني
 موضع هذا الأسد . فانطلقت الأرنب إلى جب فيه ماء غامر
 صاف ، فاطلعت فيه ، وقالت : هذا المكان . فاطاع الأسد ،
 فرأى ظله وظل الأرنب في الماء ، فلم يشك في قولها ، ووثب
 إليه ليقاتله ، فغرق في الحب . فانقلبت الأرنب إلى الوحوش

فَاعْلَمْتَهُنَّ صَنِيعَهَا بِالْأَسَدِ . قَالَ كَلِيلَةُ : إِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَلَاكِ
 الثَّورِ بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلْأَسَدِ فَشَانُكَ : فَإِنَّ الثَّورَ قَدْ أَضَرَّ بِي
 وَبِكَ وَبِغَيْرِنَا مِنْ الْجُنْدِ ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِهَلَاكِ
 الْأَسَدِ ، فَلَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ غَدْرُ مِنِّي وَمِنْكَ . ثُمَّ إِنْ دِمْنَةُ
 تَرَكَ الدُّخُولَ عَلَى الْأَسَدِ أَيَّامًا كَثِيرَةً ، ثُمَّ أَتَاهُ عَلَى خَلْوَةٍ مِنْهُ ،
 فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ أَرَكَ . أَلَا نَحِيرُ
 كَانَ انْقِطَاعُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : فَلْيَكُنْ خَيْرًا أَيُّهَا الْمَلِكُ . قَالَ الْأَسَدُ :
 وَهَلْ حَدَّثَ أَمْرٌ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يُرِيدُهُ
 وَلَا أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : كَلَامٌ فَطِيعٌ .
 قَالَ : أَخْبِرْنِي بِهِ . قَالَ دِمْنَةُ إِنَّهُ كَلَامٌ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ ، وَلَا
 يَشْجَعُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ . وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَذُو فَضِيلَةٍ ، وَرَأْيُكَ يَدُلُّكَ
 عَلَى أَنْ يَوْجِعَنِي أَنْ أَقُولَ مَا تَكْرَهُ ، وَاثِقْ بِكَ أَنْ تَعْرِفَ نَصْحِي
 وَإِثَارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي . وَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِي أَنَّكَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ
 فِيمَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ ، وَلَكِنِّي إِذَا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ أَنَّ نَفْسَنَا ، مَعَاشِرَ
 الْوُحُوشِ ، مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ أَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يُلْزِمُنِي

وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي وَخِفْتُ إِلَّا تَقْبَلُ مِنِّي فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ كَتَمَ
السُّلْطَانَ نَصِيحَتَهُ وَالْإِخْوَانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ . قَالَ الْأَسَدُ :
فَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْأَمِينُ الصَّدُوقُ عِنْدِي أَنَّ شَرَبَةَ خَلَا
بِرُعُوسِ جُنْدِكَ ، وَقَالَ : قَدْ خَبَرْتُ الْأَسَدَ وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيدَتَهُ
وَقُوَّتَهُ : فَاسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذَلِكَ يَتَوَلَّى مِنْهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ ،
وَسَيَكُونُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّيُونِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي ذَلِكَ عَلِمْتُ
أَنَّ شَرَبَةَ خَوَانَ غَدَارًا ، وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الْكَرَامَةَ كُلَّهَا ، وَجَعَلْتَهُ
نَظِيرَ نَفْسِكَ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ . وَأَنَّكَ مَتَى زِلْتَ عَنْ مَكَانِكَ
صَارَ لَهُ مُلْكُكَ ، وَلَا يَدْعُ جُهْدًا إِلَّا بَلَغَهُ فِيكَ . وَقَدْ كَانَ
يُقَالُ : إِذَا عَرَفَ الْمَلِكُ مِنَ الرَّجُلِ أَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي الْمَنْزِلَةِ
وَالْحَالِ ، فَلْيَصْرَعْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ ، كَانَ هُوَ الْمَصْرُوعُ .
وَشَرَبَةُ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيهَا ، وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ
قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوعِهِ : فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَلَا تَسْتَدْرِكُهُ .
فَإِنَّهُ يُقَالُ : الرَّجَالُ ثَلَاثَةٌ : حَازِمٌ وَأَحْزَمٌ مِنْهُ وَعَاجِزٌ ، فَأَحَدُ

الْحَازِمِينَ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ
 شَعَاعًا ، وَلَمْ تَعَى بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ ؛
 وَأَحْزَمُ مِنْ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ ذُو الْعُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِبْتِلَاءَ قَبْلَ
 وَقُوعِهِ ؛ فَيُعْظِمُهُ إِعْظَامًا ، وَيَحْتَالُ لَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ ؛
 فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ ؛ وَيُدْفَعُ الْأَمْرَ قَبْلَ وَقُوعِهِ .
 وَأَمَّا الْعَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ حَتَّى يَهْلِكَ . وَمِنْ أَمْثَالِ
 ذَلِكَ مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلَاثِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
 قَالَ دَمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ فِيهِ ثَلَاثُ سَمَكَاتٍ : كَيْسَةُ
 وَأَكْبِسُ مِنْهَا وَعَاجِزَةٌ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ الْغَدِيرُ بِنَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ
 لَا يَكَادُ يَقْرِبُهُ أَحَدٌ ؛ وَيَقْرِبُهُ نَهْرٌ جَارٍ . فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتَازَ بِذَلِكَ
 النَّهْرِ صَيَّادَانِ ؛ فَأَبْصَرَ الْغَدِيرَ ، فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشَبَاكِهِمَا
 فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ . فَسَمِعَ السَّمَكَاتُ قَوْلَهُمَا : فَأَمَّا
 أَكْبِسُهُنَّ لَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُمَا ، وَارْتَابَتْ بِهِمَا ، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا ؛
 فَلَمْ تُعْرِجْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى نَحَرَجَتْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ

الماء من النهر إلى الغدير . وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ، فلما رآتهما ، وعرفت ما يريدان ، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ، فإذا بهما قد سدا ذلك المكان حينئذ قالت : فرطت ، وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الحيلة على هذه الحال ؟ ولما تنجح حيلة العجالة والإرهاق ^(١) ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ولا يئس على حال ، ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء متقلبة على ظهرها تارة ، وتارة على بطنها ، فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

قال الأسد : قد فهمت ذلك ، ولا أظن الثور يغشني ويرجو لي الغوائل ^(٢) . وكيف بفعل ذلك ولم ير مني سوءاً قط ؟ ولم أدع خيراً إلا فعلته معه ؟ ولا أمانة إلا بلغته إياها ؟ . قال دمنة : إن اللئيم لا يزال نافعاً ناصحاً حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها

بِأَهْلٍ ، فَإِذَا بَلَغَهَا التَّمَسَّ مَا فَوْقَهَا ، وَلَا سِيَّأَ أَهْلُ الْخِيَانَةِ
وَالْفُجُورِ : فَإِنَّ اللَّئِيمَ الْفَاجِرَ لَا يَخْدُمُ السُّلْطَانَ وَلَا يَنْصَحُ لَهُ إِلَّا
مَنْ فَرَّقَ ^(١) . فَإِذَا اسْتَغْنَى وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ ؛ كَذَنَبِ
الْكَلْبِ الَّذِي يُرْبِطُ لِيَسْتَقِيمَ فَلَا يَزَالُ مُسْتَوِيًّا مَا دَامَ مَرْبُوطًا ،
فَإِذَا حُلَّ انْحَنَى وَاعْوَجَّ كَمَا كَانَ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ
مِنْ نَصَحَاتِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ بِهِ ، لَمْ يُحْمَدْ رَأْيُهُ ،
كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدْعُ مَا يَبْعَثُ لَهُ الطَّبِيبُ ، وَيَعْمِدُ إِلَى
مَا يَشْتَهِيهِ . وَحَقُّ عَلَى مُوَازِرِ السُّلْطَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّخَضُّعِ
لَهُ عَلَى مَا يَزِيدُ سُلْطَانَهُ قُوَّةً وَيَزِينُهُ ، وَالْكَفِّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَشِينُهُ ،
وَالْخَيْرُ الْإِخْوَانُ وَالْأَعْوَانُ أَقْلَهُمْ مَدَاهِنَةً فِي النَّصِيحَةِ ، وَخَيْرُ
الْأَعْمَالِ أَحْلَاهَا عَاقِبَةً ، وَخَيْرُ النِّسَاءِ الْمُوَافِقَةُ لِبَعْلِهَا ، وَخَيْرُ
النِّسَاءِ مَا كَانَ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَخْيَارِ ، وَأَشْرَفُ الْمُلُوكِ مَنْ لَمْ يُخَالِطْهُ
بَطَرٌ ، وَخَيْرُ الْأَخْلَاقِ أَعْوَنُهَا عَلَى الْوَرَعِ . وَقَدْ قِيلَ : لَوْ أَنَّ
أَمْرًا تَوَسَّدَ النَّارَ وَافْتَرَشَ الْحَيَاتِ ، كَانَ أَحَقَّ أَلَّا يَهْنَأَ النَّوْمُ .

وَالرَّجُلُ إِذَا أَحَسَّ مِنْ صَاحِبِهِ بَعْدَاوَةً يُرِيدُهُ بِهَا ، لَا يَطْمَئِنُّ
إِلَيْهِ ، وَاعْجَزُ الْمُلُوكِ آخِذُهُمْ بِالْهُوَيْنِ ، وَأَقْلَهُمْ نَظْرًا فِي مُسْتَقْبَلِ
الْأُمُورِ ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْهَائِجِ الَّذِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ :
فَإِنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ تَهَاوَنَ بِهِ ، وَإِنْ أَضَاعَ الْأُمُورَ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى
قَرْنَائِهِ . قَالَ لَهُ الْأَسَدُ : لَقَدْ أَغْلَظْتَ فِي الْقَوْلِ ، وَقَوْلُ النَّاصِحِ
مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ . وَإِنْ كَانَ شَرَبَةٌ مُعَادِيًا لِي ، كَمَا تَقُولُ ، فَإِنَّهُ
لَا يَسْتَطِيعُ لِي ضَرًّا ، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ
وَأَنَا آكِلُ لَحْمٍ ؟ وَإِنَّمَا هُوَ لِي طَعَامٌ ، وَلَيْسَ عَلَى مِنْهُ مَخَافَةٌ .
ثُمَّ لَيْسَ إِلَيَّ الْغَدْرِ بِهِ سَبِيلٌ بَعْدَ الْأَمَانِ الَّذِي جَعَلْتَهُ لَهُ ، وَبَعْدَ
إِكْرَامِي لَهُ ، وَثَنَائِي عَلَيْهِ . وَإِنْ غَيَّرْتُ مَا كَانَ مِنِّي وَبَدَّلْتَهُ ،
سَفَهْتُ رَأْيِي وَجَهَلْتُ نَفْسِي وَغَدَرْتُ بِذِمَّتِي . قَالَ دِمْنَةُ :
لَا يَغُرُّكَ قَوْلُكَ : هُوَ لِي طَعَامٌ وَلَيْسَ عَلَى مِنْهُ مَخَافَةٌ : فَإِنَّ شَرَبَةَ
إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْكَ بِنَفْسِهِ اخْتَالَ لَكَ مِنْ قَبْلِ غَيْرِهِ . وَيُقَالُ :
إِنْ اسْتَضَافَكَ ضَيْفٌ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ أَخْلَاقَهُ
فَلَا تَأْمَنَّهُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا تَأْمَنُ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ بِسَبِيلِهِ
مَا أَصَابَ الْقَمَلَةَ مِنَ الْبُرْغُوثِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قَمَلَةً لَزِمَتْ فِرَاشَ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ
 دَهْرًا فَكَانَتْ تُصِيبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نَائِمٌ لَا يَشْعُرُ ، وَتَدَبُّ^١
 دَبِيبًا رَفِيقًا ، فَكَثَّتْ كَذَلِكَ حِينًا حَتَّى اسْتَضَافَهَا لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي
 بُرْغُوثٌ ، فَقَالَتْ لَهُ : بِنْتُ اللَّيْلَةِ عِنْدَنَا فِي دِمٍ طَيِّبٍ وَفِرَاشٍ لَيِّنٍ ،
 فَأَقَامَ الْبُرْغُوثُ عِنْدَهَا حَتَّى إِذَا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ
 الْبُرْغُوثُ فَلَدَغَهُ لَدَغَةً أَتَقَطَّتُهُ ، وَأَطَارَتِ النَّوْمَ عَنْهُ ، فَقَامَ الرَّجُلُ
 وَأَمَرَ أَنْ يُفْتَشَ فِرَاشُهُ ، فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ إِلَّا الْقَمَلَةَ ، فَأُخِذَتْ
 فَقُصِّعَتْ^(١) وَفَرَّ الْبُرْغُوثُ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ
 أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لَا يَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ ، وَإِنْ هُوَ ضَعْفٌ عَنْ
 ذَلِكَ جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ . وَإِنْ كُنْتَ لَا تَخَافُ مِنْ شَرِّهِ ، نَخَفَ
 غَيْرُهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِينَ قَدْ حَمَلَهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَى عِدَاوَتِكَ . فَوَقَعَ^(٢)
 فِي نَفْسِ الْأَسَدِ كَلَامُ دِمْنَةَ . فَقَالَ : فَمَا الَّذِي تَرَى إِذَا ؟
 وَبِمَاذَا تُشِيرُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الضُّرْسَ لَا يَزَالُ مُتَأَكِّلًا ، وَلَا
 يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذَى حَتَّى يُفَارِقَهُ . وَالطَّعَامُ الَّذِي

(١) قُتِلَتْ بِالظَّفَرِ . (٢) أَغْرَاهُمْ .

قَدْ عَفِنَ فِي الْبَطْنِ ، الرَّاحَةُ فِي قَدْفِهِ . وَالْعَدُوُّ الْمَخُوفُ ، دَوَاوُهُ
 قَتْلُهُ . قَالَ الْأَسَدُ : لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَكْرَهُ مَجَاوِرَةَ شَتْرَبَةِ إِيَّايَ ،
 وَأَنَا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ ، وَذَا كَرُّهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ ، ثُمَّ أَمَرَهُ
 بِاللِّحَاقِ حَيْثُ أَحَبَّ . فَكَّرَهُ دِمْنَةُ ذَلِكَ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ مَتَى
 كَلَّمَ شَتْرَبَةَ فِي ذَلِكَ وَسَمِعَ مِنْهُ جَوَابًا عَرَفَ بِاطِلَ مَا أَتَى بِهِ ،
 وَاطَّلَعَ عَلَى غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ ، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرَهُ . فَقَالَ لِلْأَسَدِ :
 أَمَّا إِرْسَالُكَ إِلَى شَتْرَبَةَ فَلَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا وَلَا حَزْمًا ، فَلْيَنْظُرِ الْمَلِكُ
 فِي ذَلِكَ : فَإِنَّ شَتْرَبَةَ مَتَى شَعَرَ بِهَذَا الْأَمْرِ ، خِفْتُ أَنْ يُعَاجِلَ
 الْمَلِكُ بِالْمُكَابَرَةِ . وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ قَاتَلَكَ مُسْتَعِدًّا ، وَإِنْ
 فَارَقَكَ ، فَارَقَكَ فِرَاقًا يَلِيكَ مِنْهُ النَّقْصُ ، وَيَلْزَمُكَ مِنْهُ الْعَارُ .
 مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ الْمُلُوكِ لَا يُعْلِنُونَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُعْلِنِ
 ذَنْبَهُ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمْ عُقُوبَةٌ : فَلِذَنْبِ الْعَلَانِيَةِ عُقُوبَةٌ
 الْعَلَانِيَةُ ، وَلِذَنْبِ السَّرِّ عُقُوبَةُ السَّرِّ . قَالَ الْأَسَدُ : إِنَّ الْمَلِكَ
 إِذَا عَاقَبَ أَحَدًا عَنْ ظَنَّةٍ ظَنًّا مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ بِجُرْمِهِ ، فَتَنَفَّسَهُ

عَاقَبَ وَإِيَّاهَا ظَلَمَ . قَالَ دِمْنَةُ : أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا رَأَى الْمَلِكِ ،
فَلَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شَرَبَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَعِدُّ لَهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَكَ
مِنْهُ غِرَّةٌ أَوْ غَفْلَةٌ : فَإِنِّي لَا أَحْسِبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا
سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمَةٍ . وَمِنْ عِلَامَاتِ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى
لَوْنَهُ مُتَغَيِّرًا ، وَتَرَى أَوْصَالَهُ تُرْعَدُ ، وَتَرَاهُ مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمَالًا ،
وَتَرَاهُ يَهْزُقُ قَرْنِيَهُ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنِّطَاجِ وَالْقِتَالِ . قَالَ الْأَسَدُ :
سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَدَرٍ ، وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتَ
عَلَيْتُ أَنْ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ حَمْلِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّورِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ
وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ ، وَأَنَّ الْأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ الثَّورَ ،
وَيَتَهَيَّأُ لَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّورَ لِيُغَرِّبَهُ بِالْأَسَدِ ، وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ
إِتْيَانُهُ مِنْ قِبَلِ الْأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ . فَقَالَ :
أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَّا آتِيَ شَرَبَةٌ فَانْظُرْ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ ، وَاسْمَعْ
كَلَامَهُ : لَعَلِّي أَطْلِعُ عَلَى سِرِّهِ ، فَأُطْلِعَ الْمَلِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَلَى
مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ ؟ فَأَذِنَ لَهُ الْأَسَدُ فِي ذَلِكَ . فَانْطَلَقَ فَدَخَلَ

عَلَى شَتْرَبَةٍ كَالْكَيْبِ الْحَزِينِ . فَلَمَّا رَأَاهُ الثَّورُ رَحَّبَ بِهِ ،
 وَقَالَ : مَا كَانَ سَبَبَ انْقِطَاعِكَ عَنِّي ؟ فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ ،
 وَلَعَلَّكَ فِي سَلَامَةٍ ! قَالَ دِمْنَةُ : وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامَةِ
 مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يُوثِقُ بِهِ ، وَلَا
 يَنْفَكُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ . حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا
 عَلَى نَفْسِهِ . قَالَ شَتْرَبَةُ : وَمَا الَّذِي حَدَثَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ :
 حَدَثَ مَا قَدَّرَ وَهُوَ كَائِنٌ . وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ الْقَدَرَ ؟ وَمَنْ
 ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيًّا مِنَ الْأُمُورِ فَلَمْ يَبْطُرْ ؟ وَمَنْ
 ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنْهُ فَلَمْ يَغْتَرَّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي تَبَعَ هَوَاهُ فَلَمْ
 يَحْسَرْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللَّثَامِ فَلَمْ يُحْرَمْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي
 خَالَطَ الْأَشْرَارَ فَسَلِمَ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ
 مِنْهُ الْأَمْنُ وَالْإِحْسَانُ ؟ قَالَ شَتْرَبَةُ : إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلَامًا يَدُلُّ
 عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَأَيْتَكَ مِنَ الْأَسَدِ رَيْبٌ ، وَهَالِكٌ مِنْهُ أَمْرٌ . قَالَ
 دِمْنَةُ : أَجَلٌ ، لَقَدْ رَأَيْتَنِي مِنْهُ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي .
 قَالَ شَتْرَبَةُ : فَنَفْسُ مَنْ رَأَيْتَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ تَعْلَمُ مَا بَيْنِي

وَبَيْنَكَ ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَى ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ
وَالْمِيثَاقِ أَيَّامًا أَرْسَلَنِي الْأَسَدُ إِلَيْكَ ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ حِفْظِكَ
وَإِطْلَاعِكَ عَلَى مَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ . قَالَ
شَرَبَةُ : وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْخَيْرُ الصَّدُوقُ
الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الْأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ :
قَدْ أَعْجَبَنِي سَمْنُ الثَّوْرِ ، وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ ، فَأَنَا آكِلُهُ
وَمُطْعِمُ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي هَذَا الْقَوْلُ ، وَعَرَفْتُ
غَدْرَهُ وَنَقْضَ عَهْدِهِ ، أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لِأَقْضِيَ حَقَّكَ ، وَتَحْتَالَ
أَنْتَ لِأَمْرِكَ . فَلَمَّا سَمِعَ شَرَبَةُ كَلَامَ دِمْنَةَ ، وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ
دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَفَكَرَ فِي أَمْرِ الْأَسَدِ ، ظَنَّ
أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ وَنَصَحَ لَهُ ، وَرَأَى أَنَّ الْأَمْرَ شَبِيهُ بِمَا قَالَ
دِمْنَةُ . فَأَهَمَّهُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : مَا كَانَ لِلْأَسَدِ أَنْ يَغْدِرَ بِي وَلَمْ
آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ ، مُنْذُ صَحِبْتُهُ ، وَلَا
أُظُنُّ الْأَسَدَ إِلَّا قَدْ حُمِلَ عَلَى الْكَذِبِ وَشُبِّهِ عَلَيْهِ أَمْرِي : فَإِنَّ
الْأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَوْمٌ سَوُّوهُ ، وَجَرَّبَ مِنْهُمْ الْكَذِبَ وَأُمُورًا هِيَ

تُصَدِّقُ عِنْدَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ : فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ رُبَّمَا
أُورِثَتْ صَاحِبَهَا سُوءَ ظَنٍّ بِالْأَخْيَارِ ، وَحَمَلَتْهُ تَجَرِبَتُهُ عَلَى الْخَطَا
كَخَطَا الْبَطَّةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا رَأَتْ فِي الْمَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ ، فَظَنَّتْهُ
سَمَكَةً ، فَحَاوَلَتْ أَنْ تَصِيدَهَا ، فَلَمَّا جَرَّبَتْ ذَلِكَ مَرَارًا ،
عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ فَتَرَكْتُهُ . ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدٍ ذَلِكَ
الْيَوْمِ سَمَكَةً ، فَظَنَّتْ أَنَّهَا مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالْأَمْسِ ، فَتَرَكْتَهَا
وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا . فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبُ فَصْدَقَهُ
عَلَى وَصْفِهِ فِيَّ ، فَمَا جَرَى عَلَى غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ . وَإِنْ كَانَ
لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ ، وَأَرَادَ السُّوءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ
أَعْجَبَ الْأُمُورَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنَّ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ
الرَّجُلُ رِضَا صَاحِبِهِ وَلَا يَرْضَى . وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ
رِضَاهُ فَيَسْخَطَ . فَإِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ ^(١) عَنْ عِلَّةٍ ، كَانَ الرِّضَا
مَوْجُودًا وَالْعَفْوُ مَأْمُولًا . وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، انْقَطَعَ
الرَّجَاءُ : لِأَنَّ الْعِلَّةَ إِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ فِي وُجُودِهَا ، كَانَ الرِّضَا
مَأْمُولًا فِي صُدُورِهَا .

قَدْ نَظَرْتُ : فَلَا أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَسَدِ جُرْمًا ، وَلَا صَغِيرَ
 ذَنْبٍ ، وَلَا كَبِيرَهُ . وَلَعَمْرِي مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ
 صَاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَلَا أَنْ يَحْفَظَ
 مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ صَغِيرَةٌ أَوْ كَبِيرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ
 ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْوَفَاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقَطَتْ نَظَرُفِيهَا ،
 وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطْئِهِ عَمْدًا كَانَ أَوْ خَطَأً . ثُمَّ يَنْظُرُ هَلْ
 فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يَخَافُ ضَرَرَهُ وَشَيْنَهُ ؟ فَلَا يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ
 بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيلًا . فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ قَدْ
 اعْتَقَدَ عَلَى ذَنْبٍ ، فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ ، إِلَّا أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ
 رَأْيِهِ نَصِيحَةً لَهُ ، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الْجَرَاءَةِ
 عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ ، وَلَا أَجِدُ لِي فِي هَذَا الْمُحْضَرِ إِثْمًا مَا : لِأَنِّي
 لَمْ أَخَالَفْهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا مَا قَدْ نَدَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ الرَّشْدِ وَالْمَنْفَعَةِ
 وَالْدِّينِ ، وَلَمْ أَجَاهِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ جُنْدِهِ وَعِنْدَ
 أَصْحَابِهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخْلُو بِهِ وَأَكَلُهُ سِرًّا كَلَامَ الْهَائِبِ الْمَوْقُرِ .
 وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنَ التَّمَسِّ الرُّخَصِ ^(١) مِنَ الْإِخْوَانِ عِنْدَ الْمَشَاوِرَةِ ،

(١) جمع رخصة وهي التسهيل .

وَمِنْ الْأَطِبَّاءِ عِنْدَ الْمَرِضِ ، وَمِنْ الْفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، أَخْطَأَ
 مَنَافِعَ الرَّأْيِ ، وَازْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَوَرُّطًا ^(١) ، وَحَمَلَ
 الْوِزْرَ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ
 سَكَرَاتِ السُّلْطَانِ : فَإِنَّ مُصَاحَبَةَ السُّلْطَانِ خَطَرَةٌ ، وَإِنْ
 صُوحِبَ بِالسَّلَامَةِ وَالثِّقَةِ وَالْمُودَّةِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ . وَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ هَذَا ، فَبَعْضُ مَا أُوتِيَتْ مِنَ الْفَضْلِ قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ
 الْهَلَاكُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا هَذَا ، فَهُوَ إِذَا مِنْ مَوَاقِعِ
 الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ ، وَالْقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الْأَسَدَ
 قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ ، وَيُدْخِلُهُ الْقَبْرَ ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ
 عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْهَائِجِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَى الْحَيَّةِ ذَاتِ الْحُمَةِ ^(٢)
 مَنْ يَنْزِعُ حُمَتَهَا وَيَلْعَبُ بِهَا ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَاجِزَ حَازِمًا ،
 وَيُثَبِّطُ ^(٣) الشَّهْمَ ، وَيُوسِعُ ^(٤) عَلَى الْمُقْتِرِ ، وَيُسْجِعُ ^(٥) الْجَبَانَ ، وَيَجْبِنُ
 الشُّجَاعَ عِنْدَ مَا تَعْتَرِيهِ الْمَقَادِيرُ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا
 الْأَقْدَارُ .

(١) ارتباكاً . (٢) منها الحاد . (٣) يعوته . (٤) الفقير .

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ إِرَادَةَ الْأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْمِيلِ الْأَشْرَارِ وَلَا
 سَكْرَةِ السُّلْطَانِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهَا الْغَدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ :
 فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ : لِيَطْعَامِهِ حَلَاوَةٌ وَأَنْحَرَهُ سَمٌ مُمِيتٌ . قَالَ
 شَتْرَبَةُ : فَأَرَانِي قَدْ اسْتَلَذَذْتُ الْحَلَاوَةَ إِذْ ذُقْتُهَا : وَقَدْ انْتَهَيْتُ
 إِلَى أَنْحَرِهَا الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ ، وَلَوْ لَا الْحَيْنُ مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ
 الْأَسَدِ ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ فَأَنَا فِي هَذِهِ الْوَرِطَةِ
 كَالنَّحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلُوفَرِ إِذْ تَسْتَلِذُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ ،
 فَتَحْبِسُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضُمُ عَلَيْهَا ، فَتَرْتَبِكُ فِيهِ
 وَتَمُوتُ . وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكَفَافِ الَّذِي يُغْنِيهِ
 وَطَمَحَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يَخْوَفْ عَاقِبَتَهَا ، كَانَ
 كَالذَّبَابِ الَّذِي لَا يَرْضَى بِالشَّجَرَةِ وَالرِّيَاحِينَ ، وَلَا يُقْنِعُهُ ذَلِكَ ،
 حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الْفِيلِ ، فَيَضْرِبُهُ الْفِيلُ
 بِأَذَانِهِ فَيُهْلِكُهُ . وَمَنْ يَبْذُلُ وَدَّهَ وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لَا يَشْكُرُهُ ،
 فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّبَاخِ . وَمَنْ يُشِرُّ عَلَى الْمُعْجَبِ ، فَهُوَ كَمَنْ

(١) الهلاك والهلكة . (٢) ضرب من الرياحين . (٣) ارتفعت .

يُسَاوِرُ الْمَيِّتَ أَوْ يُسَارُّ الْأَصَمَّ . قَالَ دِمْنَةُ : دَعِ عَنْكَ هَذَا
 الْكَلَامَ وَاحْتَلِ لِنَفْسِكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : يَا شَيْءُ اُحْتَالَ
 لِنَفْسِي ، إِذَا أَرَادَ الْأَسَدُ أَكْلِي ، مَعَ مَا عَرَفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الْأَسَدِ
 وَسُوءِ أَخْلَاقِهِ ؟ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَرْضَ بِي إِلَّا خَيْرًا ، ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابُهُ
 بِمَكْرِهِمْ وَبِخُورِهِمْ هَلَاقِي لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ
 الْمَكْرَةُ الظُّلْمَةُ عَلَى الْبَرِّ الصَّحِيحِ ، كَانُوا خُلُقَاءَ أَنْ يَهْلِكُوهُ ،
 وَإِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَهَوَّ قَوًى ، كَمَا أَهْلَكَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ
 آوَى الْجَمَلِ ، حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ .
 قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ شَتْرَبَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجْمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لَطَرِيٍّ
 مِنْ طُرُقِ النَّاسِ ، وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ ثَلَاثَةٌ : ذِئْبٌ وَغُرَابٌ
 وَابْنُ آوَى ، وَأَنَّ رُعَاءَ مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ ، وَمَعَهُمْ جِمَالٌ ،
 فَتَخَلَّفَ مِنْهَا مَلٌّ ، فَدَخَلَ تِلْكَ الْأَجْمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَسَدِ ،
 فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ مَوْضِعٍ كَذَّابٍ .
 قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : مَا يَأْمُرُنِي بِهِ الْمَلِكُ . قَالَ : تُقِيمُ

عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْخُصْبِ . فَأَقَامَ الْأَسَدُ وَالْجَمَلُ
مَعَهُ زَمَنًا طَوِيلًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِطَلَبِ
الصَّيْدِ ، فَلَقِيَ فِيلًا عَظِيمًا ، فَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَأَفْلَتَ
مِنْهُ مُثَقَلًا مُتَخَنًا بِالْجِرَاحِ ، يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ ، وَقَدْ خَدَشَهُ الْفِيلُ
بِأَنْيَابِهِ . فَلَبَّأَ وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَقَعَ لَا يَسْتَطِيعُ حَرَاكًا ،
وَلَا يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ ، فَلَبِثَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَأَبْنُ آوَى
أَيَّامًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا : لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلَاتِ
الْأَسَدِ وَطَعَامِهِ ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ وَهَزَالٌ ، وَعَرَفَ
الْأَسَدُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : لَقَدْ جُهِدْتُمْ^(١) وَاحْتَجَمْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُونَ .
فَقَالُوا : لَا تَهْمُنَا أَنْفُسُنَا : لَكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ .
فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُصْلِحُهُ . قَالَ الْأَسَدُ : مَا أَشْكُ
فِي نَصِيحَتِكُمْ ، وَلَكِنْ اانْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا تَأْتُونِي بِهِ ،
فِيُصِيبُنِي وَيُصِيبُكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ . فَخَرَجَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ
وَأَبْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ، فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً ، وَتَشَاوَرُوا فِيمَا

(١) جهد : حصل له مشقة .

بَيْنَهُمْ ، وَقَالُوا : مَا لَنَا وَلِهَذَا الْآكِلِ الْعُشْبِ الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ
 مِنْ شَأْنِنَا ، وَلَا رَأْيُهُ مِنْ رَأَيْنَا ؟ أَلَا تُزِينُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلُهُ
 وَيُطْعِمُنَا مِنْ لَحْمِهِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : هَذَا مِمَّا لَا نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ
 لِلْأَسَدِ : لِأَنَّهُ قَدْ آمَنَ الْجَمَلُ ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ عَهْدًا .
 قَالَ الْغُرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الْأَسَدِ . ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى
 الْأَسَدِ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا ؟ قَالَ الْغُرَابُ :
 إِنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ . وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا سَعَى لَنَا وَلَا
 بَصَرَ : لِمَا بَنَا مِنَ الْجُوعِ ، وَلَكِنْ قَدْ وَفَّقْنَا لِرَأْيٍ وَاجْتَمَعْنَا
 عَلَيْهِ ، إِنْ وَافَقْنَا الْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ . قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا
 ذَاكَ ؟ قَالَ الْغُرَابُ : هَذَا الْجَمَلُ آكَلَ الْعُشْبَ الْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنَا
 مِنْ غَيْرِ مَنَفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ ، وَلَا رَدِّ عَائِدَةٍ ، وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ
 مَصْلَحَةً . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذَلِكَ غَضِبَ وَقَالَ : مَا أَخْطَأَ
 رَأْيِكَ ، وَمَا أَعْجَزَ مَقَالِكَ ، وَأَبْعَدَكَ مِنَ الْوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ ! وَمَا
 كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِيَّ عَلَى بَهْدِ الْمَقَالَةِ ، وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهَذَا
 الْخِطَابِ ، مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ الْجَمَلَ ، وَجَعَلْتُ لَهُ

مِنْ ذِمَّتِي . أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ هِيَ
 أَكْثَرُ أَجْرًا مِنْ أَمْنِ نَفْسٍ خَائِفَةٍ ، وَحَقَّنَ دَمًا مُهْدَرًا ؟ وَقَدْ
 أَمَّتَهُ وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنِّي لَا أَعْرِفُ مَا يَقُولُ
 الْمَلِكُ ، وَلَكِنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ ، وَأَهْلُ
 الْبَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمُ الْقَبِيلَةُ ، وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْمِصْرِ ،
 وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَاءُ الْمَلِكِ . وَقَدْ نَزَلْتُ بِالْمَلِكِ الْحَاجَّةُ ، وَأَنَا
 أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجًا ، عَلَى أَنِّي لَا يَتَكَلَّفُ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وَلَا
 يَلِيهِ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَأْمُرُ بِهِ أَحَدًا ، وَلَكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلَهُ
 فِيهَا إِصْلَاحٌ وَظَفَرٌ . فَسَكَتَ الْأَسَدُ عَنْ جَوَابِ الْغُرَابِ عَنْ هَذَا
 الْخِطَابِ . فَلَمَّا عَرَفَ الْغُرَابُ إِقْرَارَ الْأَسَدِ أَتَى أَصْحَابَهُ ،
 فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ كَلَّمْتُ الْأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الْجَمَلِ ، عَلَى أَنِّي نَجْتَمِعُ نَحْنُ
 وَالْجَمَلُ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَنَذْكُرُ مَا أَصَابَهُ ، وَنَتَوَجَّعُ لَهُ اهْتِمَامًا مِنَّا
 بِأَمْرِهِ ، وَخِرْصًا عَلَى صِلَاحِهِ ، وَيَعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ
 عَلَيْهِ تَجْمُلًا لِيَأْكُلَهُ ، فَيَرُدُّ الْأَخْرَانِ عَلَيْهِ ، وَيُسْفِهَانِ رَأْيَهُ ،
 وَيُبَيِّنَانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ . فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ، سَلِينَا كُلُّنَا وَرَضِي

الْأَسَدُ عَنَّا . فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْأَسَدِ ؛ فَقَالَ الْغُرَابُ :
 قَدْ احْتَجَجْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَى مَا يُقْوِيكَ ؛ وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ
 أَنْفُسَنَا لَكَ : فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ ؛ فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا
 بَقَاءٌ بَعْدَكَ ، وَلَا لَنَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ خَيْرٍ ؛ فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ :
 فَقَدْ طَبْتُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَأَجَابَهُ الذِّئْبُ وَأَبْنُ آوَى أَنْ أَسْكُتَ ؛
 فَلَا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ ؛ وَلَيْسَ فِيكَ شَيْعٌ . قَالَ ابْنُ آوَى
 لَكِنْ أَنَا أَشْبَعُ الْمَلِكَ ، فَلْيَأْكُلْنِي : فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ ،
 وَطَبْتُ عَنْهُ نَفْسًا . فَرَدَّ عَلَيْهِ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ بِقَوْلِهِمَا : إِنَّكَ
 لَمُنْتَنٍ قَدِيرٌ . قَالَ الذِّئْبُ : إِنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ ،
 فَقَدْ سَمَحْتُ بِذَلِكَ ، وَطَبْتُ عَنْهُ نَفْسًا ؛ فَاعْتَرَضَهُ الْغُرَابُ وَأَبْنُ
 آوَى وَقَالَا : قَدْ قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ
 لَحْمَ ذئْبٍ . فَظَنَّ الْجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْأَكْلِ ،
 التَّمَسُّوْا لَهُ عُذْرًا كَمَا التَّمَسُّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْأَعْدَارَ ، فَيَسْلَمُ
 وَيَرْضَى الْأَسَدُ عَنْهُ بِذَلِكَ ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَهَالِكِ . فَقَالَ :
 لَكِنْ أَنَا فِي الْمَلِكِ شَيْعٌ وَرَى ؛ وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ ، وَبَطْنِي

نَظِيفٌ ، فَلْيَا كُنِّي الْمَلِكُ ، وَيُطْعِمُ أَصْحَابَهُ وَخَدَمَهُ : فَقَدْ رَضِيتُ
بِذَلِكَ ، وَطَابَتْ نَفْسِي عَنْهُ ، وَسَمَحْتُ بِهِ . فَقَالَ الذِّبُّ
وَالْغُرَابُ وَأَبْنُ آوَى : لَقَدْ صَدَقَ الْجَمَلُ وَكَرَّمَ ، وَقَالَ مَا عُرِفَ .
ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَقُوهُ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَسَدِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى هَلَاكِ فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتَنِعَ مِنْهُمْ ،
وَلَا أُحْتَرِسَ ، وَإِنْ كَانَ رَأَى الْأَسَدُ لِي عَلَى غَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ
فِي ، فَلَا يَنْفَعُنِي ذَلِكَ ، وَلَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا . وَقَدْ يُقَالُ : خَيْرُ
السَّلَاطِينِ مَنْ عَدَلَ فِي النَّاسِ . وَلَوْ أَنَّ الْأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ
لِي إِلَّا الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ ، لَغَيَّرْتُهُ كَثْرَةُ الْأَقَاوِيلِ : فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ
لَمْ تَلْبَثْ دُونَ أَنْ تُذْهِبَ الرِّقَّةَ وَالرَّافَةَ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ
كَالْقَوِ ، وَأَنَّ الْحَجَرَ أَشَدُّ مِنَ الْإِنْسَانِ ؟ فَالْمَاءُ إِذَا دَامَ
انْحِدَارُهُ عَلَى الْحَجَرِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى يَثْقُبَهُ وَيُوَثِّرَ فِيهِ . وَكَذَلِكَ
الْقَوْلُ فِي الْإِنْسَانِ . قَالَ دِمْنَةُ : فَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ الْآنَ ؟
قَالَ شَرَبَةُ : مَا أَرَى إِلَّا الْجَهَادَ وَالْمُجَاهَدَةَ بِالْقِتَالِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ

لِلْمُصَلِّي فِي صَلَاتِهِ ، وَلَا لِلْمُتَصَدِّقِ فِي صَدَقَتِهِ ، وَلَا لِلْوَرَعِ
 فِي وَرَعِهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ ، إِذَا كَانَتْ مُجَاهَدَتُهُ
 عَلَى الْحَقِّ . قَالَ دِمْنَةُ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ
 يَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ جَاعِلُ الْقِتَالِ آخِرَ الْحِيلِ ،
 وَبَادِي قَبْلَ ذَلِكَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ رِفْقٍ وَتَمَحُّلٍ . وَقَدْ قِيلَ :
 لَا تَحْقِرَنَّ الْعَدُوَّ الضَّعِيفَ الْمُهِنَ ، وَلَا سِيبًا إِذَا كَانَ ذَا حِيلَةٍ
 وَيَقْدِرُ عَلَى الْأَعْوَانِ ، فَكَيْفَ بِالْأَسَدِ عَلَى جَرَاءَتِهِ وَشِدَّتِهِ ؟ فَإِنَّ
 مَنْ حَقَرَ عَدُوَّهُ لِضَعْفِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ وَكِيلَ الْبَحْرِ مِنْ
 الطَّيْطَوَى قَالَ شَرَبَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟^(١)

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ طَائِرًا مِنْ طُيُورِ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ الطَّيْطَوَى
 كَانَ وَطْنُهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ ، فَلَمَّا جَاءَ
 أَوَانُ تَفْرِيجِهِمَا قَالَتِ الْأُنْثَى لِلذَّكَرِ : لَوْ التَّمَسْنَا مَكَانًا حَرِيزًا
 نَفْرُخُ فِيهِ : فَإِنِّي أَخْشَى مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ إِذَا مَدَّ الْمَاءُ أَنْ
 يَذْهَبَ بِفِرَاحِنَا . فَقَالَ لَهَا : أَفْرِجِي مَكَانَكَ : فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لَنَا ،

(١) الطيطوى : ضرب من القطا .

والماء والزهر منّا قريب . قالت له : يا غافل ليحسن نظرك :
 فإني أخاف وكيّل البحر أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرحي
 مكانك : فإنه لا يفعل ذلك فقالت له : ما أشدّ تعنتك^(١) !
 أما تذكر وعيده وتهدده إياك ؟ ألا تعرف نفسك وقدرك ؟ فإني
 أن يطيعها . فلما أكرّث عليه ولم يسمع قولها ، قالت له :
 إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم
 تسمع قول البطتين . قال الذكر : وكيف كان ذلك ؟

قالت الأنثى : زعموا أن غديراً كان عنده عشب ، وكان فيه
 بطتان وكان في الغدير سلحفاة ، بينهما وبين البطتين مودة
 وصداقة . فاتفق أن غيض ذلك الماء ، فجاءت البطتان لوداع
 السلحفاة ، وقالتا : السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان
 لأجل نقصان الماء عنه . فقالت : إنما يبين نقصان الماء
 على مثلي : فإني كأني السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء .
 فأما أنتما فتقديران على العيش حيث كنتما . فاذهبا بي معكما .

(١) التعنت : إدخال المشقة .

قَالَتَا لَهَا : نَعَمْ . قَالَتْ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمَلِي ؟ قَالَتَا :
 نَأْخُذُ بِطَرْفِي عُوْدٍ ، وَتَتَعَلَّقَيْنِ بِوَسْطِهِ ، وَنَطِيرُ بِكَ فِي الْجَوِّ .
 وَإِيَّاكَ ، إِذَا سَمِعَتِ النَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ ، أَنْ تَنْطِقِي . ثُمَّ أَخَذَتَاهَا
 فَطَارَتَا بِهِمَا فِي الْجَوِّ . فَقَالَ النَّاسُ : عَجَبٌ : سُلْحَفَاةٌ بَيْنَ
 بَطَّيْنٍ ، قَدْ حَمَلَتَاهَا . فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ : فَقَا اللَّهُ أَعْيُنَكُمْ
 أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاها بِاللُّطْفِ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ
 فَمَاتَتْ . قَالَ الذَّكَرُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ، فَلَا تَخَافِي وَكِيلَ
 الْبَحْرِ . فَلَمَّا مَدَّ الْمَاءُ ذَهَبَ بِفِرَاحِهِمَا . فَقَالَتِ الْأُنْثَى :
 قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ . قَالَ الذَّكَرُ : سَوْفَ
 أَنْتَقِمُ مِنْهُ . ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فَقَالَ لَهُنَّ : إِنَّكُمْ أَخَوَاتِي
 وَثِقَاتِي : فَأَعِيتِي . قُلْنَ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ قَالَ :
 تَجْتَمِعْنَ وَتَذْهَبْنَ مَعِيَ إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ ، فَتَشْكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيتُ
 مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَقُولُ لَهُنَّ : إِنَّكُمْ طَيْرٌ مِثْلُنَا : فَأَعِيتَنَا .
 فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ : إِنَّ الْعَنْقَاءَ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا :
 فَاذْهَبِي بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصْبِحَ بِهَا ، فَتَظْهَرَ لَنَا ، فَتَشْكُو إِلَيْهَا

مَا نَالَكَ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَسَأَلَهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا .
 ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطَّيْطَوَى ، فَاسْتَعَثَّنَهَا ، وَصَحْنَ بِهَا ،
 فَتَرَاءَتْ لَهُنَّ فَأَخْبَرْنَهَا بِقِصَّتِهِنَّ ، وَسَأَلْنَهَا أَنْ تَسِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى
 مُحَارَبَةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ
 الْبَحْرِ أَنَّ الْعَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ
 مَلِكٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ . فَرَدَّ فِرَاحَ الطَّيْطَوَى ، وَصَالِحَهُ
 فَرَجَعَتِ الْعَنْقَاءُ عَنْهُ .

وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْقِتَالَ مَعَ الْأَسَدِ
 لَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا . قَالَ شَتْرَبَةُ : فَمَا أَنَا بِمُقَاتِلِ الْأَسَدِ ،
 وَلَا نَاصِبٍ لَهُ الْعَدَاوَةَ سِرًّا وَلَا عَلَانِيَةً وَلَا مُتَغَيِّرٍ لَهُ عَمَّا كُنْتُ
 عَلَيْهِ ، حَتَّى يَبْدُوَ لِي مِنْهُ مَا أَتَخَوَّفُ فَأُغَالِبُهُ . فَكَّرَهُ دِمْنَةُ قَوْلُهُ ،
 وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ إِنْ لَمْ يَرِ مِنَ الثَّوْرِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي كَانَ ذَكَرَهَا لَهُ
 أَتَمَّهُ وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ . فَقَالَ دِمْنَةُ لِشَتْرَبَةَ : اذْهَبِي إِلَى الْأَسَدِ
 فَسَتَعْرِفُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَا يُرِيدُ مِنْكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : وَكَيْفَ
 أَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : سَتَرَى الْأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ

مُقْعِيًا عَلَى ذَنْبِهِ ، رَافِعًا صَدْرَهُ إِلَيْكَ ، مَاذَا بَصَرُهُ نَحْوَكَ ، قَدْ
 صَرَازْنِيهِ ، وَفَغَرَفَاهُ ، وَاسْتَوَى لِلْوَثْبَةِ . قَالَ شَتْرَبَةُ : إِنْ رَأَيْتُ
 هَذِهِ الْعَلَامَاتِ مِنَ الْأَسَدِ عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ . ثُمَّ إِنْ دِمْنَةُ
 لَمَّا فَرَّغَ مِنْ حَمْلِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ ، وَالثَّوْرُ عَلَى الْأَسَدِ تَوَجَّهَ
 إِلَى كَلِيلَةَ . فَلَمَّا التَّقِيَا ، قَالَ كَلِيلَةُ : إِلَامَ انْتَهَى عَمَلُكَ
 الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَرِيبٌ مِنَ الْفَرَاغِ عَلَى مَا أُحِبُّ
 وَنُحِبُّ . ثُمَّ إِنْ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةُ انْطَلَقَا جَمِيعًا لِيَحْضُرَا قِتَالَ
 الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ ، وَيَنْظُرَا مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا ، وَيُعَايِنَا مَا يَثُولُ إِلَيْهِ
 أَمْرُهُمَا . وَجَاءَ شَتْرَبَةُ ، فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَرَأَاهُ مُقْعِيًا كَمَا
 وَصَفَهُ لَهُ دِمْنَةُ ، فَقَالَ : مَا صَاحِبُ السُّلْطَانِ إِلَّا كَصَاحِبِ
 الْحَيَّةِ الَّتِي فِي مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ ، فَلَا يَدْرِي مَتَى تَهْبِجُ بِهِ .
 ثُمَّ إِنْ الْأَسَدُ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرِ فَرَأَى الدُّلَالَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَهُ
 دِمْنَةُ : فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ جَاءَ لِقِتَالِهِ . فَوَاتَبَهُ ، وَنَشَأَ بَيْنَهُمَا الْحَرْبُ ،
 وَاشْتَدَّ قِتَالُ الثَّوْرِ وَالْأَسَدِ ، وَطَالَ ، وَسَالَتْ بَيْنَهُمَا الدِّمَاءُ .

فَلَمَّا رَأَى كَلِيلَةً أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مَا قَدْ بَلَغَ . قَالَ لِدِمْنَةَ :
 أَيُّهَا الْفَسَلُ مَا أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ وَأَسْوَأَ عَاقِبَتِكَ فِي تَدْبِيرِكَ ! قَالَ
 دِمْنَةُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : جُرِحَ الْأَسَدُ وَهَلَكَ الثَّورُ . وَإِنَّ
 أَنْحَرَقَ الْخُرْقَ مِنْ حَمَلٍ صَاحِبَهُ عَلَى سُوءِ الْخَلْقِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ ،
 وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَبِيلًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ يُدَبِّرُ الْأَشْيَاءَ وَيَقِيسُهَا
 قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا : فَمَآرَجًا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْهَا أَقْدَمُ عَلَيْهِ ، وَمَا خَافَ أَنْ
 يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْهَا انْخَرَفَ عَنْهُ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ . وَإِنِّي لَا أَخَافُ
 عَلَيْكَ عَاقِبَةَ بَغْيِكَ هَذَا : فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ وَلَمْ تُحْسِنِ
 الْعَمَلَ . أَيْنَ مُعَاهَدَتُكَ إِيَّايَ أَنَّكَ لَا تَضُرُّ بِالْأَسَدِ فِي تَدْبِيرِكَ ؟
 وَقَدْ قِيلَ : لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ ، وَلَا فِي الْفِقْهِ إِلَّا
 مَعَ الْوَرَعِ ، وَلَا فِي الصَّدَقَةِ إِلَّا مَعَ النِّيَّةِ ، وَلَا فِي الْمَالِ إِلَّا
 مَعَ الْجُودِ ، وَلَا فِي الصِّدْقِ إِلَّا مَعَ الْوَفَاءِ ، وَلَا فِي الْحَيَاةِ إِلَّا
 مَعَ الصُّحَّةِ ، وَلَا فِي الْأَمْنِ إِلَّا مَعَ السُّرُورِ .

(١) الفصل: الرذل الذي لامرؤة له .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَدَبَ يَذْهَبُ عَنِ الْعَاقِلِ الطَّيِّشِ ، وَيَزِيدُ الْأَخْمَقَ
طَيِّشًا ؛ كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَزِيدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظْرًا ، وَيَزِيدُ الْخُفَّاشَ
سُوءَ النَّظَرِ .

وَقَدْ أَذْكَرَنِي أَمْرُكَ شَيْئًا سَمِعْتُهُ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ السُّلْطَانَ
إِذَا كَانَ صَالِحًا ، وَوُزَرَآؤُهُ وَزَرَآءُ سُوءٍ ، مَنَعُوا خَيْرَهُ ، فَلَا يَقْدِرُ
أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْهُ . وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ الْمَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيهِ
الْتَّمَّاسِيحُ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ ، وَإِنْ كَانَ إِلَى الْمَاءِ
مُحْتَاجًا . وَأَنْتَ يَا دِمْنَةُ ارْدَتِ الْأَيُّوْمَ مِنَ الْأَسَدِ أَحَدٌ سِوَاكَ .
وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَصِحُّ وَلَا يَتِمُّ أَبَدًا . وَذَلِكَ لِلْمِثْلِ الْمَضْرُوبِ :
إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ ، وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحَابِهِ . وَمِنَ الْحَقِّ الْحَرِصِ
عَلَى التَّمَّاسِ الْإِخْوَانِ بَغَيْرِ الْوَفَاءِ لَهُمْ ، وَطَلَبِ الْآخِرَةِ بِالرِّيَاءِ ،
وَنَفْعِ النَّفْسِ بِضَرِّ الْغَيْرِ . وَمَا عِظْتِي وَتَأْدِيبِي إِيَّاكَ إِلَّا كَمَا قَالَ
الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ : لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ ، وَلَا تُعَالِجْ
تَأْدِيبَ مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعُمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ كَانُوا سُكَّانًا فِي جَبَلٍ ،
 فَالْتَمَسُوا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَّاحٍ وَأَمْطَارٍ نَارًا ، فَلَمْ يَجِدُوا ،
 فَرَأَوْا يِرَاعَةً ^(١) تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ نَارٍ ، فَظَنُّوْهَا نَارًا ، وَجَمَعُوا حَطَبًا
 كَثِيرًا فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا ، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ طَمَعًا أَنَّ يُوقِدُوا نَارًا
 يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ ، يَنْظُرُونَ ^(٢)
 إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ :
 لَا تَتَّبِعُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنَارٍ . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ
 عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْبَهِهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَعَرَفَ
 مَا عَزَمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ : لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ :
 فَإِنَّ الْحَجَرَ الْمَانِعَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ لَا تُجْرِبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ ،
 وَالْعُودَ الَّذِي لَا يَنْخَنِي لَا يُعْمَلُ مِنْهُ الْقَوْسُ : فَلَا تَتَّعِبْ . فَأَبَى
 الطَّائِرُ أَنْ يُطِيعَهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ الْيِرَاعَةَ لَيْسَتْ
 بِنَارٍ . فَتَنَاوَلَهُ بَعْضُ الْقِرَدَةِ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَاتَ . فَهَذَا

(١) اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار . (٢) يستدفئون . (٣) الصَّلد .

مَثَلِي مَعَكَ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخُبُّ^(١) وَالْفُجُورُ ، وَهُمَا
خَلَّتَا سُوءٌ ، وَالْخُبُّ شَرُّهُمَا عَاقِبَةٌ . وَلِهَذَا مَثَلٌ . قَالَ دَمْنَةُ :
وَمَا ذَلِكَ الْمَثَلُ ؟

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ خُبًّا وَمُغْفَلًا اشْتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَافَرَا ،
فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الطَّرِيقِ ، إِذْ تَخَلَّفَ الْمُغْفَلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ ،
فَوَجَدَ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ ، فَأَخَذَهُ ، فَأَحْسَنَ بِهِ الْخُبُّ ،
فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِمَا ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعَدَا لِاقْتِسَامِ
الْمَالِ . فَقَالَ الْمُغْفَلُ : خُذْ نِصْفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ ، وَكَانَ
الْخُبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَلْفِ جَمِيعِهِ . فَقَالَ لَهُ :
لَا نَقْتَسِمُ ، فَإِنَّ الشَّرِيكَةَ وَالْمُفَاوِضَةَ أَقْرَبُ إِلَى الصِّفَاءِ وَالْمُخَالَطَةِ ،
وَلَكِنْ أَخَذْ نَفَقَةً ، وَتَأْخُذْ مِثْلَهَا ، وَتَدْفِنُ الْبَاقِي فِي أَصْلِ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ : فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيرٌ . فَإِذَا احْتَجَجْنَا جِئْنَا أَنَا وَأَنْتَ فَنَأْخُذُ
حَاجَتَنَا مِنْهُ ، وَلَا يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ . فَأَخَذَا مِنْهُ يُسِيرًا ، وَدَفَنَا

(١) الْخُدَاعُ . (٢) الْخُبُّ : الْمَقْسِدُ الْخُدَاعُ اللَّئِيمُ .

(١) الْبَاقِي فِي أَصْلِ دَوْحَةٍ ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ . ثُمَّ إِنَّ الْخُبَّ خَالَفَ
 الْمُغْفَلَ إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا ، وَسَوَّى الْأَرْضَ كَمَا كَانَتْ .
 وَجَاءَ الْمُغْفَلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهَرٍ فَقَالَ لِلْخُبِّ : قَدْ اخْتَجْتُ إِلَى
 نَفْقَةٍ فَانْطَلِقْ بِنَا نَأْخُذْ حَاجَتَنَا ، فَقَامَ الْخُبُّ مَعَهُ وَذَهَبَا
 إِلَى الْمَكَانِ فَحَفَرَا ، فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا . فَأَقْبَلَ الْخُبُّ عَلَى وَجْهِهِ
 يَلْطِمُهُ يَقُولُ : لَا تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صَاحِبٍ : خَالَفْتَنِي إِلَى الدَّنَانِيرِ
 فَأَخَذْتَهَا . فَجَعَلَ الْمُغْفَلُ يَخْلِفُ وَيَلْعَنُ آخِذَهَا وَلَا يَزْدَادُ
 الْخُبُّ إِلَّا شِدَّةً فِي اللَّطَمِ . وَقَالَ : مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ . وَهَلْ
 شَعَرْتَهَا أَحَدٌ سِوَاكَ ؟ ثُمَّ طَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمَا ، فَتَرَافَعَا
 إِلَى الْقَاضِي ، فَاقْتَصَّ الْقَاضِي قِصَّتَهُمَا ، فَادَّعَى الْخُبُّ
 أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا ، وَجَحَدَ الْمُغْفَلُ . فَقَالَ لِلْخُبِّ : أَلَاكَ عَلَى
 دَعْوَاكَ بَيْنَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتْ الدَّنَانِيرُ عِنْدَهَا
 تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا . وَكَانَ الْخُبُّ قَدِ امْرَأً أَبَاهُ أَنْ يَذْهَبَ
 فَيَتَوَارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلَتْ أَجَابَ . فَذَهَبَ أَبُو الْخُبِّ

فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ . ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ
 الْخُبِّ أَكْبَرَهُ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْخُبُّ وَالْمُغْفَلُ مَعَهُ ، حَتَّى
 وَافَى الشَّجَرَةَ ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْخَبْرِ . فَقَالَ الشَّيْخُ مِنْ جَوْفِهَا :
 نَعَمْ الْمُغْفَلُ أَخَذَهَا . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِيَ ذَلِكَ اشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ .
 فَدَعَا بِحَطِيبٍ وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةُ . فَأُضْرِمَتْ حَوْلَهَا النَّيرانُ
 فَاسْتَغَاثَ أَبُو الْخُبِّ عِنْدَ ذَلِكَ . فَأُخْرِجَ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى
 الْهَلَاكِ . فَسَأَلَهُ الْقَاضِيَ عَنِ الْقِصَّةِ فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبْرِ ، فَأَوْقَعَ
 بِالْخُبِّ ضَرْبًا ، وَبِأَيْدِيهِ صَفْعًا ، وَأَرْكَبُهُ مَشْهُورًا ^(١) ، وَغَرَّمَ الْخُبُّ
 الدَّنَانِيرَ ، فَأَخَذَهَا وَأَعْطَاهَا الْمُغْفَلَ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْخُبَّ وَالْخَدِيعَةَ رُبَّمَا
 كَانَ صَاحِبَهُمَا هُوَ الْمَغْبُونُ . وَإِنَّكَ يَا دِمْنَةُ جَامِعٌ لِلْخُبِّ وَالْخَدِيعَةِ
 وَالْفُجُورِ . وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ ، مَعَ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَاجٍ
 مِنَ الْعُقُوبَةِ : لِأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلِسَانَيْنِ . وَإِنَّمَا عَذُوبَةُ مَاءِ
 الْأَنْهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْبَحَارِ . وَصَلَّاحُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ

(١) شهره كشَّره أظهره في شُتَّة .

الْمُفْسِدُ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الْحَيَّةِ ذَاتِ اللِّسَانَيْنِ الَّتِي
 فِيهَا السُّمُّ : فَإِنَّهُ قَدْ يَجْرِي مِنْ لِسَانِكَ كَسِمِّهَا . وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ
 لِدَلِّكَ السُّمَّ مِنْ لِسَانِكَ خَائِفًا ، وَلِمَا يَحِلُّ بِكَ مُتَوَقِّعًا ،
 وَالْمُفْسِدُ بَيْنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ كَالْحَيَّةِ يُرَبِّيهَا الرَّجُلُ وَيُطْعِمُهَا
 وَيُمَسِّحُهَا وَيُكْرِمُهَا ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّذِغِ . وَقَدْ
 يُقَالُ : أَلَزِمَ ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْكَرَمِ ، وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِمَا ، وَإِيَّاكَ
 وَمُفَارَقَتُهُمَا ، وَأَصْحَبِ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا أَوْ عَاقِلًا
 غَيْرَ كَرِيمٍ : فَالْعَاقِلُ الْكَرِيمُ كَامِلٌ ، وَالْعَاقِلُ غَيْرُ الْكَرِيمِ أَصْحَبُهُ ،
 وَإِنْ كَانَ غَيْرَ تَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ ، وَاحْذَرِ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِ وَانْتَفِعْ
 بِعَقْلِهِ ، وَالْكَرِيمُ غَيْرُ الْعَاقِلِ ، أَلَزِمَهُ وَلَا تَدْعُ مُوَاصَلَتَهُ ، وَإِنْ
 كُنْتَ لَا تَتَّحِدُ عَقْلَهُ ، وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ ، وَانْفَعَهُ بِعَقْلِكَ ، وَالْفِرَارُ
 كُلُّ الْفِرَارِ مِنَ اللَّثِيمِ الْأَحْمَقِ . وَإِنِّي بِالْفِرَارِ مِنْكَ بَلَدِيرٌ .
 وَكَيْفَ يَرْجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَمًا وَوَدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمَلِكِكَ
 الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ ؟ وَإِنْ مَثَلَكَ مِثْلُ النَّاجِرِ الَّذِي

قَالَ : إِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانَهَا مِائَةً مِنْ حديدًا ، لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى بُزَاتِهَا أَنْ تَخْتَطِفَ الْأَفْيَالَ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضٍ كَذَا تَاجِرٌ ، فَأَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ لِابْتِغَاءِ الرِّزْقِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِائَةٌ مِنْ حديدًا ، فَأَوْدَعَهَا رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِهِ ، وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ . ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمِدَّةٍ ، فَجَاءَ وَالْتَمَسَ الْحَدِيدَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ أَكَلَتْهُ الْجِرْدَانُ . فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيدِ . فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَصَدِيقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَأَدْعَى . ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ خَرَجَ ، فَلَقِيَ أَبْنَاءَ لِلرَّجُلِ ، فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِأَبْنِي ؟ فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ : إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالْأَمْسِ ، رَأَيْتُ بَازِيًا قَدْ اخْتَطَفَ صَبِيًّا ، وَلَعَلَّهُ أَبْنُكَ . فَلَطَمَ الرَّجُلُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ : يَا قَوْمَ هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْبُزَاةَ تَخْتَطِفُ الصُّبْيَانَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . وَإِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانَهَا مِائَةً مِنْ حديدًا لَيْسَ

(١) من نوع الفيران مفردة جُرْدَ . (٢) المُنْ : رطلان .

بَعَجِبَ أَنْ تَحْتَطِفَ بُرَاتَهَا الْفَيْلَةَ . قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَنَا أَكَلْتُ
 حَلِيدَكَ وَهَذَا ثَمَنُهُ . فَارْدُدْ عَلَى ابْنِي . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ
 هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا غَدَرْتَ بِصَاحِبِكَ فَلَا شَكَ أَنَّكَ
 بِمَنْ سِوَاهُ أَغْدُرُ ، وَأَنَّهُ إِذَا صَاحَبَ أَحَدٌ صَاحِبًا وَغَدَرَ بِمَنْ
 سِوَاهُ فَقَدْ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ : فَلَا شَيْءَ
 أَضْيَعُ مِنْ مَوَدَّةٍ تُنَمَحُ مَنْ لَا وِفَاءَ لَهُ ، وَحِبَاءٍ يُصْطَنَعُ عِنْدَ مَنْ
 لَا شُكْرَ لَهُ ، وَآدِبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلَا يَسْمَعُهُ ،
 وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لَا يَحْفَظُهُ ، فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَخْيَارِ تُورِثُ الْخَيْرَ ،
 وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ : كَالرَّيْحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطَّيْبِ حَمَلَتْ
 طِيبًا ، وَإِذَا مَرَّتْ بِالْتَّنِ حَمَلَتْ نَتْنًا ، وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلَامِي عَلَيْكَ .

فَانْتَهَى كَلِيلَةُ مِنْ كَلَامِهِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ وَقَدْ فَرَغَ
 الْأَسَدُ مِنَ الثَّوْرِ . ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ وَذَهَبَ عَنْهُ
 الْغَضَبُ . وَقَالَ : لَقَدْ بَخَعَنِي شَتْرَبَةُ بِنَفْسِهِ ، وَقَدْ كَانَ ذَا
 عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ ، وَلَا أَذْرِي لَعَلَّهُ كَانَ بَرِيئًا أَوْ مَكْذُوبًا
 عَلَيْهِ ، فَخَزَنَ وَنَدَّمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ،

وَبَصْرِيهِ دِمْنَةً ، فَتَرَكَ مُحَاوَرَةَ كَلِيلَةَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسَدِ .
فَقَالَ لَهُ : لِيَهْنُتَكَ الظَّفَرُ إِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَكَ . فَمَاذَا
يُحْزِنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟ قَالَ : أَنَا حَزِينٌ عَلَى عَقْلِ شَتْرَبَةٍ وَرَأْيِهِ
وَأَدْبِهِ ؟ قَالَ لَهُ دِمْنَةٌ : لَا تَرَحَّمْهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ
لَا يَرْحَمُ مَنْ يَخَافُهُ . وَإِنَّ الرَّجُلَ الْحَازِمَ رُبَّمَا أَبْغَضَ الرَّجُلَ
وَكَرِهَهُ ، ثُمَّ قَرِبَهُ وَادْنَاهُ : لِمَا يَعْلَمُ عِنْدَهُ مِنَ الْغِنَاءِ وَالْكِفَايَةِ ،
فِعَلَ الرَّجُلِ الْمُتَكَارِهِ عَلَى الدَّوَاءِ الشَّنِيعِ رَجَاءً مَنَفَعَتِهِ . وَرُبَّمَا
أَحَبَّ الرَّجُلُ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ ، فَاقْصَاهُ وَأَهْلَكَهُ ، مَخَافَةَ ضَرَرِهِ ،
كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الْحَيَّةُ فِي إِصْبَعِهِ فَيَقْطَعُهَا ، وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ
يَسْرِى سُمُّهَا إِلَى بَدَنِهِ . فَفَرَضَى الْأَسَدُ بِقَوْلِ دِمْنَةٍ . ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ
ذَلِكَ بِكَذِبِهِ وَغَدْرِهِ وَبُخُورِهِ فَقَتَلَهُ شَرِّ قَتْلَةٍ (انتهى باب الأسد والثور)

بَابُ الْفَحِصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةٍ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ : قَدْ حَدَّثْتَنِي عَنِ الْوَاشِيِ الْمَاهِرِ الْمُحْتَالِ ، كَيْفَ يُفْسِدُ بِالنَّمِيمَةِ الْمَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَايِينَ .

فَحَدَّثْتَنِي حِينَئِذٍ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ دِمْنَةٍ وَمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ بَعْدَ قَتْلِ شَرَبَةٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ رَاجَعَ الْأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ ، وَتَحَقَّقَ النَّمِيمَةُ مِنْ دِمْنَةٍ ، وَمَا كَانَتْ حُجَّتُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا ، قَالَ الْفِيلَسُوفُ : أَنَا وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ دِمْنَةٍ أَنَّ الْأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَرَبَةً نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ ، وَذَكَرَ قَدِيمَ صُحْبَتِهِ وَجَسِيمَ خِدْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ . وَأَخَصَّصَهُمْ مَنَزِلَةً لَدَيْهِ ، وَأَقْرَبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ يُوَاصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ دُونَ خَوَاصِهِ . وَكَانَ مِنْ أَخَصِّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ النَّمِرُ .

فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى النَّمِرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مَنَزِلَهُ ، فَاجْتَاَزَ عَلَى مَنَزِلِ كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ .

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ ، سَمِعَ كَلِيلَةً يُعَاتِبُ دِمْنَةً عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ،

وَيَلُومُهُ عَلَى النَّمِيمَةِ وَاسْتِعْمَالِهَا ، خُصُوصًا مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ
 فِي حَقِّ الْخَاصَّةِ . وَعَرَفَ النَّمِرُ عَصِيَانَ دِمْنَةَ وَتَرَكَ الْقَبُولَ لَهُ .
 فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا فَكَانَ فِيهَا قَالَ كَلِيلَةُ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ
 أَرْتَكَبْتَ مَرَكَبًا صَعْبًا ، وَدَخَلْتَ مَذْخَلًا ضَيِّقًا ، وَجَنَيْتَ عَلَى
 نَفْسِكَ جُنَايَةً مُوبِقَةً ، وَعَاقِبَتُهَا وَخِيمَةٌ ، وَسَوْفَ يَكُونُ
 مَصْرَعُكَ شَدِيدًا ، إِذَا أَنْكَشَفَ لِلْأَسَدِ أَمْرُكَ ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ ،
 وَعَرَفَ غَدْرَكَ وَمِحَالَكَ^(١) ، وَبَقِيتَ لَا نَاصِرَ لَكَ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ
 الْهَوَانُ وَالْقَتْلُ ، مَخَافَةَ شَرِّكَ ، وَحَذَرًا مِنْ غَوَائِلِكَ ، فَلَسْتُ
 بِمُتَّخِذِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلًا ، وَلَا مُفَشِّ إِلَيْكَ سِرًّا ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ
 قَدْ قَالُوا : تَبَاعَدَ عَمَّنْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ . وَأَنَا جَدِيرٌ بِمُبَاعَدَتِكَ ،
 وَالتَّمَّاسِ الْخَلَاصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .
 فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ هَذَا مِنْ كَلَامِهِمَا قَفَلَ رَاجِعًا ، فَدَخَلَ عَلَى
 أُمِّ الْأَسَدِ ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ أَنَّهَا لَا تُفْشِي مَا يُسِرُّ
 إِلَيْهَا ، فَعَاهَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ فَأَخْبَرَهَا بِمَا سَمِعَ مِنْ كَلَامِ

(١) كيدك واحتيالك .

كَلِيلَةُ وَدَمْنَةُ . فَلَمَّا أَصْبَحَتْ دَخَلَتْ عَلَى الْأَسَدِ ، فَوَجَدَتْهُ كَثِيبًا
 حَزِينًا مَهْمُومًا : لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ شَرَبَةٍ . فَقَالَتْ لَهُ :
 مَا هَذَا الِّهِمُّ الَّذِي قَدْ أَخَذَ مِنْكَ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : يُحْزِنُنِي
 قَتْلُ شَرَبَةٍ ؛ إِذْ تَذَكَّرْتُ صُحْبَتَهُ وَمُوَاطَّئَتَهُ عَلَيَّ خِدْمَتِي ، وَمَا
 كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ نَصِيحَتِهِ ، وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ مِنْ مُشَاوَرَتِهِ ، وَأَقْبِلُ
 مِنْ مَنَاصِحَتِهِ . قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : إِنَّ أَشَدَّ مَا شَهِدَ أَمْرُؤُ عَلَى
 نَفْسِهِ ، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ ، كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى قَتْلِ الثَّوْرِ بِلَا
 عِلْمٍ وَلَا يَقِينٍ ؟ وَلَوْلَا مَا قَالَتِ الْعُلَمَاءُ فِي إِذَاعَةِ الْأَسْرَارِ ،
 وَمَا فِيهَا مِنْ الْإِثْمِ وَالشَّنَارِ^(١) ، لَذَكَّرْتُ لَكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا
 عَلِمْتُ . قَالَ الْأَسَدُ : إِنَّ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ هَا وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ ،
 وَمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ . وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ صَوَابَ مَا تَقُولِينَ : وَإِنْ كَانَ
 عِنْدَكَ رَأْيٌ فَلَا تَطْوِيهِ عَنِّي ؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَسْرَّ إِلَيْكَ أَحَدٌ سِرًّا
 فَأَخْبِرْنِي بِهِ ، وَأُطْلِعْنِي عَلَيْهِ ، وَعَلَى جُمْلَةِ الْأَمْرِ . فَأَخْبَرَتْهُ
 بِجَمِيعِ مَا أَلْقَاهُ إِلَيْهَا النَّمْرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ . وَقَالَتْ :

(١) الشنار : أفتح العيب والعار .

إِنِّي لَمْ أَجْهَلْ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْظِيمِ الْعُقُوبَةِ وَتَشْدِيدِهَا ،
وَمَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ الْعَارِ فِي إِذَاعَةِ الْأَسْرَارِ ؛ وَلَكِنِّي
أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَكَ ؛ وَإِنْ وَصَلَ خَطْوُهُ
وَضَرَرَهُ إِلَى الْعَامَّةِ فَاِضْرَارُهُمْ عَلَى خِيَانَةِ الْمَلِكِ مِمَّا لَا يَدْفَعُ
الشَّرَّ عَنْهُمْ ، وَبِهِ يَحْتَجُّ السُّفَهَاءُ ، وَيَسْتَحْسِنُونَ مَا يَكُونُ مِنْ
أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ . وَأَشَدُّ مَعَارِهِمْ ^(١) إِقْدَامُهُمْ عَلَى ذِي الْحَزْمِ .
فَلَمَّا قَضَتْ أُمُّ الْأَسَدِ هَذَا الْكَلَامَ ، اسْتَدْعَى أَصْحَابَهُ وَجُنْدَهُ
فَادْخَلُوا عَلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةٍ . فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ
الْأَسَدِ ، وَرَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ ، أَلْتَفَتَ إِلَى بَعْضِ
الْحَاضِرِينَ فَقَالَ : مَا الَّذِي حَدَثَ ؟ وَمَا الَّذِي أَحْزَنَ الْمَلِكَ ؟
فَالْتَفَتَتْ أُمُّ الْأَسَدِ إِلَيْهِ وَقَالَتْ : قَدْ أَحْزَنَ الْمَلِكُ بِقَاوُكَ وَلَوْ
طَرَفَةً عَيْنٍ ؛ وَلَكِنْ يَدْعُكَ بَعْدَ الْيَوْمِ حَيًّا ! قَالَ دِمْنَةُ : مَا تَرَكَ
الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ شَيْئًا : لِأَنَّهُ يُقَالُ : أَشَدُّ النَّاسِ فِي تَوَقُّي الشَّرِّ ،
يُصِيبُهُ الشَّرُّ قَبْلَ الْمُسْتَسْلِمِ لَهُ . فَلَا يَكُونَنَّ الْمَلِكُ وَخَاصَّتَهُ

(١) المعار : جمع معرة وهي الإثم والخيانة والأذى .

وَجُنُودُهُ الْمِثْلَ السُّوءِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ : مَنْ صَحِبَ
الْأَشْرَارَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ ، كَانَ أَذَاهُ مِنْ نَفْسِهِ : وَلِذَلِكَ
انْقَطَعَتِ النِّسَاكُ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الْخَلْقِ ، وَاخْتَارَتِ الْوَحْدَةَ
عَلَى الْمُخَالَطَةِ ، وَحُبَّ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .
وَمَنْ يَجْزِي بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَبِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا إِلَّا اللَّهُ ؟ وَمَنْ
طَلَبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْخَيْرِ مِنَ النَّاسِ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَحْطَى
بِالْحَرَمَانِ ، إِذْ يُحِطُّ الصَّوَابُ فِي خُلُوصِ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى
وَطَلَبِ الْجَزَاءِ مِنَ النَّاسِ . وَإِنَّ أَحَقَّ مَا رَغِبْتَ فِيهِ رِعْيَةُ
الْمَلِكِ هُوَ مُحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ وَمَوَاقِعُ الصَّوَابِ وَبَجَمِيلِ السَّيْرِ ،
وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : مَنْ صَدَّقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكْذَبَ ، وَكَذَّبَ
مَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَدَّقَ ، نَخَرَجَ مِنْ مَصَافِّ الْعُقَلَاءِ ، وَكَانَ جَدِيرًا
بِالْإِزْدِرَاءِ . فَيَنْبَغِي أَلَّا يُعَجَّلَ الْمَلِكُ فِي أَمْرِ بِشْهَةٍ . وَلَسْتُ
أَقُولُ هَذَا كَرَاهَةً لِلْمَوْتِ : فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَرِيهًا ، لَا مَنَاجَى مِنْهُ .
وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ . وَلَوْ كَانَتْ لِي مِائَةُ نَفْسٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ
فِي إِتْلَافِهِنَّ ، لَطَبْتُ لَهُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَقَالَ بَعْضُ الْجُنُودِ :

لَمْ يَنْطِقْ بِهَذَا لِحُبِّهِ الْمَلِكَ ، وَلَكِنْ لِحَلَاصِ نَفْسِهِ ، وَالتَّمَاسِ
 الْعُذْرِ لَهَا . فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ : وَيْلَكَ ! وَهَلْ عَلَى فِي التَّمَاسِ الْعُذْرُ
 لِنَفْسِي عَيْبٌ ؟ وَهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ ؟
 وَإِذَا لَمْ يَلْتَمِسْ لَهَا الْعُذْرَ ، فَلِمَنْ يَلْتَمِسُهُ ؟ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ
 مَا لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ كِتْمَانَهُ مِنْ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ ؛ وَلَقَدْ عَرَفَ
 مَنْ سَمِعَ مِنْكَ ذَلِكَ أَنَّكَ لَا تُحِبُّ لِأَحَدٍ خَيْرًا ؛ وَأَنَّكَ عَدُوٌّ
 نَفْسِكَ ، فَمَنْ سِوَاهَا بِالْأُولَى . فَمِثْلُكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ
 الْبَهَائِمِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَلِكِ ، وَأَنْ يَكُونَ بِبَابِهِ .
 فَلَمَّا أَجَابَهُ دِمْنَةُ بِذَلِكَ ، نَحَرَ مَكْتِيبًا حَزِينًا مُسْتَحِيًّا . فَقَالَتْ
 أُمُّ الْأَسَدِ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ ، أَيُّهَا الْمُحْتَالُ ، فِي قِلَّةِ
 حَيَاتِكَ ، وَكَثْرَةِ وَقَاحَتِكَ ، وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ . قَالَ
 دِمْنَةُ : لِأَنَّكَ تَنْظُرِينَ إِلَى بَعِينٍ وَاحِدَةٍ ، وَتَسْمَعِينَ مِنِّي
 بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ ، مَعَ أَنَّ شَقَاوَةَ جَدِّي قَدْ زَوَتْ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ ،
 حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ ، وَلَقَدْ صَارَ مِنْ بَبَابِ

الْمَلِكِ لَا سِتْخَفَافِهِمْ بِهِ ، وَطُولِ كَرَامَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
 الْعَيْشِ وَالنَّعْمَةِ ، لَا يَدْرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الْكَلَامُ ،
 وَلَا مَتَى يَجِبُ عَلَيْهِمُ السُّكُوتُ . قَالَتْ : أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا
 الشَّقِيِّ ، مَعَ عِظَمِ ذَنْبِهِ ، كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ بَرِيئًا كَمَنْ
 لَا ذَنْبَ لَهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ غَيْرَ أَغْمَالِهِمْ لَيْسُوا
 عَلَى شَيْءٍ ، كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمَادَ مَوْضِعًا يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيهِ
 الرَّمْلَ ، وَيَسْتَعْمِلُ فِيهِ السُّرَجِينَ^(١) ، وَالرَّجُلُ الَّذِي يَلْبَسُ
 لِبَاسَ الْمَرْأَةِ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْبَسُ لِبَاسَ الرَّجُلِ ، وَالضَّيْفُ الَّذِي
 يَقُولُ : أَنَا رَبُّ الْبَيْتِ ، وَالَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ بِمَا لَا يُسْأَلُ
 عَنْهُ . وَإِنَّمَا الشَّقِيُّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ وَلَا أَحْوَالَ النَّاسِ
 وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ . قَالَتْ
 أُمُّ الْأَسَدِ : أَتُظَنُّ أَيُّهَا الْغَادِرُ الْمُحْتَالُ بِقَوْلِكَ هَذَا أَنَّكَ تَخْدَعُ
 الْمَلِكَ ، وَلَا يَسْجُنُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : الْغَادِرُ الَّذِي لَا يَأْمَنُ
 عَدُوَّهُ مَكْرَهُ ، وَإِذَا اسْتَمَكَنَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ .

(١) السرجين بكسر أوله : الزبل .

قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ ، أَتَظُنُّ أَنَّكَ نَاجٍ
 مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ ؟ وَأَنَّ مَحَالَكَ هَذَا يَنْفَعُكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ : الْكَذُوبُ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ ، وَيَأْتِي بِمَا
 لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَفْعَلْ ، وَكَلَامِي وَاضِحٌ مُبِينٌ . قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ :
 الْعُلَاءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ يُوضِّحُونَ أَمْرَهُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ .
 ثُمَّ نَهَضَتْ فَخَرَجَتْ . فَدَفَعَ الْأَسَدُ دِمْنَةَ إِلَى الْقَاضِي ، فَأَمَرَ
 الْقَاضِي بِحَبْسِهِ ، فَأُلْقِيَ فِي عُنْقِهِ حَبْلٌ ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى السُّجْنِ .
 فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَخْبَرَ كُلَيْلَةُ أَنَّ دِمْنَةَ فِي الْحَبْسِ . فَأَتَاهُ
 مُسْتَخْفِيًا ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيقِ الْقَيْودِ ، وَحَرَجِ
 الْمَكَانِ ، بَكَى ، وَقَالَ لَهُ : مَا وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلَّا
 لِاسْتِعْمَالِكَ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ ، وَإِضْرَابِكَ عَنِ الْعِظَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ
 يَكُنْ لِي بَدٌّ فِيمَا مَضَى مِنْ إِنْذَارِكَ وَالنَّصِيحَةِ لَكَ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْكَ
 فِي خُلُوصِ الرَّغْبَةِ فِيكَ : فَإِنَّهُ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ
 مَجَالٌ . وَلَوْ كُنْتُ قَصَّرْتُ فِي عِظَتِكَ حِينَ كُنْتُ فِي عَافِيَةٍ ،
 لَكُنْتُ الْيَوْمَ شَرِيكَكَ فِي ذَنْبِكَ ، غَيْرَ أَنَّ الْعُجْبَ دَخَلَ مِنْكَ

مَدْخَلًا قَهَرًا رَأَيْكَ ، وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ ؛ وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ
الْأَمْثَالَ كَثِيرًا ، وَأَذْكُرُكَ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ
الْمُحْتَئَالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ . قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ عَرَفْتُ صِدْقَ
مَقَالَتِكَ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : لَا تَجْزَعُ مِنَ الْعَذَابِ إِذَا وَقَفْتَ
مِنْكَ عَلَى خَطِيئَةٍ ؛ وَلَآنَ تُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا بِجُرْمِكَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ
تُعَذَّبَ فِي الْآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الْإِنِّمِ . قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ فَهِمْتُ
كَلَامَكَ ؛ وَلَكِنْ ذَنْبَكَ عَظِيمٌ ، وَعِقَابُ الْأَسَدِ شَدِيدٌ أَلِيمٌ .
وَكَانَ يَقْرِبُهُمَا فِي السِّجْنِ فَهُدًى مُعْتَقِلٌ^(٢) يَسْمَعُ كَلَامَهُمَا ، وَلَا
يَرِيَانَهُ ؛ فَعَرَفَ مُعَاتِبَةَ كَلِيلَةَ لِدِمْنَةٍ عَلَى سُوءِ فَعْلِهِ ، وَمَا كَانَ
مِنْهُ ؛ وَأَنَّ دِمْنَةَ مُقَرَّبُ سُوءِ عَمَلِهِ ، وَعَظِيمُ ذَنْبِهِ ؛ فَحَفِظَ الْمُحَاوَرَةَ
بَيْنَهُمَا ، وَكَتَمَهَا لِيَشْهَدَ بِهَا إِنْ سُئِلَ عَنْهَا . ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ انْصَرَفَ
إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الْأَسَدِ حِينَ أَصْبَحَتْ عَلَى الْأَسَدِ ؛
وَقَالَتْ لَهُ : يَا سَيِّدَ الْوُحُوشِ^(٣) ، حُوشَيْتَ أَنْ تَنْسَى مَا قُلْتَ
بِالْأَمْسِ ؛ وَأَنْتَ أَمَرْتَ بِهِ لِقَوْتِهِ ؛ وَأَرْضَيْتَ بِهِ رَبَّ الْعِبَادِ .

وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَانَى فِي الْجُنْدِ لِلتَّقْوَى،
بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُدَافِعَ عَنْ ذَنْبِ الْإِثْمِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ
كَلَامَ أُمِّهِ ، أَمَرَ أَنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَضَاءِ . فَلَمَّا
حَضَرَ قَالَ لَهُ وَالْجَوَّاسُ^(١) الْعَادِلُ : أَجْلَسَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ ،
وَنَادِيَا فِي الْجُنْدِ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ
دِمْنَةٍ ، وَيَجْثُوا عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَفْحَصُوا عَنْ ذَنْبِهِ ، وَيَثْبِتُوا
قَوْلَهُ وَعُذْرَهُ فِي كُتُبِ الْقَضَاءِ ، وَارْفَعَا إِلَى ذَلِكَ يَوْمًا فَيَوْمًا .
فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّمِرُ وَالْجَوَّاسُ الْعَادِلُ وَكَانَ هَذَا الْجَوَّاسُ عَمَّ
الْأَسَدِ ، قَالَا : سَمِعْنَا وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ الْمَلِكُ . وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ،
فَعَمِلَا بِمُقْتَضَى مَا أَمَرَهُمَا بِهِ ، حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي
جَلَسُوا فِيهِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ ، أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةٍ ،
فَأَتَى بِهِ ، فَأَوْقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالْجَمَاعَةُ حُضُورٌ . فَلَمَّا
اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانُ نَادَى سَيِّدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَيُّهَا الْجَمْعُ ،
إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السَّبَاعِ لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قُتِلَ شَتْرَبَةُ خَائِرَ^(٢)

النفس، كثير الهم والحزن، يرى أنه قد قتل شريرة بغير ذنب،
وأنه أخذه بالكذب دمنة ونميمة. وهذا القاضي قد أمر أن
يجلس مجلس القضاء، ويبحث عن شأن دمنة. فمن علم منكم
شيئاً في أمر دمنة من خير أو شر، فليقل ذلك، وليتكلم به
على رؤوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء في أمره بحسب
ذلك، فإذا استوجب القتل فالتثبت في أمره أولى، والعجلة
من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل. فعندها قال
القاضي: أيها الجمع أسمعوا قول سيديكم، ولا تكتموا ما عرفتم
من أمره، وأحذروا في السر عليه ثلاث خصال: إحداهن،
وهي أفضلهن، ألا تزدروا فعله، ولا تعدوه يسيراً: فمن
أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة،
ومن علم من أمر هذا الكذاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميمته
شيئاً، فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة. والثانية إذا
اعترف المذنب بذنبه، كان أسلم له، وأخرى بالملك وجنده
أن يعفوا عنه ويصفحوا. والثالثة ترك مراعاة أهل الدم

وَالْفُجُورِ ، وَقَطَعَ أَسْبَابَ مُوَاصَلَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الْخَاصَّةِ
وَالْعَامَّةِ ؛ فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْمُحْتَالَ شَيْئًا ، فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى
رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مِمَّنْ حَضَرَ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ
قِيلَ : إِنَّهُ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةَ مَيِّتٍ ، أُجِزَ بِإِلْجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ؛ فَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا عَلِمَ . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ
الْجَمْعُ كَلَامَهُ ، أَمْسَكُوا عَنِ الْقَوْلِ . فَقَالَ دِمْنَةُ : مَا يُسْكِنُكُمْ ؟
تَكَلَّمُوا بِمَا عَلِمْتُمْ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوَابًا . وَقَدْ قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ : مَنْ يَشْهَدُ بِمَا لَمْ يَرَ ، وَيَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ ، أَصَابَهُ
مَا أَصَابَ الطَّيِّبَ الَّذِي قَالَ لِمَا لَا يَعْلَمُهُ : إِنِّي أَعْلَمُهُ . قَالَتْ
الْجَمَاعَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ طَيِّبٌ لَهُ رَفْقٌ
وَعِلْمٌ ، وَكَانَ ذَا فِطْنَةٍ فِيمَا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعَاجَلَاتِ ؛ فَكَبِرَ
ذَلِكَ الطَّيِّبُ وَضَعُفَ بَصَرُهُ . وَكَانَ لِمَلِكِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ ابْنَةٌ قَدْ
زَوَّجَهَا لِابْنِ أَخِي لَهُ ؛ فَعَرَّضَ لَهَا مَا يَعْزِضُ لِلْحَوَامِلِ مِنْ

الأوجاع . فجىء بهذا الطبيب ؛ فلما حضر ، سأل الجارية
عن وجعها وما تجد ، فأخبرته ، فعرف داءها ودواءها ؛ وقال :
لو كنت أبصر ، لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها ؛ ولا
أثق في ذلك بأحد غيري . وكان في المدينة رجل سفيه ،
فبلغه الخبر ، فأتاهم وأدعى علم الطب ، وأعلمهم أنه خير
بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير^(١) ، عارف بطبائع الأدوية
المركبة والمفردة ؛ فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ
من أخلاط الدواء حاجته ؛ فلما دخل السفيه الخزانة ،
وعرضت عليه الأدوية ، ولا يدرى ما هي ، ولا له بها
معرفة ، أخذ في جملة ما أخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته ،
وخلطه في الأدوية ، ولا علم له به ، ولا معرفة عنده بجنسه .
فلما تمت أخلاط الأدوية ، سقى الجارية منه ، فماتت لوقتها .
فلما عرف الملك ذلك ، دعا بالسفيه ، فسقاه من ذلك الدواء ،
فمات من ساعته . وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا

(١) مفردة عقار .

مَا يَدْخُلُ عَلَى الْقَائِلِ وَالْعَامِلِ مِنَ الزَّلَّةِ بِالشُّبْهَةِ فِي الْخُرُوجِ
عَنِ الْحَدِّ ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ
الْجَاهِلَ ، وَنَفْسُهُ الْمَلُومَةُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : رَبَّمَا جُرِيَ
الْمُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ . وَالْكَلَامُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ : فَانْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ .

فَتَكَلَّمَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ ، لِإِدْلَالِهِ وَتِيهِهِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ ،
فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّرَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، أَسْمَعُوا مَقَالَتِي ، وَعُودُوا
بِأَحْلَامِكُمْ كَلَامِي ، فَالْعُلَمَاءُ قَالُوا فِي شَأْنِ الصَّالِحِينَ : إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ
بِسَيِّئِهِمْ ، وَأَنْتُمْ ، مَعَاشِرَ ذَوِي الْإِقْتِدَارِ ، بِحُسْنِ صُنْعِ اللَّهِ لَكُمْ ،
وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ لَدَيْكُمْ ، تَعْرِفُونَ الصَّالِحِينَ بِسَيِّئِهِمْ وَصُورِهِمْ ،
وَتُخْبِرُونَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ بِالشَّيْءِ الصَّغِيرِ ، وَهَذَا هُنَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ
تَدُلُّ عَلَى هَذَا الشَّقِيِّ دِمْنَةً ، وَتُخْبِرُ عَنْ شَرِّهِ ، فَاطْلُبُوهَا عَلَى
ظَاهِرِ جِسْمِهِ : لَتَسْتَيْقِنُوا وَتَسْكُنُوا إِلَى ذَلِكَ . قَالَ الْقَاضِي
لِسَيِّدِ الْخَنَازِيرِ : قَدْ عَلِمْتُ ، وَعَلِمَ الْجَمَاعَةُ الْحَاضِرُونَ ، أَنَّكَ
عَارِفٌ بِمَا فِي الصُّورِ مِنْ عَلَامَاتِ السُّوءِ ، فَفَسِّرْ لَنَا مَا تَقُولُ ،
وَأُطْلِعْنَا عَلَى مَا تَرَى فِي صُورَةِ هَذَا الشَّقِيِّ . فَأَخَذَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ

يَذْمُ دِمْنَةً ، وَقَالَ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ كَتَبُوا وَأَخْبَرُوا : أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ
عَيْنُهُ الْيُسْرَى أَصْغَرَ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى وَهِيَ لَا تَزَالُ تَخْتَلِجُ ،
وَكَانَ أَنْفُهُ مَائِلًا إِلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ ، فَهُوَ شَقِيٌّ خَبِيثٌ . قَالَ لَهُ
دِمْنَةُ : شَأْنُكَ عَجَبٌ ، أَيُّهَا الْقَدِيرُ ، ذُو الْعَلَامَاتِ الْفَاضِحَةِ
الْقَبِيحَةِ ، ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ جَرَاءَتِكَ عَلَى طَعَامِ الْمَلِكِ ، وَقِيَامِكَ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَعَ مَا يَجْسِمُكَ مِنَ الْقَدْرِ وَالْقُبْحِ ، وَمَعَ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ
وَيَعْرِفُهُ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ ، أَفَتَتَكَلَّمُ فِي النَّقِيِّ الْجِسْمِ الَّذِي
لَا عَيْبَ فِيهِ ؟ وَلَسْتُ أَنَا وَحْدِي أَطْلُعُ عَلَى عَيْبِكَ ، لَكِنْ
جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ . وَقَدْ كَانَ يَحْجُزُنِي عَنْ
إِظْهَارِهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّدَاقَةِ . فَأَمَّا إِذْ قَدْ كَذَبْتَ عَلَى
وَبَهْتَنِي فِي وَجْهِهِ ^(١) ، وَفُتَّتَ بَعْدَاوَتِي ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ فِي بَغِيرِ
عِلْمٍ عَلَى رُءُوسِ الْحَاضِرِينَ ، فَإِنِّي أَقْتَصِرُ عَلَى إِظْهَارِ مَا أَعْرِفُ
مِنْ عُيُوبِكَ ، وَتَعْرِفُ الْجَمَاعَةُ ، وَحَقُّ عَلَى مَنْ عَرَفَكَ حَقَّ
مَعْرِفَتِكَ أَنْ يَمْنَعَ الْمَلِكُ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعَامِهِ ، فَلَوْ

(١) قلت على ما لم أفعل .

كَلَّفْتَ أَنْ تَعْمَلَ الزَّرَاعَةَ لَكُنْتَ جَدِيرًا بِالْحِذْلَانِ فِيهَا .
فَالْأُخْرَى بِكَ أَلَّا تَدْنُو إِلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَلَّا تَكُونَ
دَبَّاعًا وَلَا حَجَّامًا لِعَامِي فَضْلًا عَنْ خَاصِّ خِدْمَةِ الْمَلِكِ . قَالَ
سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ : أَتَقُولُ لِي هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَتَلْقَانِي بِهَذَا الْمَلَقِ ؟
قَالَ دِمْنَةُ : نَعَمْ ، وَحَقًّا قُلْتُ فِيكَ ، وَإِيَّاكَ أَغْنِي ، أَيُّهَا
الْأَعْرَجُ الْمَكْسُورُ الْأَقْدَعُ^(١) الرَّجُلِ ، الْمَنْفُوخُ الْبَطْنِ ، الْأَفْلَحُ^(٢)
الشَّفَتَيْنِ ، السَّيِّئُ الْمَنْظَرُ وَالْمَخْبِرُ . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ دِمْنَةُ ،
تَغَيَّرَ وَجْهُ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ وَاسْتَعْبَرَ^(٣) وَاسْتَحَى ، وَتَلَجَّلَجَلَ لِسَانُهُ ،
وَاسْتَكَانَ^(٤) وَفَتَرَ نَشَاطُهُ . فَقَالَ دِمْنَةُ ، حِينَ رَأَى انْكِسَارَهُ
وَبُكَاءَهُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَطُولَ بُكَاءُكَ ، إِذَا أَطْلَعَ الْمَلِكُ
عَلَى قَدْرِكَ وَعُيُوبِكَ فَعَزَّكَ عَنْ طَعَامِهِ ، وَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
خِدْمَتِهِ ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ شَغِيرًا كَانَ الْأَسَدُ قَدْ جَرَبَهُ
فَوَجَدَ فِيهِ أَمَانَةً وَصِدْقًا ، فَرَتَّبَهُ فِي خِدْمَتِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْفَظَ
مَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ ، وَيُطْلِعَهُ عَلَى ذَلِكَ . فَقَامَ الشَّغِيرُ فَدَخَلَ

(١) الأعوج . (٢) المشقوق . (٣) جرت عبرته وحزنه . (٤) ذل .

عَلَى الْأَسَدِ فَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ كُلِّهِ عَلَى جَلِيَّتِهِ . فَأَمَرَ الْأَسَدُ
بِعَزْلِ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ عَنْ عَمَلِهِ ، وَأَمَرَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَرَى
وَجْهَهُ ، وَأَمَرَ بِدَمْنَةٍ أَنْ يُسَجَّنَ ، وَقَدْ مَضَى مِنَ النَّهَارِ
أَكْثَرُهُ ، وَجَمِيعُ مَا جَرَى وَقَالُوا وَقَالَ قَدْ كُتِبَ وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ
النَّمِرِ ، وَرَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ شَغْبَرًا (أَبْنَ آوَى) يُقَالُ لَهُ رَوْزَبَةُ ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
كَلِيلَةَ إِخَاءً وَمَوَدَّةً ، وَكَانَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَجِيهًا ، وَعَلَيْهِ كَرِيمًا ،
وَاتَّفَقَ أَنَّ كَلِيلَةَ أَخَذَهُ الْوَجْدُ إِشْفَاقًا وَحَذَرًا عَلَى نَفْسِهِ وَأَخِيهِ ،
فَمَرَضَ وَمَاتَ ، فَانْطَلَقَ هَذَا الشَّغْبَرُ إِلَى دِمْنَةٍ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ
كَلِيلَةَ فَبَكَى وَحَزَنَ ، وَقَالَ : مَا أَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَخِ
الصَّفِيِّ ! وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ لَمْ يَمُتْ كَلِيلَةُ حَتَّى أَتَنِي
لِي مِنْ ذَوَى قَرَابَتِي أَخًا مِثْلَكَ : فَإِنِّي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ إِلَىَّ فِيمَا رَأَيْتُ مِنْ اِهْتِمَامِكَ بِي وَمُرَاعَاتِكَ لِي ،
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجَائِي وَرُكْنِي فِيمَا أَنَا فِيهِ ، فَأُرِيدُ مِنْ إِنْعَامِكَ
أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا ، فَتَنْظُرَ إِلَى مَا جَمَعْتُهُ أَنَا وَأَخِي بِجِيلَتِنَا

وَسَعِينَا وَمَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتَأْتِينِي بِهِ ، فَقَعَلَ الشَّغْبَرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ
 دِمْنَةُ . فَلَمَّا وَضَعَ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْطَاهُ شَطْرَهُ ، وَقَالَ لَهُ :
 إِنَّكَ عَلَى الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْأَسَدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ ،
 فَتَفَرَّغَ لِسَانِي ، وَأَصْرِفْ أَهْتِمَامَكَ إِلَيَّ ، وَاسْمَعْ مَا أَذْكُرُ بِهِ عِنْدَ
 الْأَسَدِ ، إِذَا رُفِعَ إِلَيْهِ مَا يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ ، وَمَا يَبْدُو
 مِنْ أُمِّ الْأَسَدِ فِي حَقِّي ، وَمَا تَرَى مِنْ مَتَابَعَةِ الْأَسَدِ لَهَا ،
 وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي ، وَاحْفَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ . فَأَخَذَ الشَّغْبَرُ
 مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هَذَا الْعَهْدِ . فَاِنْطَلَقَ إِلَى
 مَنْزِلِهِ فَوَضَعَ الْمَالَ فِيهِ . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ بَكَرَ مِنَ الْغَدِ بِفُلَسَّسٍ ،
 حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ سَاعَتَانِ ، اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَأَذِنَ
 لَهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَوَضَعُوا الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَلَمَّا عَرَفَ
 قَوْلَهُمْ وَقَوْلَ دِمْنَةَ دَعَا أُمَّهُ فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذَلِكَ . فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي
 الْكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا : إِنَّ أَنَا أَغْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ فَلَا
 تُلْنِي : فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضُرَّكَ مِنْ نَفْعِكَ . أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا
 كُنْتُ أَنهَاكَ عَنْ سَمَاعِهِ : لِأَنَّهُ كَلَامُ هَذَا الْمُجْرِمِ الْمُسِيءِ إِلَيْنَا ،

الغادر بذمتنا ؟ ثم إنها خرجت مغضبة ، وذلك بعين الشَّغْبَرِ
الَّذِي آخَاهُ دِمْنَةُ وَبِسْمِعِهِ . فخرج في أثرها مُسْرِعًا ، حتَّى أَتَى
دِمْنَةَ ، فحدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ . فبينما هو عنده إِذْ جَاءَ رَسُولٌ ،
فَانْطَلَقَ بِدِمْنَةَ إِلَى الْجَمْعِ عِنْدَ الْقَاضِي . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ
الْقَاضِي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ الْمَجْلِسِ فَقَالَ : يَا دِمْنَةُ ، قَدْ أَنْبَأَنِي بِخَبْرِكَ
الْأَمِينُ الصَّادِقُ ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ
أَكْثَرِ مِنْ هَذَا : لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا
سَبَبًا وَمِصْدَاقًا لِلْآخِرَةِ : لِأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الدَّالِّينَ
عَلَى الْخَيْرِ ، الْهَادِينَ إِلَى الْجَنَّةِ ، الدَّاعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى .
وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا ، وَأَخْبَرْنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ ،
إِلَّا أَنْ سَيِّدَنَا أَمَرَنَا بِالْعُودِ فِي أَمْرِكَ وَالْفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ ،
وَإِنْ كَانَ عِنْدَنَا ظَاهِرًا بَيْنًا . قَالَ دِمْنَةُ : أَرَأَيْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي
لَمْ تَتَّعُدِ الْعَدْلَ فِي الْقَضَاءِ ، وَلَيْسَ فِي عَدْلِ الْمُلُوكِ دَفْعُ
الْمَظْلُومِينَ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ إِلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ ، بَلِ الْمُخَاصِمَةُ
عَنْهُمْ وَالذُّودُ . فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أَخَاصِمْ ؟ وَتُعْجَلُ ذَلِكَ

مُوَافَقَةً لِهَوَاكَ ، وَلَمْ تَمْنُصْ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . وَلَكِنْ صَدَقَ
 الَّذِي قَالَ : إِنَّ الَّذِي تَعُوذُ عَمَلِ الْبَرِّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ ، وَإِنْ أَضَرَّ بِهِ .
 قَالَ الْقَاضِي : إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ : أَنَّ الْقَاضِيَ يَنْبَغِي لَهُ
 أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ ، لِيُجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ
 وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى هَذَا أَزْدَادَ الْمُحْسِنُونَ حِرْصًا
 عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَالْمُسِيئُونَ اجْتِنَابًا لِلذُّنُوبِ . وَالرَّأْيُ لَكَ ،
 يَا دِمْنَةُ ، أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعْتَ فِيهِ ، وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ ،
 وَتُقَرِّبَهُ ، وَتَتُوبَ . فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ : إِنِّي صَالِحِي الْقُضَاةِ
 لَا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ ، لَا فِي الْخَاصَّةِ وَلَا فِي
 الْعَامَّةِ : لِعَلَّهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . وَأَنْتُمْ إِنْ
 ظَنَنْتُمْ إِلَيَّ مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ ، وَعَلَيَّ
 بِنَفْسِي يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَعِلْمُكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ ، وَإِنَّمَا قَبَحَ
 أَمْرِي عِنْدَكُمْ إِلَيَّ سَعَيْتُ بِغَيْرِي ، فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ
 بِنَفْسِي كَاذِبًا عَلَيْهَا ، فَأَسْلَمْتُهَا لِلْقَتْلِ وَالْعَطَبِ ، عَلَى مَعْرِفَةِ مِنِّي

بِبِرَائَتِي وَسَلَامَتِي مِمَّا قُرِفْتُ بِهِ ^(١)؟ وَنَفْسِي أَعْظَمُ الْأَنْفُسِ عَلَى
حُرْمَةٍ وَأَوْجِبُهَا حَقًّا . فَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَدْنَاكُمْ ، لَمَا
وَسِعَنِي فِي دِينِي ، وَلَا حَسُنَ بِي فِي مُرُوءَتِي ، وَلَا حَقٌّ لِي أَنْ
أَفْعَلَهُ ، فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي ؟ فَأَكْثُفُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ هَذِهِ
الْمَقَالَةِ : فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِنْكَ نَصِيحَةً ، فَقَدْ أَخْطَأْتَ
مَوْضِعَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً ، فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِدَاعِ مَا نَظَرْتَهُ
وَعَرَفْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الْخِدَاعَ وَالْمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ
صَالِحِي الْقُضَاةِ ، وَلَا تُقَاةِ الْوُلَاةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَالُ وَالْأَشْرَارُ سُنَّةً يَقْتَدُونَ بِهَا :
لِأَنَّ أُمُورَ الْقُضَاةِ يَأْخُذُ بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ ، وَبِخَطِيئِهَا أَهْلُ
الْخَطَا وَالْبَاطِلِ وَالْقَلِيلُ الْوَرَعُ ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي
مِنْ مَقَالَتِكَ هَذِهِ أَعْظَمَ الرِّزَايَا وَالْبَلَايَا ، وَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ
وَالْمُصِيبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ وَالْجُنْدِ وَالْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ
فَاضِلًا فِي رَأْيِكَ ، مُقْنِعًا فِي عَدْلِكَ ، مَرْضِيًّا فِي حُكْمِكَ وَعَفَافِكَ
وَفَضْلِكَ ، وَإِنَّمَا الْبَلَاءُ كَيْفَ أُتْسِيتَ ذَلِكَ فِي أَمْرِي .

فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِي ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةٍ ، نَهَضَ فَرَفَعَهُ إِلَى
الْأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ فَنَظَرَ فِيهِ الْأَسَدُ ، ثُمَّ دَعَا أُمَّهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْهَا .
فَقَالَتْ حِينَ تَدَبَّرْتَ كَلَامَ دِمْنَةٍ لِلْأَسَدِ : لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا
أَتَخَوَّفُ مِنْ أَحْتِيَالِ دِمْنَةٍ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ حَتَّى يَقْتُلَكَ أَوْ
يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ ، أَعْظَمَ مِنْ اهْتِمَامِي بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ
إِلَيْكَ فِي الْغِشِّ وَالسَّعَايَةِ ، حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ .
فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ . فَقَالَ لَهَا : أَخْبِرِينِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكَ
عَنْ دِمْنَةٍ بِمَا أَخْبَرَكَ ، فَيَكُونُ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةً . فَقَالَتْ :
إِنِّي لَا أَكْرَهُ أَنْ أَفْشِيَ سِرَّ مَنْ اسْتَكْتَمَنِيهِ ، فَلَا يَهْنِئُنِي سُرُورِي
بِقَتْلِ دِمْنَةٍ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنَّي اسْتَظْهَرْتُ عَلَيْهِ بِرُكُوبِ مَا نَهَتْ
عَنْهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ ، وَلَكِنِّي أَطَالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعَنِيهِ
أَنْ يَجْعَلَنِي فِي حِلٍّ مِنْ ذِكْرِهِ لَكَ ، وَيَقُومَ هُوَ بِعَلِّهِ وَمَا سَمِعَ
مِنْهُ . ثُمَّ أَنْصَرَفَتْ ، وَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّمِرِ ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يَحِقُّ
عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ الْأَسَدَ عَلَى الْحَقِّ ، وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ
الشَّهَادَةِ الَّتِي لَا يَكْتُمُهَا مِثْلُهُ ، مَعَ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِينَ ،

وَتَثْبِيتِ حُجَّةِ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ : فَإِنَّهُ قَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ :
 مَنْ كَتَمَ حُجَّةَ مَيِّتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَمْ تَزَلْ بِهِ ، حَتَّى
 قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةٍ .
 فَلَمَّا شَهِدَ النَّمِرُ بِذَلِكَ ، أَرْسَلَ الْفَهْدُ الْمُحْبُسُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ
 دِمْنَةٍ وَحَفِظَهُ إِلَى الْأَسَدِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً . فَأَتَرَجُّوهُ .
 فَشَهِدَ عَلَى دِمْنَةٍ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِهِ . فَقَالَ لهُمَا الْأَسَدُ :
 مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا بِشَهَادَتِكُمَا ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا وَاهْتِمَامَنَا
 بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةٍ ، فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : قَدْ عَلِمْنَا
 أَنَّ شَهَادَةَ الْوَاحِدِ لَا تُوجِبُ حُكْمًا فَكَّرْهُمَا التَّعَرُّضُ لَغَيْرِ مَا يَمْضِي
 بِهِ الْحُكْمُ ، حَتَّى إِذَا شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الْآخَرُ بِشَهَادَتِهِ ، فَقَبِلَ
 الْأَسَدُ قَوْلَهُمَا . وَأَمَرَ بِدِمْنَةٍ أَنْ يُقْتَلَ فِي حَبْسِهِ : فَقَتَلَ أَشْنَعَ
 قَتْلَةً . فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنَفْعَةً نَفْسِهِ
 بِضُرِّ غَيْرِهِ بِالْخِلَابَةِ وَالْمَكْرِ ، فَإِنَّهُ سَيُجْزَى عَلَى خِلَابَتِهِ وَمَكْرِهِ .
 (انقضى باب الفحص عن أمر دمنة)

بَابُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدَبَا الْفِيلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ
الْمُتَحَابِّينِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ ، وَإِلَى مَاذَا صَارَ عَاقِبَةُ
أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . فَحَدَّثَنِي ، إِنْ رَأَيْتَ ، عَنْ إِخْوَانِ الصِّفَاءِ
كَيْفَ يَتَسَدَّ تَوَاصُلُهُمْ وَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ؟ قَالَ
الْفِيلَسُوفُ : إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَعْدِلُ بِالْإِخْوَانِ شَيْئًا . فَإِلَّا إِخْوَانُ
هُمْ الْأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَنْوُبُ مِنْ
الْمَكْرُوهِ . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ
وَالظَّبْيِ وَالْغُرَابِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ يَدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ سَكَاوَنَدَجِينَ ، عِنْدَ مَدِينَةِ
دَاهَرٍ ، مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ ، يَنْتَابُهُ الصَّيَّادُونَ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ
الْمَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيرَةُ الْأَغْصَانِ مُلْتَفَّةُ الْوَرَقِ . فِيهَا وَكْرُ غُرَابٍ .
فَإِنَّمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ إِذْ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ ،

سَيِّئِ الْخَلْقِ ، عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ ، وَفِي يَدِهِ عَصَا ، مُقْبِلًا نَحْوَ
الشَّجَرَةِ ؛ فَذَعِرَ مِنْهُ الْغُرَابُ ^(١) ، وَقَالَ : لَقَدْ سَاقَ هَذَا الرَّجُلُ
إِلَى هَذَا الْمَكَانِ : إِمَّا حِينِي وَإِمَّا حِينَ غَيْرِي . فَلَا تُثَبِّتَنَّ مَكَانِي
حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ . ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ ، وَنَثَرَ
عَلَيْهَا الْحَبَّ ، وَكَمَنَ قَرِيبًا مِنْهَا ^(٢) ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا ، حَتَّى
مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يُقَالُ لَهَا الْمُطَوَّقَةُ ، وَكَانَتْ سَيِّدَةَ الْحَمَامِ ،
وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيرٌ ، فَعَمِيَتْ هِيَ وَصَوَّاحِبُهَا عَنِ الشَّرِكِ ، فَوَقَعْنَ
عَلَى الْحَبِّ يَلْتَقِطْنَهُ ، فَعَلِقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ ، وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ
فَرِحًا مَسْرُورًا . فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَضْطَرِبُ فِي حَبَائِلِهَا ،
وَتَلْتَمِسُ الْخَلَاصَ لِنَفْسِهَا . قَالَتِ الْمُطَوَّقَةُ ^(٣) : لَا تَخْاذِلْنَ
فِي الْمُعَاجِلَةِ ، وَلَا تَكُنْ نَفْسُ إِحْدَاكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ
صَاحِبَتِهَا ، وَلَكِنْ تَتَعَاوَنُ جَمِيعًا ، فَتَقْلَعُ الشَّبَكَةَ ، فَيَنْجُو
بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ؛ فَقْلَعْنَ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَعَاوُنِهِنَّ ، وَعَلَوْنَ
فِي الْجَوِّ ، وَلَمْ يَقْطَعْ الصَّيَّادُ رِجَاءَهُ مِنْهُنَّ وَظَنَّ أَنَّهِنَّ لَا يُجَاوِزْنَ

(١) خاف . (٢) نوارى . (٣) لا تتركن مساعدة بعضكن بعضا .

إِلَّا قَرِيبًا وَيَقَعْنَ . فَقَالَ الْغُرَابُ : لَا تَتَّبِعُهُنَّ وَانْظُرْ مَا يَكُونُ مِنْهُنَّ . فَالْتَفَتَتِ الْمُطَوَّقَةُ فَرَأَتْ الصَّيَّادَ يَتَّبِعُهُنَّ . فَقَالَتْ لِلْحَمَامِ : هَذَا الصَّيَّادُ مُجِدُّ فِي طَلَبِكُنَّ ، فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا فِي الْفَضَاءِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَّبِعُنَا ، وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنَا إِلَى الْعُمَرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، وَانْصَرَفَ . وَبِمَكَانٍ كَذَا جَرَدٌ هُوَ لِي أَخٌ ، فَلَوْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هَذَا الشَّرَكَ . فَقَعَلْنَ ذَلِكَ . وَأَيَسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَانْصَرَفَ . وَتَبِعَهُنَّ الْغُرَابُ . فَلَمَّا انْتَهَتِ الْحَمَامَةُ الْمُطَوَّقَةُ إِلَى الْجُرْدِ ، أَمَرَتِ الْحَمَامُ أَنْ يَسْقُطْنَ ، فَوَقَعْنَ ، وَكَانَ لِلْجُرْدِ مِائَةٌ جُحْرٍ لِلْمَخَافِ ، فَنَادَتْهُ الْمُطَوَّقَةُ بِاسْمِهِ ، وَكَانَ اسْمُهُ زِيرَكُ ، فَأَجَابَهَا الْجُرْدُ مِنْ جُحْرِهِ : مَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرْدُ يَسْعَى ، فَقَالَ لَهَا : مَا أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ الْوَرِطَةِ ؟ قَالَتْ لَهُ : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى مَنْ تُصِيبُهُ الْمَقَادِيرُ ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْنِي فِي هَذِهِ الْوَرِطَةِ ، فَقَدْ لَا يَمْتَنِعُ

مِنْ الْقَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْرًا ، وَقَدْ تَنَكَّسَ الشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ
 الْعَقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّقَةُ . فَقَالَتْ لَهُ الْمُطَوَّقَةُ : أَبَدًا يَقْطَعُ
 عَقْدَ سَائِرِ الْحَمَامِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى عَقْدِي ، وَأَعَادَتْ
 ذَلِكَ عَلَيْهِ مَرَارًا ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا ، فَلَهَا أَكْثَرَتْ
 عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَكَرَّرَتْ ، قَالَ لَهَا : لَقَدْ كَرَّرْتَ الْقَوْلَ عَلَى
 كَأَنَّكَ لَيْسَ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ ، وَلَا لَكَ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ ،
 وَلَا تَرَعِينَ لَهَا حَقًّا . قَالَتْ : إِنِّي أَخَافُ ، إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ
 بِقَطْعِ عَقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَتَكَسَّلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ
 إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي ، وَكُنْتُ أَنَا الْأَخِيرَةَ ، لَمْ تَرْضَ ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ
 الْفُتُورُ ، أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرِّ ، قَالَ الْجُرَذُ : هَذَا مِمَّا يَزِيدُ الرَّغْبَةَ
 وَالْمُودَّةَ فِيكَ . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ حَتَّى فَرَّغَ
 مِنْهَا ، فَأَنْطَلَقَتِ الْمُطَوَّقَةُ وَحَمَامُهَا مَعَهَا .

فَلَمَّا رَأَى الْغُرَابُ صُنْعَ الْجُرَذِ ، رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ ، بِخَاءٍ
 وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ ، فَأَخْرَجَ الْجُرَذُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟

قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ . قَالَ الْجُرْدُ : لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
 تَوَاصُلٌ ، وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ،
 وَيَتْرَكَ التِّمَاسَ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ الْآكِلُ ،
 وَأَنَا طَعَامُكَ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ أَكْلِي إِيَّاكَ ، وَإِنْ كُنْتُ لِي
 طَعَامًا ، مِمَّا لَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا ، وَإِنْ مَوَدَّتْكَ آنَسُ لِي مِمَّا
 ذَكَرْتَ ، وَلَسْتُ بِحَقِيقٍ ، إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ ، أَنْ تُرَدِّدَنِي
 خَائِبًا . فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَا رَغِبِي فِيكَ ،
 وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهَارَ ذَلِكَ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ ،
 وَإِنْ هُوَ أَخْفَاهُ ، كَالْمِسْكِ الَّذِي يُسَكَّمُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النَّشْرِ
 الطَّيِّبِ وَالْأَرْجِ الْفَاحِشِ . قَالَ الْجُرْدُ : إِنَّ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ عَدَاوَةُ
 الْجَوْهَرِ : وَهِيَ عَدَاوَتَانِ : مِنْهَا مَا هُوَ مُتَكَافٍ كَعَدَاوَةِ الْفِيلِ
 وَالْأَسَدِ . فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الْأَسَدُ الْفِيلَ أَوِ الْفِيلُ الْأَسَدَ ، وَمِنْهَا
 مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ كَعَدَاوَةِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السُّنُورِ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ : فَإِنَّ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ ، وَإِنَّمَا
 ضَرُّهَا عَائِدٌ عَلَيَّ : فَإِنَّ الْمَاءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْتِحْنَانُهُ لَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ

إطفائه النار إذا صب عليها ، وإنما مصاحب العدو ومصالحه
كصاحب الحية يحملها في كفه ، والعاقِل لا يستأنس إلى العدو
الأريب .

قال الغراب : قد فهمت ما تقول ، وأنت خَلِيقٌ أن تأخذ
بفضل خَلِيقَتِكَ ، وتعرف صدق مقالتي ، ولا تُصِيبَ على
الأمر بقولك : ليس إلى التواصل بيننا سبيل : فإن العقلاء
الكرام لا يتغنون على معروف جزاء ، والمودة بين الصالحين
سريع اتصاها بطي ، وانقطاعها . ومثل ذلك مثل الكوز من
الذهب : بطي الانكسار ، سريع الإعادة ، هين الإصلاح ،
إن أصابه ثلم أو كسر ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها ،
بطي اتصاها . ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار ، سريع
الانكسار ، ينكسر من أدنى عيب ، ولا وصل له أبداً . والكريم
يود الكريم ، واللئيم لا يود أحداً إلا عن رغبة أو رهبة . وأنا
إلى ودك ومعروفك محتاج : لأنك كريم ، وأنا ملازم لبابك ،
غير ذاتي طعاماً ، حتى تواخيني . قال الجرذ : قد قُبات إخاءك :

فَإِنِّي لَمْ أَرُدُّ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ قَطُّ ، وَإِنَّمَا بَدَأْتُكَ بِمَا بَدَأْتُكَ
بِهِ إِرَادَةَ التَّوَثُّقِ لِنَفْسِي ، فَإِنْ أَنْتَ غَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ : إِنِّي
وَجَدْتُ الْجُرْدَ سَرِيعَ الْإِنْخِدَاعِ . ثُمَّ نَحَرَ مِنْ جُحْرِهِ ، فَوَقَفَ
عِنْدَ الْبَابِ . فَقَالَ لَهُ الْغُرَابُ : مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى ،
وَالَا سِتْنَسِ بِي ؟ فَهَلْ فِي نَفْسِكَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنِّي رِيْبَةٌ ؟ قَالَ
الْجُرْدُ : إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ ، وَيَتَوَاصِلُونَ
عَلَيْهِمَا ، وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ ، وَذَاتُ الْيَدِ . فَالْمُتَبَاذِلُونَ
ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِيَاءُ ، وَأَمَّا الْمُتَبَاذِلُونَ ذَاتَ الْيَدِ فَهُمْ
الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِبَعْضٍ . وَمَنْ كَانَ
يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّمَا مَثَلُهُ فِيمَا يَبْدُلُ
وَيُعْطَى كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَالْقَائِلِ الْحَبِّ لِلطَّيْرِ ، لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ
الطَّيْرِ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ . فَتَعَاطَى ذَاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ
تَعَاطَى ذَاتِ الْيَدِ . وَإِنِّي وَثِقْتُ مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ ، وَمَنْحَتُكَ
مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذَلِكَ . وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنِّي
بِكَ ، وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحَابًا جَوْهَرُهُمْ بِجَوْهَرِكَ ،
وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِيَّ كَرَاهِيكَ .

قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ مِنْ عَلَامَةِ الصَّدِيقِ أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِ
 صَدِيقِهِ صَدِيقًا ، وَلِعَدُوِّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا ، وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبٍ
 وَلَا صَدِيقٍ مَنْ لَا يَكُونُ لَكَ مُحِبًّا ، وَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَى قَطِيعَةٍ مَنْ
 كَانَ كَذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِي . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ نَحَرَ إِلَى الْغُرَابِ ،
 فَتَصَافَحَا وَتَصَافَيَا ، وَأَسَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، حَتَّى إِذَا
 مَضَتْ لهُمَا أَيَّامٌ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ
 النَّاسِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَرْمِيكَ بَعْضُ الصَّبْيَانِ بِحَجَرٍ ، وَلِي مَكَانٌ
 فِي عُرْلَةٍ ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلَاحِفِ ، وَهُوَ مُخَصَّبٌ مِنَ
 السَّمَكِ ، وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ ، فَأُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ
 إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنَيْنِ . قَالَ الْجُرَذُ : إِنَّ لِي أَخْبَارًا وَقِصَصًا
 سَاقِصَهَا عَلَيْكَ إِذَا أَنْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ ، فَأَفْعَلْ مَا تَشَاءُ . فَأَخَذَ
 الْغُرَابُ بِذَنْبِ الْجُرَذِ ، وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ بِهِ حَيْثُ أَرَادَ . فَلَمَّا
 دَنَا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا السَّلَاحِفَةُ ، بَصُرَتْ السَّلَاحِفَةُ الْغُرَابَ وَمَعَهُ
 جُرَذٌ ، فَذَعِرَتْ مِنْهُ ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا ، فَنَادَاهَا ، فَخَرَجَتْ
 إِلَيْهِ ، وَسَأَلَتْهُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ حِينَ تَبِعَ

الجمام، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها .
فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ ، عجبت من عقله ووفائه ،
ورحبت به ، وقالت له : ما ساقك إلى هذه الأرض ؟ قال
الغراب للجرذ : أقصص على الأخبار التي زعمت أنك تُحدثني
بها ، فأخبرني بها مع جواب ما سألت السلحفاة : فإنها
عندك بمنزلي ، فبدأ الجرذ وقال :

كان منزلي أول أمرى بمدينة ماروت في بيت رجب ناسك ،
وكان خاليا من الأهل والعيال ، وكان يوتي في كل يوم بسلة
من الطعام فيأكل منها حاجته ويلقى الباقي ، وكنت أرصد
الناسك ، حتى يخرج وأثب إلى السلة ، فلا أدع فيها طعاما إلا
أكلته ، وأرمي به إلى الجرذان . فجهد الناسك مرارا أن يعلق
السلة مكانا لا أناله فلم يقدر على ذلك ، حتى نزل به ذات ليلة
ضيف ، فأكلا جميعا ، ثم أخذا في الحديث ، فقال الناسك
للضيف : من أي أرض أقبلت ؟ وأين تريد الآن ؟ وكان الرجل
قد جاب الآفاق ، ورأى عجائب ، فأثشا يحدث الناسك عما

وَطِئَ مِنَ الْبِلَادِ ، وَرَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ ، وَجَعَلَ النَّاسُكَ خِلَالَ
 ذَلِكَ يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ ، لِيُنْفِرَنِي عَنِ السَّلَةِ ، فَغَضِبَ الضَّيْفُ
 وَقَالَ : أَنَا أُحَدِّثُكَ وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثِي ! فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ
 سَأَلْتَنِي ؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ النَّاسِكَ ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَصَفِّقُ بِيَدِي
 لِأَنْفَرُ جُرْذَا قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَسْتُ أَضَعُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا
 إِلَّا أَكَلَهُ ، فَقَالَ الضَّيْفُ : جُرْذٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَمْ جُرْذَانُ
 كَثِيرَةٌ ؟ فَقَالَ النَّاسِكَ : جُرْذَانُ الْبَيْتِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنْ فِيهَا جُرْذٌ
 وَاحِدٌ هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي ، فَمَا اسْتَطِيعَ لَهُ حِيلَةٌ . قَالَ الضَّيْفُ :
 لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قَالَ : لِأَمْرِ مَا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سِمِيمًا
 مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ ! قَالَ النَّاسِكَ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الضَّيْفُ : نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكَانٍ كَذَا ، فَتَعَشَيْنَا ،
 ثُمَّ فَرَشَ لِي . وَانْقَلَبَ الرَّجُلُ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي آخِرِ
 اللَّيْلِ لِأَمْرَأَتِهِ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو غَدًا رَهْطًا لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا ،
 فَاصْنَعِي لَهُمْ طَعَامًا . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى

طَعَامِكَ ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِكَ فَضْلٌ عَنْ عِيَالِكَ ؟ وَأَنْتَ رَجُلٌ
لَا تُتْبِقُ شَيْئًا وَلَا تَدْنِخُهُ . قَالَ الرَّجُلُ : لَا تَتَدَمَّى عَلَى شَيْءٍ أَطْعَمَنَاهُ
وَأَنْفَقَنَاهُ : فَإِنَّ الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ رُبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَةِ الذُّبِّ .
قَالَتِ الْمَرْأَةُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ قَانِصٌ ، وَمَعَهُ
قَوْسُهُ وَنُشَابُهُ فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، حَتَّى رَمَى ظِيًّا ، فَحَمَلَهُ وَرَجَعَ
طَالِبًا مَنْزِلَهُ ، فَاعْتَرَضَهُ خَنْزِيرٌ بَرِيٌّ فَرَمَاهُ بِنُشَابَةٍ نَفَذَتْ فِيهِ ،
فَادْرَكَهُ الْخَنْزِيرُ وَضَرَبَهُ بِأَنْبِيَابِهِ ضَرْبَةً أَطَارَتْ مِنْ يَدِهِ الْقَوْسُ ،
وَوَقَعَ مَيِّتِينَ ، فَأَتَى عَلَيْهِمْ ذِئْبٌ فَقَالَ : هَذَا الرَّجُلُ وَالظَّيُّ
وَالْخَنْزِيرُ يَكْفِينِي أَكْلَهُمْ مَدَّةً ، وَلَكِنْ أَبْدَأُ بِهَذَا الْوَتْرِ فَأَكَلَهُ ،
فَيَكُونُ قُوَّتَ يَوْمِي ، فَعَالَجَ الْوَتْرَ حَتَّى قَطَعَهُ ، فَلَمَّا انْقَطَعَ
طَارَتْ سِيَةُ الْقَوْسِ ^(٢) ، فَضْرِبَتْ حَلْقَهُ فَمَاتَ . وَإِنَّمَا ضْرِبْتُ
لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ وَخِيَمُ الْعَاقِبَةِ . فَقَالَتْ

(١) جمع نشابة وهي السهم . (٢) طرفها .

الْمَرْأَةُ : نَعَمْ مَا قُلْتَ ! وَعِنْدَنَا مِنَ الْأُرْزِ وَالسِّمْسِمِ مَا يَكْفِي سِتَّةَ
 نَفَرٍ أَوْ سَبْعَةٍ ، فَأَنَا غَادِيَةٌ عَلَى أَصْطِنَاعِ الطَّعَامِ ، فَادْعُ مَنْ أَحْبَبْتَ .
 وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ حِينَ أَصْبَحَتْ سِمْسِمًا فَقَشَرَتْهُ ، وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ
 لِيَجْفَ ، وَقَالَتْ لِغُلَامٍ لَهُمْ : أَطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالْكِلَابَ ،
 وَتَفَرَّغَتِ الْمَرْأَةُ لِصُنْعِهَا ، وَتَغَافَلَ الْغُلَامُ عَنِ السِّمْسِمِ ، بِخَاءِ
 كَلْبٍ ، فَعَاقَبَتْ فِيهِ ^(١) ، فَاسْتَقْدَرَتْهُ الْمَرْأَةُ ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْهُ
 طَعَامًا مَا ، فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ ، فَأَخَذَتْ بِهِ مُقَايِضَةً سِمْسِمًا
 غَيْرَ مَقْشُورٍ : مِثْلًا بِمِثْلٍ ، وَأَنَا وَاقِفٌ فِي السُّوقِ ، فَقَالَ رَجُلٌ :
 لِأَمْرِ مَا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِمًا مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ . وَكَذَلِكَ
 قَوْلِي فِي هَذَا الْجُرْدِ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ مَا يَقْدِرُ عَلَى
 مَا شَكُوتَ مِنْهُ . فَالْتَمِسْ لِي فَأَسْأَلَ لَعَلِّي أَخْتَفِرُ بِجُحْرِهِ فَأُطْلِعَ عَلَى
 بَعْضِ شَأْنِهِ ! فَاسْتَعَارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ جِيرَانِهِ فَأَسْأَلَ ، فَأَتَى
 بِهَا الضَّيْفَ ، وَأَنَا حِينَئِذٍ فِي جُحْرٍ غَيْرِ جُحْرِي أَسْمَعُ كَلَامَهُمَا ،
 وَفِي جُحْرِي كَيْسٌ فِيهِ مِائَةُ دِينَارٍ ، لَا أَذْرِي مَنْ وَضَعَهَا ، فَاخْتَفَرَ

الضَّيْفُ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا وَقَالَ لِلنَّاسِكِ : مَا كَانَ
هَذَا الْجُرْدُ يَقْوَى عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ إِلَّا بِهَذِهِ
الدَّنَانِيرِ : فَإِنَّ الْمَالَ جَعَلَ لَهُ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي الرَّأْيِ وَالْتِمَکْنِ .
وَسَتَرَى بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ .
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعَ الْجُرْدَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِيَ فَقَالَتْ :
قَدْ أَصَابَنَا الْجُوعُ ، وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا . فَانْطَلَقْتُ وَمَعِيَ الْجُرْدَانُ إِلَى
الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَثْبُ مِنْهُ إِلَى السَّلَّةِ ، فَحَاوَلْتُ ذَلِكَ مِرَارًا :
فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ . فَاسْتَبَانَ لِلْجُرْدَانِ نَقْصُ حَالِي ، فَسَمِعْتُهُنَّ يَقْلُنَ :
أَنْصَرِفْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَطْمَعْنَ فِيمَا عِنْدَهُ : فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالًا
لَا نَحْسِبُهُ إِلَّا قَدْ اخْتَجَّ مَعَهَا إِلَى مَنْ يَبْعُولُهُ . فَتَرَكْنِي ، وَلَحِقْنَ
بِأَعْدَائِي وَجَفَوْنَنِي ، وَأَخَذْنَ فِي غِيْبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعَادِينِي وَيَحْسُدُنِي .
فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا الْإِخْوَانُ وَلَا الْأَعْوَانُ وَلَا الْأَصْدِقَاءُ إِلَّا
بِالْمَالِ وَوَجَدْتُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، إِذَا أَرَادَ أَمْرًا ، قَعَدَ بِهِ الْعَدَمُ
عَمَّا يُرِيدُهُ : كَالْمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشُّتَاءِ :
لَا يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ وَلَا يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ ، فَتَشْرَبُهُ أَرْضُهُ . وَوَجَدْتُ

مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ لَا أَهْلَ لَهُ ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ لَا ذِكْرَ لَهُ ، وَمَنْ لَا
 مَالَ لَهُ لَا عَقْلَ لَهُ ، وَلَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةَ لَهُ : لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ
 قَطَعَهُ أَقَارِبُهُ وَإِخْوَانُهُ : فَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السِّبَاخِ ، الْمَأْكُولَةَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، تَحَالِ الْفَقِيرُ الْمُحْتَاجُ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ .
 وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَجَالِبًا إِلَى صَاحِبِهِ كُلِّ مَقْتٍ ،
 وَمَعْدِنَ النَّمِيمَةِ . وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ اتَّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ
 مَوْتَمِنٌ ، وَاسَاءَ بِهِ الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ فِيهِ حَسَنًا : فَإِنْ أَذْنَبَ
 غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتَّهْمَةِ مَوْضِعًا . وَلَيْسَ مِنْ خَلَةٍ هِيَ لِلْغَنِيِّ مَدْحٌ
 إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقِيرِ ذَمٌّ ، فَإِنْ كَانَ شُجَاعًا قِيلَ : أَهْوَجُ ، وَإِنْ كَانَ
 جَوَادًا سُمِّيَ مُبَدِّرًا ، وَإِنْ كَانَ حَلِيمًا سُمِّيَ ضَعِيفًا ، وَإِنْ كَانَ
 وَقُورًا سُمِّيَ بَلِيدًا . فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي تُخَوِّجُ صَاحِبَهَا
 إِلَى الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا سِيَّامَسْأَلَةُ الْأَشْيَاءِ وَاللُّثَامِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ
 كُفِّ أَنْ يَدْخُلَ يَدُهُ فِي فَمِ الْأَفْقَى ، فَيُخْرِجَ مِنْهُ سَمًّا فَيَبْتَلِعَهُ ،
 كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّثِيمِ .
 وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنَانِيرَ فَقَاسَمَهَا النَّاسُكَ ،

فجعل الناسك نصيبه في خريطة عند رأسه لما جن الليل ،
 فطمعت أن أصيب منها شيئاً فأرده إلى جحري ، ورجوت أن
 يزيد ذلك في قوتي ، ويراجعني بسببه بعض أصدقائي . فأنطلقت
 إلى الناسك وهو نائم ، حتى انتهيت عند رأسه ، ووجدت
 الضيف يقظان ، وبيده قضيب ، فضربني على رأسي ضربة
 موجعة ، فسعيت إلى جحري . فلما سكن عني الألم ، هيجني
 الحرص والشره ، فخرجت طمعا كطمعي الأول ، وإذا الضيف
 يرصدني ، فضربني ضربة أسالت مني الدم ، فتقلبت ظهرا
 لبطني إلى جحري ، فحررت مغشيا علي ، فأصابني من الوجع
 ما بغض إلى المال ، حتى لا أسمع بذكره إلا تداخلني من ذكر
 المال رعدة وهيبة . ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما
 يسرقه الحرص والشره ، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب
 ونصب ؛ ووجدت تجشم^(١) الأسفار البعيدة في طلب الدنيا
 أهون علي من بسط اليد إلى السخي بالمال ؛ ولم أركلرضا

شَيْئًا ، فَصَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ رَضِيتُ وَقَنِعْتُ ، وَانْتَقَلْتُ مِنْ
بَيْتِ النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ، وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَمَامِ ، فَسِيقْتُ
إِلَى بِصْدَاقَتِهِ صَدَاقَةً . ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرَابُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ
الْمُودَّةِ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِتْيَانَكَ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيكَ مَعَهُ ،
فَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا يَعْدِلُ صُحْبَةَ
الْإِخْوَانِ ، وَلَا غَمٌّ فِيهَا يَعْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ . وَجَرَّبْتُ : فَعَلِمْتُ
أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَمَسَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي
يَدْفَعُ بِهِ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ : وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ ،
إِذَا اشْتَمَلَ عَلَى صِحَّةِ الْبَدَنِ وَرَفَاهَةِ الْبَالِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَهَبَتْ لَهُ
الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، لَمْ يَكُ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي
يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ لِحَاجَةٍ : فَأَقْبَلْتُ مَعَ الْغُرَابِ إِلَيْكَ عَلَى هَذَا
الرَّأْيِ ، وَأَنَا لَكَ أَخٌ ، فَلَتَكُنْ مَنَزِلَتِي عِنْدَكَ كَذَلِكَ .

فَلَمَّا فَرَغَ الْجُرَذُ مِنْ كَلَامِهِ أَجَابَتْهُ السُّلْحَفَاءُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ
عَذِيبٍ ، وَقَالَتْ : قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا تَحَدَّثْتَ بِهِ !
إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بَقَايَا أُمُورِهِ فِي نَفْسِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ

حُسْنَ الْكَلَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ الْعَمَلِ ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي قَدْ
 عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوِ بِهِ ، لَمْ يُغْنِ عَلَيْهِ بِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَجِدْ
 لِدَائِهِ رَاحَةً وَلَا خِفَةً . فَاسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ ، وَلَا تَحْزَنْ لِقِلَّةِ الْمَالِ :
 فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ : كَالْأَسَدِ الَّذِي
 يَهَابُ ، وَإِنْ كَانَ رَابِضًا ، وَالْغَنِيِّ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يَهَانُ ،
 وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ : كَالْكَلْبِ لَا يُحْفَلُ بِهِ ، وَإِنْ طَوَّقَ
 وَخُلِخِلَ^(١) بِالذَّهَبِ . فَلَا تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ
 لَا غُرْبَةَ لَهُ : كَالْأَسَدِ الَّذِي لَا يَنْقَلِبُ إِلَّا وَمَعَهُ قُوَّتُهُ . فَلْتَحْسِنْ
 تَعَاهُدَكَ لِنَفْسِكَ : فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَاءَكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ
 كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءَ الْحِدَارُهُ . وَإِنَّمَا جُعِلَ الْفَضْلُ لِلْحَازِمِ الْبَصِيرِ
 بِالْأُمُورِ ، وَأَمَّا الْكَسْلَانُ الْمُتَرَدِّدُ فَإِنَّ الْفَضْلَ لَا يَصِحُّ بِهِ . وَقَدْ
 قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا بَقَاءٌ : ظِلُّ الْغَمَامَةِ فِي الصَّيْفِ ،
 وَخُلَّةُ الْأَشْرَارِ ، وَالْبِنَاءُ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ، وَالْمَالُ الْكَثِيرُ :

(١) يمكن أن يكون ما اخوذا من المخلخل وهو موضع الخلخال وإلا فان كلمة خلخل لم ترد صريحا إلا في معنى خلخل العظم أخذ ما عليه من اللحم والمخلخل مشتق فهو يشعر بأن له فعلا وإن لم تذكره المعاجم لأنها لا تعرض للقياس أو هو مما أميت من الكلم .

فَالْعَاقِلُ لَا يَحْزَنُ لِقَلْبِنِهِ ، وَإِنَّمَا مَالُ الْعَاقِلِ عَقْلُهُ ، وَمَا قَدَّمَ
 مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، فَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ لَا يُسَلَبُ مَا عَمِلَ ، وَلَا يُؤَاخَذُ
 بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ ، وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ : فَإِنَّ
 الْمَوْتَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً ، لَيْسَ لَهُ وَقْتُ مُعَيَّنٌ . وَأَنْتَ عَنْ
 مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ . وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْضِيَ
 مَالَكَ مِنْ حَقِّ قَبْلَنَّا : لِأَنَّكَ اخُونَا ، وَمَا عِنْدَنَا مِنَ النُّصْحِ
 مَبْدُولٌ لَكَ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرَابُ كَلَامَ السُّلْحَفَةِ لِلْجُرَذِ ، وَرَدَّهَا عَلَيْهِ ،
 وَمَلَّاطَفَتَهَا إِيَّاهُ فَرِحَ بِذَلِكَ ، وَقَالَ : لَقَدْ سَرَرْتَنِي ، وَأَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ ، وَأَنْتَ جَدِيرٌ أَنْ تُسَرِّيَ نَفْسَكَ بِمِثْلِ مَا سَرَرْتَنِي بِهِ . وَإِنَّ
 أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ الشُّرُورِ مَنْ لَا يَزَالُ رَبْعُهُ مِنْ إِخْوَانِهِ
 وَأَصْدِقَائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا ، وَلَا يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ
 يَسْرُهُمْ وَيَسْرُونَهُ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ
 بِالْمِرْصَادِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكَرَامُ :
 كَالْفِيلِ إِذَا وَحَلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفَيْلَةُ .

فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ فِي كَلَامِهِ ، إِذْ أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَبْيٌ يَسْعَى ،
 فَذِعِرَتْ مِنْهُ السُّلْحَفَاءُ ، فَغَاصَتْ فِي الْمَاءِ ، وَنَجَرَ الْجُرَذُ
 إِلَى بُحْرِهِ ، وَطَارَ الْغُرَابُ ، فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ . ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ حَلَقَ
 فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّبْيِ طَالِبٌ ؟ فَظَرَ فَلَمْ يَرْ شَيْئًا ، فَنَادَى
 الْجُرَذَ وَالسُّلْحَفَاءَ ، وَنَجَرًا ، فَقَالَتِ السُّلْحَفَاءُ لِلظَّبْيِ ، حِينَ
 رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ : أَشْرَبَ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ ، وَلَا تَخَفْ :
 فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْكَ . فَدَنَا الظَّبْيُ ، فَرَحِبَتْ بِهِ السُّلْحَفَاءُ
 وَحَيْثُ ، وَقَالَتْ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أُسْنَحُ^(١)
 بِهَذِهِ الصَّحَارَى ، فَلَمْ تَزَلِ الْأَسَاوِرَةُ^(٢) تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى
 مَكَانٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَحًا . نَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصًا .
 قَالَتْ : لَا تَخَفْ : فَإِنَّا لَمْ نَرْ هَاهُنَا قَانِصًا قَطُّ ، وَنَحْنُ نَبْذُلُ
 لَكَ وَدْنَا وَمَكَانَنَا ، وَالْمَاءَ وَالْمَرْعَى كَثِيرًا عِنْدَنَا : فَارْغَبْ
 فِي صُحْبَتِنَا . فَأَقَامَ الظَّبْيُ مَعَهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ^(٣) يَجْتَمِعُونَ

(١) السائح من الصيد : مامر من المياسر الى الميامن ، والبارح ضده ، والمراد هنا مطلق الرتوع .

(٢) جمع لسوار وهو الراعى بالسهم .

(٣) مكان يستظل به .

فِيهِ ، وَبِتَذَاكُرُونَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ . فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ وَالْجُرَذُ
وَالسُّلْحَفَاءُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ ، غَابَ الظَّيُّ ، فَتَوَقَّعُوهُ سَاعَةً ،
فَلَمْ يَأْتِ . فَلَمَّا أَبْطَأَ^(١) أَشْفَقُوا^(٢) أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ^(٣) ،
فَقَالَ الْجُرَذُ وَالسُّلْحَفَاءُ لِلْغُرَابِ : أَنْظِرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا شَيْئًا ؟
فَخَلَّقَ الْغُرَابُ فِي السَّمَاءِ فَنَظَرَ : فَإِذَا الظَّيُّ فِي الْحَبَائِلِ مُقْتَنَصًا ،
فَانْقَضَ مُسْرِعًا ، فَأَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ ، فَقَالَتِ السُّلْحَفَاءُ وَالْغُرَابُ
لِلْجُرَذِ : هَذَا أَمْرٌ لَا يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ ، فَأَغِثْ أَخَاكَ . فَسَعَى
الْجُرَذُ مُسْرِعًا ، فَأَتَى الظَّيَّ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هَذِهِ
الْوَرَطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الْأَنْكِيَاسِ^(٣) ؟ قَالَ الظَّيُّ : هَلْ يُغْنِي الْكَيْسُ
مَعَ الْمَقَادِيرِ شَيْئًا ، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الْحَدِيثِ إِذْ وَافَتْهُمَا السُّلْحَفَاءُ ،
فَقَالَ لَهَا الظَّيُّ . مَا أَصَبْتَ بِمَجِيئِكَ إِلَيْنَا : فَإِنَّ الْقَانِصَ لَوْ
انْتَهَى إِلَيْنَا وَقَدْ قَطَعَ الْجُرَذُ الْحَبَائِلَ اسْتَبَقْتَهُ عَدُوًّا ، وَلِالْجُرَذِ
أَجْحَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَالْغُرَابُ يَطِيرُ ، وَأَنْتَ ثَقِيلَةٌ : لَا سَعَى لَكَ
وَلَا حَرَكَةٌ ، وَأَخَافُ عَلَيْكَ الْقَانِصَ . قَالَتْ : لَا عَيْشَ مَعَ

(١) خافوا . (٢) وقوع في أمر شاق . (٣) جمع كَيْس وهو الفطن الظريف .

فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ ، وَإِذَا فَارَقَ الْأَلِيفُ الْإِيفَهُ فَقَدْ سَلِبَ قُوَادَهُ ،
وَحَرِمَ مَرُورَهُ ، وَغَشِيَ بَصَرَهُ . فَلَمْ يَنْتَهِ كَلَامُهَا حَتَّى وَافَى
الْقَانِصُ ، وَوَافَقَ ذَلِكَ فَرَاعَ الْجُرْدُ مِنْ قَطْعِ الشَّرِكِ ، فَنَجَا
الطَّيُّ بِنَفْسِهِ ، وَطَارَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ
الْأَجْحَارِ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السُّلْحَفَةِ ، وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ
مُقَطَّعَةً ، فَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السُّلْحَفَةِ تَدِبُ ، فَأَخَذَهَا
وَرَبَطَهَا ، فَلَمْ يَلْبَثِ الْغُرَابُ وَالْجُرْدُ وَالطَّيُّ أَنْ اجْتَمَعُوا فَنَظَرُوا
الْقَانِصَ قَدْ رَبَطَ السُّلْحَفَةَ ، فَاشْتَدَّ حَزْنُهُمْ ، وَقَالَ الْجُرْدُ :
مَا أَرَانَا نُبْجَازُ عَقَبَةٍ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا صِرْنَا فِي أَشَدِّ مِنْهَا . وَلَقَدْ
صَدَقَ الَّذِي قَالَ : لَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَعْثُرْ ،
فَإِذَا عَثَرَ^(١) بَلَغَ بِهِ الْعِثَارُ ، وَإِنْ مَشَى فِي جَدَدِ الْأَرْضِ^(٢) . وَحَذَرِي
عَلَى السُّلْحَفَةِ خَيْرَ الْأَصْدِقَاءِ الَّتِي خَلَّتْهَا لَيْسَتْ لِلْمُجَازَاةِ وَلَا
لِالْتِمَاسِ مُكَافَأَةً ، وَلَكِنَّهَا خُلَّةُ الْكَرَمِ وَالشَّرَفِ ، خُلَّةٌ هِيَ

(٣) الخلة : الصداقة .

(٢) الأرض الغليظة المستوية .

(١) تمادى .

أَفْضَلُ مِنْ خُلَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ ، خُلَّةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْمَوْتُ . وَيَجْهَدُ
 لِهَذَا الْجَسَدِ الْمُوَكَّلِ بِهِ الْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ وَتَقَلُّبٍ ،
 وَلَا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ : كَمَا لَا يَدُومُ لِلطَّالِعِ
 مِنَ النُّجُومِ طُلُوعٌ ، وَلَا لِلْأَفِلِ مِنْهَا أَفُولٌ ، لَكِنْ لَا يَزَالُ الطَّالِعُ
 مِنْهَا أَفِلًا ، وَالْأَفِلُ طَالِعًا ، وَكَمَا تَكُونُ آلامُ الْكُلُومِ ^(١) وَانْتِقَاضُ
 الْجِرَاحَاتِ ، كَذَلِكَ مَنْ قَرِحَتْ كَلِمَتُهُ بِفَقْدِ إِخْوَانِهِ بَعْدَ
 اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ . فَقَالَ الظَّيُّ وَالْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : إِنَّ حَذَرَنَا وَحَذَرَكَ
 وَكَلَامَكَ ، وَإِنْ كَانَ بَالِغًا ، كُلُّ مِنْهَا لَا يُغْنِي عَنِ السَّلْحَفَةِ
 شَيْئًا . وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ : إِنْمَا يُخْتَبَرُ النَّاسُ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَذُو
 الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ، وَالْأَهْلُ وَالْوَلَدُ عِنْدَ الْفَاقَةِ ؛ كَذَلِكَ
 يُخْتَبَرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ . قَالَ الْجُرَذُ : أَرَى مِنْ الْحِيلَةِ أَنَّ
 تَذَهَبَ ، أَيُّهَا الظَّيُّ ، فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ : كَأَنَّكَ جَرِيحٌ ،
 وَيَقَعُ الْغُرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ ، وَأَسْعَى أَنَا فَأَكُونُ قَرِيبًا
 مِنَ الْقَانِصِ ، مُرَاقِبًا لَهُ ، فَعَلَّهُ أَنْ يَرِي مَا مَعَهُ مِنَ الْآلَةِ ،

(١) جمع كلم وهو الجرح .

وَيَضَعُ السُّلْحَفَاةَ ، وَيَقْصِدُكَ طَامِعًا فِيكَ ، رَاجِيًا تَحْصِيلَكَ .
فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَفِرَّ عَنْهُ رُويْدًا : بِحَيْثُ لَا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ مِنْكَ ،
وَمَكِنَهُ مِنْ أَخَذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، حَتَّى يَبْعُدَ عَنَّا ، وَأَنْحُ مِنْهُ
هَذَا النَّحْوَ مَا اسْتَطَعْتَ : فَإِنِّي أَرْجُو إِلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا وَقَدْ
قَطَعْتَ الْحَبَائِلَ عَنِ السُّلْحَفَاةِ ، وَأَنْجُو بِهِمَا . فَفَعَلَ الْغُرَابُ
وَالظُّبْيُ مَا أَمَرَهُمَا بِهِ الْجُرْدُ ، وَتَبِعَهُمَا الْقَانِصُ ، فَاسْتَجَرَّهُ الظُّبْيُ ،
حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْجُرْدِ وَالسُّلْحَفَاةِ ، وَالْجُرْدُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ
الْحَبَائِلِ ، حَتَّى قَطَعَهَا ، وَنَجَّى بِالسُّلْحَفَاةِ ، وَعَادَ الْقَانِصُ
مَجْهُودًا لَا غِبًا ^(١) فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ مُقَطَّعَةً . فَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظُّبْيِ
الْمُتْظَالِعِ ^(٢) ، فَظَنَّ أَنَّهُ خُوِلِطَ فِي عَقْلِهِ ، وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الظُّبْيِ
وَالْغُرَابِ الَّذِي كَانَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ ، وَقَرِضَ حِبَالَتَهُ ، فَاسْتَوْحَشَ
مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ : هَذِهِ أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ . فَرَجَعَ مُوَلِيًّا
لَا يَلْتَمِسُ شَيْئًا ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ . وَاجْتَمَعَ الْغُرَابُ وَالظُّبْيُ
وَالْجُرْدُ وَالسُّلْحَفَاةُ إِلَى عَرِيشِهِمْ سَا لِمِينَ آمِنِينَ كَأَخْسَنِ
مَا كَانُوا عَلَيْهِ .

(١) تعب . (٢) المتظاهر بالظلم وهو مشى شبيه بالمرج .

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْخَلْقُ مَعَ صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ قَدْ قَدَرَ عَلَى التَّخَلُّصِ
 مِنْ مَرَابِطِ الْهَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ وَخُلُوصِهَا ، وَثَبَاتِ
 قَلْبِهِ عَلَيْهَا ، وَاسْتِمْتَاعِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، فَأَلَا لِنَسَانُ
 الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ . وَالْهُمَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَمُنِحَ
 التَّمْيِيزَ وَالْمَعْرِفَةَ ، أَوَّلَى وَأُخْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاصُدِ . فَهَذَا مِثْلُ
 إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَاتِّلَافِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ .

(انقضى باب الحماة المطوقة)

بَابُ الْيَوْمِ وَالْغُرَبَانِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مِثْلَ إِخْوَانِ
 الصَّفَاءِ وَتَعَاوُنِهِمْ ، فَاضْرِبْ لِي مِثْلَ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ
 يُغْتَرَّ بِهِ ، وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعًا وَمَلَقًا . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : مَنْ آغْتَرَّ
 بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَدُوًّا ، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْيَوْمَ مِنَ الْغُرَبَانِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ
 الدَّوَجِ^(١) ، فِيهَا وَكَرُّ أَلْفِ غُرَابٍ ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ؛

(١) جمع دوحه وهي الشجرة العظيمة .

وَكَانَ عِنْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيهِ أَلْفُ بَوْمَةٍ ، وَعَلَيْهِنَّ وَالِ
 مِنْهُنَّ . فَخَرَجَ مَلِكُ الْبُومِ لِبَعْضِ غُدُوَاتِهِ^(١) وَرَوْحَاتِهِ ؛ وَفِي نَفْسِهِ
 الْعَدَاوَةُ لِمَلِكِ الْغُرَبَانِ ؛ وَفِي نَفْسِ الْغُرَبَانِ وَمَلِكِهَا مِثْلُ ذَلِكَ
 لِلْبُومِ ؛ فَأَغَارَ مَلِكُ الْبُومِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى الْغُرَبَانِ فِي أَوْكَارِهَا ،
 فَقَتَلَ وَسَبَى مِنْهَا خَلْقًا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ الْغَارَةُ لَيْلًا ؛ فَلَمَّا
 أَصْبَحَتِ الْغُرَبَانُ اجْتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ
 مَا لَقِينَا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ الْبُومِ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ أَصْبَحَ قَتِيلًا
 أَوْ جَرِيحًا أَوْ مَكْسُورَ الْجَنَاحِ أَوْ مَشْتُوفَ الرِّيشِ أَوْ مَقْطُوفَ الذَّنَبِ
 وَأَشَدَّ مِمَّا أَصَابَنَا ضَرًّا عَلَيْنَا جَرَاءَتُهُنَّ عَلَيْنَا ، وَعَلَيْهِنَّ بِمَكَانِنَا ،
 وَهُنَّ عَائِدَاتُ إِلَيْنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَاتٍ عَنَّا : لِعَلَّيْهِنَّ بِمَكَانِنَا : فَإِنَّمَا
 نَحْنُ لَكَ ، وَلَكَ الرَّأْيُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَانْظُرْ لَنَا وَلِنَفْسِكَ .
 وَكَانَ فِي الْغُرَبَانِ خَمْسَةٌ مُعْتَرِفُونَ لَهُنَّ بِحُسْنِ الرَّأْيِ ، يُسْنَدُ إِلَيْهِنَّ
 فِي الْأُمُورِ ، وَيُلْقَى عَلَيْهِنَّ أَرْمَةٌ الْأُخُوَالِ . وَكَانَ الْمَلِكُ كَثِيرًا
 مَا يُسَاوِرُهُنَّ فِي الْأُمُورِ ، وَيَأْخُذُ آرَاءَهُنَّ فِي الْحَوَادِثِ
 وَالنَّوَازِلِ .

(١) جمع غُدوة وهي الذهاب في البكرة .

فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْأَوَّلِ مِنَ الْخَمْسَةِ : مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟
 قَالَ : رَأَيْي قَدْ سَبَقْتَنَا إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ
 لِلْعَدُوِّ الْحَقُّ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ ^(١) . قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّانِي : مَا رَأَيْكَ
 أَنْتَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟ قَالَ : رَأَيْي مَا رَأَى هَذَا مِنَ الْهَرَبِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : لَا أَرَى لَكُمَا ذَلِكَ رَأْيًا ، أَنْ تَرْحَلَ عَنْ أَوْطَانِنَا
 وَتُخْلِيَهَا لِعَدُونِنَا مِنْ أَوَّلِ نَكْبَةٍ أَصَابَتْنَا مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ ،
 وَلَكِنْ نَجْمَعُ أَمْرَنَا ، وَنَسْتَعِدُّ لِعَدُونِنَا ، وَنُذَكِّي نَارَ الْحَرْبِ فِيهَا ^(٢)
 بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُونِنَا ، وَنُخْتَرِسُ مِنَ الْغِرَّةِ ^(٣) إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْنَا ، فَنَلْقَاهُ
 مُسْتَعِدِّينَ ، وَنُقَاتِلُهُ قِتَالًا غَيْرَ مُرَاجِعِينَ فِيهِ ، وَلَا مُقْصِرِينَ
 عَنْهُ ، وَتَلْقَى أَطْرَافُنَا أَطْرَافَ الْعَدُوِّ ، وَنُحَرِّزُ بِحُصُونِنَا ، وَنُدَافِعُ
 عَدُونَنَا : بِالْأَنَاءِ ^(٤) مَرَّةً ، وَبِالْجَلَادِ أُخْرَى ، حَيْثُ نَصِيبُ فُرْصَتَنَا
 وَبُغْيَتَنَا ، وَقَدْ ثَنَيْنَا عَدُونَنَا عَنَّا .

ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّالِثِ : مَا رَأَيْكَ أَنْتَ ؟ قَالَ : مَا أَرَى مَا قَالَا
 رَأْيًا . وَلَكِنْ نَبْثُ الْعُيُونِ ، وَنَبْعَثُ الْجَوَاسِيسَ ، وَنُرْسِلُ

(١) المقتاظ . (٢) نوخذ . (٣) الغفلة . (٤) المضاربة بالسيوف .

الطَّلَائِعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُونَا ، فَتَعْلَمُ أَيُّرِيدُ صَلَاحَنَا أَمْ يُرِيدُ حَرْبَنَا
أَمْ يُرِيدُ الْفِدْيَةَ ؟ فَإِنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ أَمْرَ طَامِعٍ فِي مَالٍ ، لَمْ نَكْرَهُ
الصُّلْحَ عَلَى خَرَايِجٍ نُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا .
وَنَظْمِنُ فِي أَوْطَانِنَا : فَإِنْ مِنْ آرَاءِ الْمُلُوكِ إِذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ
عَدُوِّهِمْ ، نَخَافُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ ، أَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْوَالَ
جُنَّةَ الْبِلَادِ وَالْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ . قَالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ : فَمَا رَأَيْكَ
فِي هَذَا الصُّلْحِ ؟ قَالَ لَا أَرَاهُ رَأْيًا ، بَلْ أَنْ نَفَارِقَ أَوْطَانَنَا
وَنَصْبِرَ عَلَى الْغُرْبَةِ وَشِدَّةِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ أَحْسَابَنَا
وَنَخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ ، مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْ عَرَضْنَا
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لَمَا رَضِينَ مِنْهُ إِلَّا بِالشَّطِطِ^(١) . وَيُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ :
قَارِبَ عَدُوِّكَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ : لِتَنَالَ حَاجَتَكَ . وَلَا تُقَارِبُهُ
كُلَّ الْمُقَارَبَةِ : فَيَجْتَرِئَ عَلَيْكَ ، وَيُضْعِفَ جُنْدَكَ ، وَتَذَلَّ
نَفْسُكَ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْخَشَبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ : إِذَا

أَمَلَتْهَا قَلِيلًا زَادَ ظِلُّهَا ، وَإِذَا جَاوَزَتْ بِهَا الْحَدَّ فِي إِمَالَتِهَا نَقَصَ
الظِّلُّ . وَلَيْسَ عَدُونًا رَاضِيًا مِنَّا بِالذُّونِ فِي الْمُقَارَبَةِ . فَالرَّأْيُ
لَنَا وَلَكَ الْمُحَارَبَةُ .

قَالَ الْمَلِكُ لِلْخَامِسِ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ وَمَاذَا تَرَى : الْقِتَالَ
أَمْ الصَّلَحَ أَمْ الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ ؟ قَالَ : أَمَّا الْقِتَالُ فَلَا سَبِيلَ
لِلْمَرْءِ إِلَى قِتَالِ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ
نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ ، وَقَاتَلَ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى
حَتْفِهَا ، مَعَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَسْتَصْغِرُ عَدُوًّا : فَإِنَّ مَنْ اسْتَصْغَرَ
عَدُوَّهُ اغْتَرَبَ بِهِ ، وَمَنْ اغْتَرَبَ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ . وَأَنَا لِلْيَوْمِ شَدِيدُ
الْهَيْبَةِ ، وَإِنْ أَضْرَبَنَّ عَنْ قِتَالِنَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ ،
فَإِنَّ الْحَازِمَ لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِنْ كَانَ بَعِيدًا
لَمْ يَأْمَنُ سَطَوَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَبًا ^(١) لَمْ يَأْمَنُ وَثْبَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ وَحِيدًا
لَمْ يَأْمَنُ مَكْرَهُ . وَأَخْزَمُ الْأَقْوَامِ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ كَرِهَ الْقِتَالَ لِأَجْلِ
النَّفَقَةِ فِيهِ : فَإِنَّ مَا دُونَ الْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْقَوْلِ

وَالْعَمَلِ ، وَالْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ . فَلَا
يَكُونَنَّ الْقِتَالُ لِلْبُومِ مِنْ رَأْيِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ
مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِهِ ^(١) . فَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ مُحَصَّنًا
لِلْأَسْرَارِ ، مُتَخَيِّرًا لِلْوُزَرَاءِ ، مَهِيئًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، بَعِيدًا مِنْ
أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ ، كَانَ خَلِيقًا إِلَّا يُسَلَّبَ صَحِيحَ مَا أُوتِيَ مِنْ
الْخَيْرِ . وَأَنْتَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كَذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرِ
جَوَابِكَ مِنِّي عَنْهُ ، فِي بَعْضِهِ عَلَانِيَةً ، وَفِي بَعْضِهِ سِرًّا
وَلِلْأَسْرَارِ مَنَازِلُ : مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرَّهْطُ ^(٢) ، وَمِنْهَا مَا يُسْتَعَانُ
فِيهِ بِالْقَوْمِ ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرِّجَالَانِ . وَلَسْتُ أَرَى لِهَذَا
السَّرِّ عَلَى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشَارَكَ فِيهِ إِلَّا أَرْبَعُ آذَانٍ وَلِسَانَانِ .
فَنَهَضَ الْمَلِكُ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَخَلَا بِهِ ، فَاسْتَشَارَهُ ، فَكَانَ أَوَّلَ
مَا سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ أَنَّهُ قَالَ : هَلْ تَعْلَمُ ابْتِدَاءَ عَدَاوَةِ مَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْبُومِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : كَلِمَةً تَكَلَّمَ بِهَا غُرَابٌ . قَالَ
الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) عرضها للهلكة . (٢) قوم الرجل وفيه .

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْكَرَّاكِيِّ لَمْ يَكُنْ لَهَا
 مَلِكٌ ، فَأَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى أَنْ يُمْلِكُنَ عَلَيْهِنَّ مَلِكَ الْيَوْمِ ،
 فَبَيْنَمَا هِيَ فِي جَمْعِهَا إِذْ وَقَعَ لَهَا غُرَابٌ ، فَقَالَتْ : لَوْ جَاءَنَا
 هَذَا الْغُرَابُ لَأَسْتَشَرْنَاهُ فِي أَمْرِنَا ، فَلَمْ يَلْبَثَنَّ دُونَ أَنْ جَاءَهُنَّ
 الْغُرَابُ . فَاسْتَشَرْنَهُ ، فَقَالَ : لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ مِنَ الْأَقَالِيمِ ،
 وَفَقِدَ الطَّاوُسُ وَالْبَطُّ وَالنَّعَامُ وَالْحَمَامُ مِنَ الْعَالَمِ لَمَا اضْطُرَّتْ
 إِلَى أَنْ تُمْلِكُنَ عَلَيْكُنَّ الْيَوْمَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنَظَرًا ،
 وَأَسْوَأُهَا خُلُقًا ، وَأَقْلَاهَا عَقْلًا ، وَأَشَدُّهَا غَضَبًا ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ
 كُلِّ رَحْمَةٍ ، مَعَ عَمَاهَا وَمَا بِيهَا مِنَ الْعِشَاءِ بِالنَّهَارِ ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ
 وَأَقْبَحُ أُمُورِهَا سَفَهُهَا وَسُوءُ أَخْلَاقِهَا ، إِلَّا أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُمْلِكَنَّهَا
 وَتَكُنَّ أَنْتِ تَدِيرِينَ الْأُمُورَ دُونَهَا بِرَأْيِكُنَّ وَعُقُولِكُنَّ ، كَمَا فَعَلْتَ
 الْأَرْنبُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ الْقَمَرَ مَلِكُهَا ، ثُمَّ عَمِلَتْ بِرَأْيِهَا . قَالَ
 الطَّيْرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْضًا مِنْ أَرْضِي الْفِيلَةِ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا
 السُّنُونُ ، وَأَجْدَبَتْ ، وَقَلَّ مَآوُهَا ، وَغَارَتْ عُيُونُهَا ، وَذَوَى
 نَبْتُهَا ، وَيَبَسَ شَجَرُهَا ، فَأَصَابَ الْفِيلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ : فَشَكَّوْنَ
 ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِنَّ ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ رُسُلَهُ وَرَوَّادَهُ فِي طَلَبِ
 الْمَاءِ ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ . فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ ، فَأَخْبَرَهُ
 إِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانٍ كَذَا عَيْنًا يُقَالُ لَهَا عَيْنُ الْقَمَرِ ، كَثِيرَةُ
 الْمَاءِ . فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الْفِيلَةِ بِأَصْحَابِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَيْنِ لِيَشْرَبَ مِنْهَا
 هُوَ وَفِيلَتُهُ . وَكَانَتِ الْعَيْنُ فِي أَرْضٍ لِلْأَرَانِبِ ، فَوَطَّنَ
 الْأَرَانِبُ فِي أَجْحَارِهِنَّ ، فَأَهْلَكَنَّ مِنْهُنَّ كَثِيرًا . فَاجْتَمَعَتْ
 الْأَرَانِبُ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْفِيلَةِ
 فَقَالَ : لِيُحْضَرْ مِنْكُنَّ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيَهُ . فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ
 مِنَ الْأَرَانِبِ يُقَالُ لَهَا فَيْرُوزُ . وَكَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُهَا بِحُسْنِ
 الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ ، فَقَالَتْ : إِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ يَبْعَثَنِي إِلَى الْفِيلَةِ
 وَيُرْسِلَ مَعِيَ أَمِينًا ، لِيَرَى وَيَسْمَعَ مَا أَقُولُ ، وَيَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ .
 فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ : أَنْتَ أَمِينَةٌ ، وَنَرْضَى بِقَوْلِكَ ، فَانْطَلِقِي إِلَى

الْفِيلَةَ ، وَبَلَّغَنِي عَنِّي مَا تُرِيدِينَ . وَاعْلَمِي أَنَّ الرُّسُولَ بِرَأْيِهِ
وَعَقْلِهِ ، وَلِينِهِ وَفَضْلِهِ ، يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ الْمُرْسِلِ . فَعَلَيْكَ بِاللِّينِ
وَالرَّفَقِ ، وَالْحِلْمِ وَالتَّائِي : فَإِنَّ الرُّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلِينُ الصُّدُورَ
إِذَا رَفَقَ ، وَيُخَشِّنُ الصُّدُورَ إِذَا خَرَّقَ ^(١) . ثُمَّ إِنَّ الْأَرْنبَ
انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ ، حَتَّى اتَّهَتْ إِلَى الْفِيلَةِ ، وَكَرِهَتْ أَنْ
تَدْنُو مِنْهُمْ : مَخَافَةَ أَنْ يَطَّانَهَا بِأَرْجُلِهِمْ ، فَيَقْتُلْنَهَا ، وَإِنْ كُنَّ
غَيْرَ مُتَعَمِّدَاتٍ . ثُمَّ أَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، وَنَادَتْ مَلِكَ الْفِيلَةِ ،
وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ ، وَالرُّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيمَا
يُبَلِّغُ ، وَإِنْ أَغْلَظَ فِي الْقَوْلِ . قَالَ مَلِكُ الْفِيلَةِ : فَمَا الرِّسَالَةُ ؟
قَالَتْ : يَقُولُ لَكَ : إِنَّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّعْفَاءِ ،
فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ فِي شَأْنِ الْأَقْوِيَاءِ ، قِيَاسًا لَهُمْ عَلَى الضُّعْفَاءِ ، كَانَتْ
قُوَّتُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ . وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوَابِّ ،
فَغَرَّكَ ذَلِكَ ، فَعَمَدْتَ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي ، فَشَرِبْتَ
مِنْهَا ، وَكَدَرْتَهَا . فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ : فَأَنْذِرُكَ إِلَّا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ

ذَلِكَ . وَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أُغَشِّ بِصْرِكَ ، وَأَتْلِفَ نَفْسَكَ .
وإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي ، فَهَلُمَّ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ :
فَإِنِّي مُوَافِقٌ بِهَا . فَعَجِبَ مَلِكُ الْفِيلَةِ مِنْ قَوْلِ الْأَرْنبِ ،
فَانْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيْرُوزِ الرَّسُولِ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا ، رَأَى
ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهَا . فَقَالَتْ لَهُ فَيْرُوزُ الرَّسُولِ : خُذْ بِحُرْطُومِكَ
مِنَ الْمَاءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ ، وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ . فَأَدْخَلَ الْفِيلُ
حُرْطُومَهُ فِي الْمَاءِ ، فَتَحَرَكَ نَحِيلٌ لِلْفِيلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ .
فَقَالَ : مَا شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ ؟ أَتَرَاهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخَالِي
الْحُرْطُومَ فِي الْمَاءِ ؟ قَالَتْ فَيْرُوزُ الْأَرْنبِ : نَعَمْ . فَسَجَدَ الْفِيلُ
لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ ، وَشَرَطَ إِلَّا يَعُودَ
إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ فِيلَتِهِ . قَالَ الْغَرَابُ : وَمَعَ
مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ إِنَّ فِيهَا انْخَبَاطَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ ، وَشَرُّ
الْمُلُوكِ الْخَادِعِ ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانٍ مُخَادِعٍ ، وَخَدَمَهُ ، أَصَابَهُ
مَا أَصَابَ الْأَرْنبَ وَالصِّفْرِدَ حِينَ اخْتَكَمَا إِلَى السُّنُورِ ^(١) . قَالَتْ
الْكِرَاكِيُّ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) طائر جبان كنيته أبو الملبح .

قَالَ الْغُرَابُ : كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الصَّفَارِدَةِ ، فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ
 قَرِيبَةٍ مِنْ وَكْرِي ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُوَاصَلَتِي ، ثُمَّ فَقَدْتُهُ ، فَلَمْ أَعْلَمْ
 أَيْنَ غَابَ ، وَطَلَّاتْ غَيْبَتُهُ عَنِّي . فَجَاءَتْ أَرْنبٌ إِلَى مَكَانِ
 الصِّفْرِدِ ، فَسَكَنَتْهُ ، فَكَرِهَتْ أَنْ أَخَاصِمَ الْأَرْنبَ ، فَلَبِثَتْ
 فِيهِ زَمَانًا . ثُمَّ إِنَّ الصِّفْرِدَ عَادَ بَعْدَ زَمَانٍ ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ ، فَوَجَدَ
 فِيهِ الْأَرْنبَ . فَقَالَ لَهَا : هَذَا الْمَكَانُ لِي ، فَانْتَقِلِي عَنْهُ .
 قَالَتِ الْأَرْنبُ : الْمَسْكَنُ لِي ، وَتَحْتَ يَدِي ، وَأَنْتِ مُدَّعِيَةٌ لَهُ .
 فَإِنْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فَاسْتَعِدِّي بِإِثْبَاتِهِ عَلَيَّ . قَالَ الصِّفْرِدُ : الْقَاضِي
 مِنَّا قَرِيبٌ : فَهَيَّيْ بِنَا إِلَيْهِ . قَالَتِ الْأَرْنبُ : وَمَنِ الْقَاضِي ؟
 قَالَ الصِّفْرِدُ : إِنَّ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ سَنُورًا مُتَعَبِّدًا ، يَصُومُ النَّهَارَ ،
 وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ ، وَلَا يُؤْذِي دَابَّةً ، وَلَا يُهْرِيقُ دَمًا ، عَيْشُهُ
 مِنَ الْحَشِيشِ وَمِمَّا يَقْدِفُهُ إِلَيْهِ الْبَحْرُ . فَإِنْ أُخْبِيتِ تَحَاكَمْنَا
 إِلَيْهِ ، وَرَضِينَا بِهِ . قَالَتِ الْأَرْنبُ : مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا
 وَصَفْتَ ! فَاَنْطَلَقَا إِلَيْهِ ، فَتَبِعَتْهُمَا لِأَنْظُرَ إِلَى حُكُومَةِ الصَّوَامِ
 الْقَوَامِ . ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا بَصُرَا السَّنُورَ بِالْأَرْنبِ وَالصِّفْرِدِ

مُقْبِلِينَ نَحْوَهُ ، انْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي ، وَأَظْهَرَ الْخُشُوعَ
وَالْتَنَسَكَ . فَعَجِبَا لِمَا رَأَيَا مِنْ حَالِهِ ، وَدَنُوا مِنْهُ هَائِبِينَ لَهُ ،
وَسَلَّمَا عَلَيْهِ ، وَسَأَلَاهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا . فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقْضَا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَقَعَلَا . فَقَالَ لَهُمَا : قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ، وَثَقُلَتْ
أُذُنَايَ : فَادْنُوا مِنِّي ، فَأَسْمِعَانِي مَا تَقُولَانِ . فَدَنُوا مِنْهُ ، وَأَعَادَا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، وَسَأَلَاهُ الْحُكْمَ . فَقَالَ قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا ، وَأَنَا
مُبْتَدِئُكُمْ بِالنَّصِيحَةِ قَبْلَ الْحُكْمَةِ بَيْنَكُمَا : فَأَنَا أَمْرُكُمْ بِتَقْوَى
اللَّهِ وَالْأَلَّا تَطْلُبَا إِلَّا الْحَقَّ : فَإِنَّ طَالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ ،
وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ ، وَطَالِبَ الْبَاطِلِ مُخْصُومٌ ، وَإِنْ قُضِيَ لَهُ .
وَلَيْسَ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ ، لَا مَالٌ وَلَا صَدِيقٌ
سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ ، فَذُو الْعَقْلِ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ
سَعِيهِ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَدًا ، وَأَنْ يُمَقِّتَ
بِسَعْيِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا : فَإِنَّ مَنَزِلَةَ الْمَالِ عِنْدَ
الْعَاقِلِ بِمَنَزِلَةِ الْمَدَرِ^(١) ، وَمَنَزِلَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيمَا يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ
وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنَزِلَةِ نَفْسِهِ . ثُمَّ إِنَّ السُّنُورَ لَمْ يَزَلْ يَقْصُ

(١) واحدة مدرة وهو قطع الطين اليابس والحجارة .

عَلَيْهِمَا مِنْ جَنْسِ هَذَا وَأَشَاهِهِ ، حَتَّى أَنْسَا إِلَيْهِ ، وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ ،
وَدَنَوَا مِنْهُ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا .

قَالَ الْغُرَابُ : ثُمَّ إِنَّ الْيَوْمَ تَجْمَعُ — مَعَ مَا وَصَفْتُ لَكُنَّ
مِنَ الشُّومِ — سَائِرَ الْعُيُوبِ : فَلَا يَكُونَنَّ تَمْلِيكَ الْيَوْمَ مِنْ
رَأْيِكَ . فَلَمَّا سَمِعَ الْكَرَّاءِيُّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْغُرَابِ أَضْرَبَ
عَنْ تَمْلِيكَ الْيَوْمِ . وَكَانَ هُنَاكَ يَوْمٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا ،
فَقَالَ لِلْغُرَابِ : لَقَدْ وَتَرْتَنِي أَعْظَمَ التَّرَةِ ، وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي^(١)
إِلَيْكَ سُوءٌ أَوْجَبَ هَذَا . وَبَعْدُ فَاَعْلَمْ أَنَّ الْفَأْسَ يَقْطَعُ بِهِ الشَّجَرُ ،
فَيَعُودُ يَنْبُتُ ، وَالسَّيْفُ يَقْطَعُ اللَّحْمَ ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْدَمِلُ ، وَاللِّسَانَ^(٢)
لَا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ وَلَا تَوْسِي مَقَاطِعُهُ . وَالنَّضْلَ مِنَ السَّهْمِ
يَغِيبُ فِي اللَّحْمِ ، ثُمَّ يُنَزَعُ فَيُخْرِجُ ، وَأَشْبَاهُ النَّضْلِ مِنَ الْكَلَامِ
إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ تُنَزَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرِجْ . وَلِكُلِّ حَرِيقٍ
مُطْفِئٌ : فَلِلنَّارِ الْمَاءُ ، وَلِلسَّمِّ الدَّوَاءُ ، وَلِلْحَزَنِ الصَّبْرُ ، وَنَارُ
الْحَقْدِ لَا تَحْبُو أَبَدًا . وَقَدْ غَرَسْتُمْ ، مَعَاشِرَ الْغُرَبَانِ ، بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ .

(١) أصبنتي بأذى عظيم : جعل لك في قلبي عداوة لا تمحى وحقدا لا يزول . (٢) تداوى .

فَلَمَّا قَضَى الْيَوْمَ مَقَالَتَهُ ، وَلَّى مُغَضَّبًا ، فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْيَوْمِ
بِمَا جَرَى وَبِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْغُرَابِ ، ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ نَدِمَ
عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ خَرُفْتُ فِي قَوْلِي الَّذِي
جَلَبْتُ بِهِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ عَلَى نَفْسِي وَقَوْمِي ! وَلَيْتَنِي لَمْ أَخْبِرِ
الْكِرَاكِي بِهَذِهِ الْحَالِ ! وَلَا أَغْلَبْتُهَا بِهَذَا الْأَمْرِ ! وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ
قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ ، وَعَلِمَ أَضْعَافَ مَا عَلِمْتُ ، فَمَنْعَهَا
مِنَ الْكَلَامِ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُ اتِّقَاءً مَا لَمْ أَتَقِ ، وَالنَّظْرُ فِيمَا
لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ مِنْ حِذَارِ الْعَوَاقِبِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ أَفْطَحَ
كَلَامَ ، يَلْقَى مِنْهُ سَامِعُهُ وَقَائِلُهُ الْمَكْرُوهَ مِمَّا يُورِثُ الْحِفْدَ
وَالضَّغِينَةَ ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَشْبَاهِ هَذَا الْكَلَامِ أَنْ تُسَمَّى كَلَامًا ،
وَلَكِنْ سِهَامًا . وَالْعَاقِلُ ، وَإِنْ كَانَ وَاثِقًا بِقُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ ،
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلِبَ الْعَدَاوَةَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّكَالًا
عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ ، كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ التَّوَيُّاقُ^(١)
لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ السَّمَّ اتِّكَالًا عَلَى مَا عِنْدَهُ . وَصَاحِبُ

حُسْنِ الْعَمَلِ ، وَإِنْ قَصَرَ بِهِ الْقَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ ، كَانَ فَضْلُهُ
بَيْنًا وَاضِحًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْإِخْتِبَارِ ، وَصَاحِبُ حُسْنِ الْقَوْلِ ،
وَإِنْ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْنُ صِفَتِهِ لِلْأُمُورِ ، لَمْ تُنْجِزْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ .
وَأَنَا صَاحِبُ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عَاقِبَةَ لَهُ مُخْمُودَةٌ . أَلَيْسَ مِنْ
سَفَهِي اجْتِرَائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ لَا اسْتِشِيرُ فِيهِ
أَحَدًا ، وَلَمْ أَعْمَلْ فِيهِ رَأْيًا ؟ وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرِ النُّصَحَاءَ الْأَوْلِيَاءَ ،
وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَرُّارِ النَّظَرِ وَالرَّوْيَةِ ، لَمْ يَغْتَبِطْ بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ .
فَمَا كَانَ أَغْنَانِي عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هَذَا ، وَمَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ الْهَمِّ !
وَعَاتَبَ الْغُرَابُ نَفْسَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ وَذَهَبَ . فَهَذَا
مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْ ابْتِدَاءِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ .

وَأَمَّا الْقِتَالُ فَقَدْ عَلِمْتَ رَأْيِي فِيهِ ، وَكَرَاهَتِي لَهُ ، وَلَكِنْ عِنْدِي
مِنْ الرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ غَيْرُ الْقِتَالِ مَا يَكُونُ فِيهِ الْفَرَجُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى : فَإِنَّهُ رَبُّ قَوْمٍ قَدْ أَحْتَالُوا بِأَرَانِهِمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِمَا
أَرَادُوا . وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ ظَفِرُوا بِالنَّاسِكِ ،
وَأَخَذُوا عَرِيضَهُ ^(١) . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) العريض من العز : ما أتى عليه سنة .

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا اشْتَرَى عَرِيضًا ضَخْمًا لِيَجْعَلَهُ
 قُرْبَانًا ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ يَقُودُهُ . فَبَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ الْمَكْرَةِ ، فَأَتَمَرُوا
 بِهِمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنَ النَّاسِكِ . فَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُ :
 أَيُّهَا النَّاسِكُ ، مَا هَذَا الْكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ ؟ ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الْآخَرُ
 فَقَالَ لِصَاحِبِهِ : مَا هَذَا نَاسِكٌ ، لِأَنَّ النَّاسِكَ لَا يَقُودُ كَلْبًا .
 فَلَمْ يَزَالُوا مَعَ النَّاسِكِ عَلَى هَذَا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشْكُ أَنَّ الَّذِي
 يَقُودُهُ كَلْبٌ ، وَأَنَّ الَّذِي بَاعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَّ عَيْنَهُ ، فَأُطْلِقَهُ مِنْ يَدِهِ ،
 فَأَخَذَهُ الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَالُونَ وَمَضَوْا بِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا
 الْمَثَلَ لِمَا أَرْجُو أَنْ نُصِيبَ مِنْ حَاجَتِنَا بِالرَّفِيقِ وَالْحِيلَةِ . وَإِنِّي
 أُرِيدُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَنْقُرَنِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَيَنْتِفِ رِيشِي
 وَذَنَبِي ، ثُمَّ يَطْرَحَنِي فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَيَرْثِلَ الْمَلِكُ هُوَ
 وَجُنُودُهُ إِلَى مَكَانٍ كَذَا . فَأَرْجُو أَنِّي أَصْبِرُ وَأُطْلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ ،
 وَمَوَاضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ ، فَأُخَادِعُهُمْ وَأَتِي إِلَيْكُمْ لِنَهْجِمَ
 عَلَيْهِمْ ، وَنَنَالَ مِنْهُمْ غَرَضَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ الْمَلِكُ : أَتَطِيبُ نَفْسُكَ لِذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَكَيْفَ
 لَا تَطِيبُ نَفْسِي لِذَلِكَ وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ ؟
 فَقَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغُرَابِ مَا ذَكَرَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ . فَجَعَلَ الْغُرَابُ^(١)
 يَتَنُّ وَيَهْمِسُ حَتَّى رَأَتْهُ الْبُومُ وَسَمِعَتْهُ يَتَنُّ ، فَأَخْبَرَتْ مَلِكُهَا
 بِذَلِكَ ، فَقَصَدَتْ حَوْهَ لَيْسَالِهِ عَنِ الْغُرَبَانِ . فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمْرُ بَوْمًا
 أَنْ يَسْأَلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَأَيْنَ الْغُرَبَانُ ؟ فَقَالَ : أَمَّا اسْمِي
 فَقُفْلَانُ ، وَأَمَّا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ فَإِنِّي أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حَالِي حَالُ
 مَنْ لَا يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ . فَقِيلَ لِمَلِكِ الْبُومِ : هَذَا وَزِيرُ مَلِكِ الْغُرَبَانِ
 وَصَاحِبُ رَأْيِهِ ، فَسَأَلَهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعَ ؟ فَسُئِلَ
 الْغُرَابُ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ : إِنَّ مَلِكَنَا اسْتَشَارَ جَمَاعَتَنَا فَيَكُنُّ :
 وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْغُرَبَانُ ، مَا تَرَوْنَ
 فِي ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ الْبُومِ : لِأَنَّهُنَّ
 أَشَدَّ بَطْشًا ، وَأَحَدُ قَلْبًا مِنَّا . وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ ،
 ثُمَّ نَبْذِلَ الْفِدْيَةَ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ قَبِلَتْ الْبُومُ ذَلِكَ مِنَّا ، وَإِلَّا

(١) الهمس : الصوت الخفي .

هَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ . وَإِذَا كَانَ الْقِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ كَانَ خَيْرًا لَّهْنٍ وَشَرًّا لَنَا ، فَالْصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومَةِ . وَأَمَرْتَهُنَّ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ ، وَضَرَبْتُ لَهْنُ الْأَمْثَالِ فِي ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لَهْنُ : إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لَا يَرُدُّ بَأْسَهُ وَغَضَبَهُ مِثْلُ الْخُضُوعِ لَهُ :
 أَلَا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عَاصِفِ الرِّيحِ لِيَنِيهِ وَمِيلِهِ مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ . فَعَصَيْتَنِي فِي ذَلِكَ ، وَزَعَمَنَ أَنَّهُنَّ يَرُدْنَ الْقِتَالَ وَاتَّهَمَنِي فِيمَا قُلْتُ ، وَقُلْنَ : إِنَّكَ قَدْ مَالَأْتَ الْيَوْمَ عَلَيْنَا ، وَرَدَدْنِ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي ، وَعَذَّبْتَنِي بِهَذَا الْعَذَابِ ، وَتَرَكْنِي الْمَلِكُ وَجُنُودَهُ وَارْتَحَلَ . وَلَا عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ :

فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ الْيَوْمِ مَقَالَةَ الْغُرَابِ قَالَ لِبَعْضِ وَزَرَائِهِ : مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ ؟ وَمَا تَرَى فِيهِ ؟ قَالَ : مَا أَرَى إِلَّا الْمُعَاجَلَةَ لَهُ بِالْقَتْلِ : فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ عُدَدِ الْغُرَبَانِ ، وَفِي قَتْلِهِ لَنَا رَاحَةٌ مِنْ مَكْرِهِ ، وَفَقْدُهُ عَلَى الْغُرَبَانِ شَدِيدٌ . وَيُقَالُ : مَنْ ظَفَرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا يَنْجَحُ الْعَمَلُ ، ثُمَّ لَا يُعَاجِلُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ ،

فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ . وَمَنْ طَلَبَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ ، فَأَمَكَّنَهُ ذَلِكَ فَأَغْفَلَهُ .
فَإِنَّهُ الْأَمْرُ ، وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا تَعُودَ لَهُ الْفُرْصَةُ ثَانِيَةً . وَمَنْ وَجَدَ
عَدُوَّهُ ضَعِيفًا وَلَمْ يُنْجِزْ قَتْلَهُ ، نَدِمَ إِذَا اسْتَقْوَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ .
قَالَ الْمَلِكُ لَوَظِيرٍ آخَرَ : مَا تَرَى أَنْتَ فِي ذَذَا الْغُرَابِ ؟ قَالَ :
أَرَى إِلَّا تَقْتُلَهُ : فَإِنَّ الْعَدُوَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَا نَاصِرَ لَهُ أَهْلٌ لِأَنَّهُ
يُسْتَبَقَى وَيُرْحَمُ وَيُصْفَحُ عَنْهُ ، لَا سِيَّمَا الْمُسْتَجِيرُ الْخَائِفُ :
فَإِنَّهُ أَهْلٌ لِأَنَّهُ يَوْمَنُ .

قَالَ مَلِكُ الْيَوْمِ لَوَظِيرٍ آخَرَ مِنْ وَزَرَائِهِ : مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ ؟
قَالَ : أَرَى أَنَّ تَسْتَبْقِيَهُ وَتُحْسِنُ إِلَيْهِ : فَإِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ .
وَالْعَاقِلُ يَرَى مُعَادَاةَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بَعْضًا ظَفَرًا حَسَنًا ، وَيَرَى
أَسْتِغَالَ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ بِبَعْضٍ خَلَاصًا لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَنَجَاةً
كُنْجَاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللَّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِينَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ .
قَالَ الْمَلِكُ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْوَظِيرُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا أَصَابَ مِنْ رَجُلٍ بَقَرَةً حَلُوبًا ،
فَأَنْطَلَقَ بِهَا يَقُودُهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَعَرَضَ لَهُ لِيَصْ ارَادَ سَرِقَتَهَا ،

وَاتَّبَعَهُ شَيْطَانٌ يُرِيدُ اخْتِطَافَهُ . فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلصُّ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا اللَّصُّ ، أُرِيدُ أَنْ أُسْرِقَ هَذِهِ الْبَقْرَةَ مِنَ النَّاسِكِ إِذَا نَامَ . فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ أُرِيدُ اخْتِطَافَهُ إِذَا نَامَ وَأَذْهَبُ بِهِ . فَأَنْتَهَيَا عَلَى هَذَا إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ ، وَدَخَلَ خَلْفَهُ ، وَأَدْخَلَ الْبَقْرَةَ فَرَبَطَهَا فِي زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ ، وَتَعَشَّى وَنَامَ . فَأَقْبَلَ اللَّصُّ وَالشَّيْطَانُ يَأْتِمِرَانِ فِيهِ ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ يَبْدَأُ بِسُغْلِهِ أَوَّلًا ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلصُّ : إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ الْبَقْرَةِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقِظَ وَصَاحَ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ : فَلَا أَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ . فَأَنْظِرْنِي رَيْثَمَا أَخْذُهُ ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ . فَأَشْهَقَ اللَّصُّ إِنْ بَدَأَ الشَّيْطَانُ بِاخْتِطَافِهِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقِظَ ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَخْذِ الْبَقْرَةِ ، فَقَالَ : لَا ، بَلْ أَنْظِرْنِي أَنْتَ حَتَّى أَخْذَ الْبَقْرَةَ ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ . فَلَمْ يَزَالَا فِي الْمَجَادَلَةِ هَكَذَا ، حَتَّى نَادَى اللَّصُّ : أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ : فَهَذَا الشَّيْطَانُ يُرِيدُ اخْتِطَافَكَ ، وَنَادَى الشَّيْطَانُ : أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ : فَهَذَا اللَّصُّ يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ بِقَرَّتِكَ . فَانْتَبَهَ النَّاسِكُ وَجِيرانُهُ بِأَصْوَاتِهِمَا ،

وَهَرَبَ الْحَبِيشَانِ . قَالَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِ
الْغُرَابِ : أَظُنُّ أَنَّ الْغُرَابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ ، وَوَقَعَ كَلَامُهُ فِي نَفْسِ
الْغَيْبِيِّ مِنْكَنَّ مَوْقِعَهُ ، فَتَرَدَّدْنَا أَنْ تَضَعَنَّ الرَّأْيَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .
فَمَهْلًا مَهْلًا أَيُّهَا الْمَلِكُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْمَلِكُ
إِلَى قَوْلِهِ وَأَمَرَ بِالْغُرَابِ أَنْ يُحْمَلَ إِلَى مَنَازِلِ الْيَوْمِ ، وَيُكْرَمَ
وَيُسْتَوْصَى بِهِ خَيْرًا .

ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ قَالَ لِلْمَلِكِ يَوْمًا ، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَوْمِ ،
وَفِيهِنَّ الْوَزِيرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَدْ عَلِمْتَ مَا جَرَى
عَلَيَّ مِنَ الْغُرَبَانِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَرِيحُ قَلْبِي دُونَ أَخَذِي بِشَأْرِي
مِنْهُنَّ ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذَلِكَ ، فَإِذَا بِي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا
رَمْتُ : لِأَنِّي غُرَابٌ . وَقَدْ رَوَى عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا :
مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يَحْرِقَهَا ، فَقَدْ قَرَّبَ لِلَّهِ أَكْثَرَ الْقُرْبَانِ .
لَا يَدْعُو عِنْدَ ذَلِكَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ ^(١) . فَإِنْ رَأَى الْمَلِكُ
أَنْ يَأْمُرَنِي فَأَحْرِقَ نَفْسِي ، وَأَدْعُو رَبِّي أَنْ يَحُولَنِي يَوْمًا ، فَأَكُونَ

(١) هذا في اعتقاد الهندوس الذين لم يستضيئوا بنور الإسلام .

أَشَدَّ عَدَاوَةً وَأَقْوَى بَأْسًا عَلَى الْغُرَبَانِ ، لَعَلِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُنَّ ! قَالَ
الْوَزِيرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ : مَا أَشْبَهَكَ فِي خَيْرٍ مَا تُظْهَرُ وَشَرٍّ مَا
تُخْفِي إِلَّا بِالْخَمْرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ الْمُنْتَقِعِ فِيهَا السُّمُّ . أَرَأَيْتَ
لَوْ أَحْرَقْنَا جِسْمَكَ بِالنَّارِ كَانَ جَوْهَرُكَ وَطِبَاعُكَ مُتَغَيِّرَةً ! أَلَيْسَتْ
أَخْلَاقُكَ تَدُورُ مَعَكَ حَيْثُمَا دُرْتَ ، وَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْلِكَ
وَطَوَيْتِكَ ؟ كَالْفَأْرَةِ الَّتِي خَيْرَتْ فِي الْأَزْوَاجِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالرَّيْحِ
وَالسَّحَابِ وَالْجَبَلِ فَلَمْ يَقَعْ اخْتِيَارُهَا إِلَّا عَلَى الْجُرَذِ . قِيلَ لَهُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ نَاسِكٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ
يَوْمٍ جَالِسٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ إِذْ مَرَّتْ بِهِ حَدَاةٌ فِي رِجْلِهَا
دُرُّ فَاةٍ ^(١) . فَوَقَعَتْ مِنْهَا عِنْدَ النَّاسِكِ ، وَادْرَكَتْهُ لَهَا رَحْمَةٌ ،
فَأَخَذَهَا وَلَفَّهَا فِي وَرَقَةٍ ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ خَافَ أَنْ
تَشُقَّ عَلَى أَهْلِهِ تَرْبِيَّتُهَا ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا جَارِيَةً : فَتَحَوَّلَتْ
جَارِيَةً حَسَنَاءً . فَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ لَهَا : هَذِهِ ابْنَتِي ،

(١) ولد الفأرة .

فَاصْنَعِي مَعَهَا صَنِيعَكَ بِوَلَدِي . فَلَمَّا كَبُرَتْ قَالَ لَهَا النَّاسِكُ :
يَا بَنِيَّةُ اخْتَارِي مَنْ أَحْبَبْتَ حَتَّى أَزُوجَكَ بِهِ . فَقَالَتْ ، أَمَّا إِذَا
خَيْرْتَنِي فَإِنِّي اخْتَارُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ . فَقَالَ النَّاسِكُ
لَعَلَّكَ تُرِيدِينَ الشَّمْسَ ! ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الشَّمْسِ فَقَالَ : أَيُّهَا
الْخَلْقُ الْعَظِيمُ ، لِي جَارِيَةٌ ، وَقَدْ طَلَبْتُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى
الْأَشْيَاءِ ، فَهَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجُهَا ؟ فَقَالَتِ الشَّمْسُ : أَنَا أَدُلُّكَ
عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي : السَّحَابُ الَّذِي يَغْطِينِي ، وَيُرَدُّ حَرُّ
شُعَاعِي ، وَيَكْسِفُ أَشِعَّةَ أَنْوَارِي . فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّحَابِ
فَقَالَ لَهُ مَا قَالَ لِلشَّمْسِ ، فَقَالَ السَّحَابُ : وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ
هُوَ أَقْوَى مِنِّي : فَاذْهَبْ إِلَى الرِّيحِ الَّتِي تُقْبِلُ بِي وَتَذِيرُ ، وَتَذْهَبُ
بِي شَرْقًا وَغَرْبًا . فَجَاءَ النَّاسِكُ إِلَى الرِّيحِ فَقَالَ لَهَا كَقَوْلِهِ
لِلسَّحَابِ . فَقَالَتْ : وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي ، وَهُوَ
الْجَبَلُ الَّذِي لَا أَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيكِهِ . فَمَضَى إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ لَهُ
النَّاسِكُ الْمَذْكُورَ . فَأَجَابَهُ الْجَبَلُ وَقَالَ لَهُ : أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ
أَقْوَى مِنِّي : الْجُرْدُ الَّذِي لَا اسْتَطِيعُ الْإِمْتِنَاعَ مِنْهُ إِذَا ثَقَبَنِي ،

وَأَتَّخَذَنِي مَسْكًا . فَأَنْطَلَقَ النَّاسِكُ إِلَى الْجُرَذِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ
 أَنْتَ مُتَزَوِّجٌ هَذِهِ الْجَارِيَّةُ ؟ فَقَالَ : وَكَيْفَ أَتَزَوِّجُهَا وَبُحْرَى
 ضَيْقُ ؟ وَإِنَّمَا يَتَزَوِّجُ الْجُرَذُ الْفَأْرَةَ . فَدَعَا النَّاسِكُ رَبَّهُ أَنْ
 يُحَوِّلَهَا فَأْرَةً كَمَا كَانَتْ وَذَلِكَ بِرِضَا الْجَارِيَّةِ ، فَأَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى
 عُنْصُرِهَا الْأَوَّلِ فَأَنْطَلَقَتْ مَعَ الْجُرَذِ . فَهَذَا مِثْلُكَ : أَيُّهَا الْمُخَادِعُ .
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ مَلِكُ الْبُومِ إِلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَرَفَقَ بِالْغُرَابِ ، وَلَمْ
 يَزِدْ لَهُ إِلَّا إِكْرَامًا ، حَتَّى إِذَا طَابَ عَيْشُهُ ، وَنَبَتَ رِيشُهُ ،
 وَاطَّلَعَ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ ، رَاغَ رَوْنَةً . فَأَتَى أَصْحَابَهُ
 بِمَا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِمَّا كُنْتُ
 أُرِيدُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ ، قَالَ لَهُ : أَنَا وَالْجُرَذُ
 تَحْتَ أَمْرِكَ ، فَأَحْنِكُمْ كَيْفَ شِئْتَ .

قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ الْبُومَ بِمَكَانٍ كَذَا ، فِي جَبَلٍ كَثِيرِ الْحَطَبِ ،
 وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَطِيعٌ مِنَ الْغَنَمِ ، مَعَ رَجُلٍ رَاغٍ ، وَنَحْنُ
 مُصِيبُونَ هُنَاكَ نَارًا ، وَنُلْقِيهَا فِي أَنْقَابِ الْبُومِ ، وَنَقْدِفُ عَلَيْهَا

(١) جمع ثقب أو ثقب بمعنى الثقب أو الطريق ، والمراد بها مساكن البوم .

مَنْ يَأْسِ الحَطَبِ ، وَتَتَرَاوَحُ عَلَيْهَا ضَرْبًا بِأَجْنَحَيْنَا ، حَتَّى
تَضْطَرُّمَ النَّارُ فِي الحَطَبِ : فَمَنْ نَحْرَجَ مِنْهُنَّ اخْتَرَقَ وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ
مَاتَ بِالدُّخَانِ مَوْضِعَهُ . فَفَعَلَ الغَرَبَانُ ذَلِكَ : فَأَهْلَكَنَّ الْيَوْمَ
قَاطِبَةً ، وَرَجَعْنَ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ آمِنَاتٍ .

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الغَرَبَانِ قَالَ لِذَلِكَ الغُرَابِ : كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى
صُحْبَةِ الْيَوْمِ ، وَلَا صَبَرَ لِلْأَخْيَارِ عَلَى صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ؟ فَقَالَ الغُرَابُ :
إِنَّ مَا قُلْتَهُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ لَكَذَلِكَ . وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا آتَاهُ الْأَمْرُ
الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ تَحْمِلِهِ الْجَائِحَةُ ^(١) عَلَى نَفْسِهِ
وَقَوْمِهِ ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ ، لِمَا يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ
صَبْرُهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ وَكَثِيرَ الْخَيْرِ فَلَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ الْمَا ، وَلَمْ
تَكْرَهُ نَفْسُهُ الْخُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ ، حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ . فَيَغْتَبِطُ
بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ ، وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ . فَقَالَ الْمَلِكُ : أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ
الْيَوْمِ : قَالَ الغُرَابُ : لَمْ أَجِدْ فِيهِنَّ عَاقِلًا إِلَّا الَّذِي كَانَ يَحْتَنُّ
عَلَى قَتْلِي ، وَكَانَ حَرَضَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ مِرَارًا ، فَكُنَّ أَوْضَعَفَ شَيْءٍ

(١) الشدة المهلكة .

رَأْيَا ! فَلَمْ يَنْظُرَنَّ فِي أَمْرِي ، وَيَذْكُرَنَّ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مَنْزِلَةٍ
 فِي الْغُرَبَانِ ، وَأَنِّي أُعِدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ ، وَلَمْ يَخَوْفَنَّ مَكْرِي
 وَحِيلَتِي ، وَلَا قِبْلَنَ مِنَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ، وَلَا أَخْفَيْنَ دُونِي
 أَسْرَارَهُنَّ . وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ : يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحَصِّنَ أُمُورَهُ
 مِنْ أَهْلِ النَّمِيمَةِ ، وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ سِرِّهِ .
 فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا أَهْلَكَ الْيَوْمَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْبَغْيُ ، وَضَعُفُ رَأْيِ
 الْمَلِكِ ، وَمُوَافَقَتُهُ وَزَرَءِ السُّوءِ . فَقَالَ الْغُرَابُ : صَدَقْتَ أَيُّهَا
 الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَلْبًا ظَفِرَ أَحَدٌ بِغِيٍّ وَلَمْ يُطْعَ ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ
 مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا مَرِضَ . وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَرَءِ السُّوءِ وَسَلِمَ مِنْ
 أَنْ يَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ . وَكَانَ يُقَالُ : لَا يَطْمَعَنَّ ذُو الْكِبَرِ
 فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ ، وَلَا الْغَبُّ فِي كَثْرَةِ الصَّدِيقِ ، وَلَا السَّيِّئُ
 الْأَدَبِ فِي الشَّرَفِ ، وَلَا الشَّحِيحُ فِي الْبِرِّ ، وَلَا الْحَرِيصُ
 فِي قِلَّةِ الذُّنُوبِ ، وَلَا الْمَلِكُ الْمُحْتَالَ ، الْمُتَهَاوِنُ بِالْأُمُورِ ،
 الضَّعِيفُ الْوُزَرَءِ فِي ثَبَاتِ مُلْكِهِ ، وَصَلَاحُ رَعِيَّتِهِ . قَالَ
 الْمَلِكُ : لَقَدْ اخْتَمَلْتُ مَشَقَّةً شَدِيدَةً فِي تَصْنِيعِكَ لِلْيَوْمِ ،

وَتَضَرَّعَكَ لَهْنٌ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّهُ مِنْ اخْتِمَلٍ مَشَقَّةٌ يَرْجُو
 نَفْعَهَا ، وَنَحَى عَنْ نَفْسِهِ الْأَنْفَةَ وَالْحِمِيَّةَ ، وَوَطَّنَهَا عَلَى الصَّبْرِ
 حَمْدَ غِبِّ رَأْيِهِ ^(١) ؛ كَمَا صَبَرَ الْأَسْوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّفَادِعِ عَلَى
 ظَهْرِهِ ، وَشَبَعَ بِذَلِكَ وَعَاشَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
 قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسْوَدَ مِنَ الْحَيَّاتِ كَبِيرَ ، وَضَعْفَ
 بَصَرِهِ . وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ : فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعَامٍ ؛
 وَأَنَّهُ أَنْسَابَ يَلْتَمِسُ شَيْئًا يَعِيشُ بِهِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنِ كَثِيرَةِ
 الضَّفَادِعِ ، قَدْ كَانَ يَأْتِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَيُصِيبُ مِنْ ضَفَادِعِهَا
 رِزْقَهُ ، فَرَمَى نَفْسَهُ قَرِيبًا مِنْهُنَّ مُظْهِرًا لِلْكَاثَةِ وَالْحُزْنَ . فَقَالَ لَهُ
 ضَفْدَعٌ ^(٢) : مَا لِي أَرَاكَ ، أَيُّهَا الْأَسْوَدُ ، كَثِيرًا حَزِينًا ؟ قَالَ : وَمَنْ
 أُخْرَى بِطُولِ الْحُزَنِ مِنِّي ! وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُ مَعِيشَتِي مِمَّا كُنْتُ
 أُصِيبُ مِنَ الضَّفَادِعِ ، فَابْتُلَيْتُ بِبَلَاءٍ ، وَحُرِمْتُ عَلَى الضَّفَادِعِ
 مِنْ أَجَلِهِ ، حَتَّى إِنِّي إِذَا التَّقَيْتُ بِبَعْضِهَا ، لَا أَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهَا .

(١) عاقبة . (٢) بكسر أوله وثالثه أو فتحهما أو ضم الأول وفتح الثالث الواحدة بهاء .

والجمع ضفادع .

فَانْطَلَقَ الضُّفْدِعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفَادِعِ ، فَبَشَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ
الْأَسْوَدِ . فَأَتَى مَلِكُ الضَّفَادِعِ إِلَى الْأَسْوَدِ . فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ
كَانَ أَمْرُكَ ؟ قَالَ : سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي طَلَبِ ضِفْدِجٍ . وَذَلِكَ
عِنْدَ الْمَسَاءِ ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى بَيْتِ نَاسِكٍ ، وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ
فِي الظُّلَمَةِ وَفِي الْبَيْتِ ابْنُ النَّاسِكِ ، فَأَصَبْتُ إصْبَعَهُ ، فَظَنَنْتُ
أَنَّهَا الضُّفْدِعُ ، فَلَدَغْتُهُ فَمَاتَ . تَخَرَجْتُ هَارِبًا ، فَتَبِعَنِي
النَّاسِكُ فِي أَثَرِي ، وَدَعَا عَلَيَّ ، وَلَعَنَنِي . وَقَالَ : كَمَا قَتَلْتَ ابْنِي
الْبَرِيءَ ظُلْمًا وَتَعَدِّيًّا ، أَدْعُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيرَ مَرَكَبًا
لِمَلِكِ الضَّفَادِعِ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ اخْذَهَا ، وَلَا أَكُلَ شَيْءٍ مِنْهَا ،
إِلَّا مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ مَلِكُهَا . فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَرْكَبَنِي ، مُقِرًّا
بِذَلِكَ ، رَاضِيًا بِهِ . فَرَغِبَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ فِي رُكُوبِ الْأَسْوَدِ ،
وَوَظَنَ أَنَّ ذَلِكَ نَفَرٌ لَهُ وَشَرَفٌ ، وَرِفْعَةٌ ، فَرَكِبَهُ وَاسْتَطَابَ ذَلِكَ .
فَقَالَ لَهُ الْأَسْوَدُ ، قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنِّي مُحْرَمٌ ، فَاجْعَلْ لِي
رِزْقًا أَعِيشُ بِهِ . قَالَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ : لَعَمْرِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ
رِزْقٍ يَقُومُ بِكَ ، إِذْ كُنْتَ مَرَكَبِي . فَأَمَرَ لَهُ بِضِفْدَعَيْنِ

يُؤْخَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَيُدْفَعَانِ إِلَيْهِ . فَعَاشَ بِذَلِكَ ، وَلَمْ
يُضِرَّهُ خُضُوعُهُ لِلْعَدُوِّ الدَّلِيلِ ، بَلِ انْتَفَعَ بِذَلِكَ ، وَصَارَ لَهُ رِزْقًا
وَمَعِيشَةً . وَكَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي عَلَى مَا صَبَرْتُ عَلَيْهِ ، التِمَاسًا
لِهَذَا النِّفْعِ الْعَظِيمِ الَّذِي اجْتَمَعَ لَنَا فِيهِ الْأَمْنُ وَالظَّفَرُ ، وَهَلَاكُ
الْعَدُوِّ وَالرَّاحَةُ مِنْهُ . وَوَجَدْتُ صَرْعَةَ اللَّيْنِ وَالرَّفِقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ
اسْتِئْصَالًا لِلْعَدُوِّ مِنْ صَرْعَةِ الْمُكَابَرَةِ : فَإِنَّ النَّارَ لَا تَزِيدُ بِجِدَّتِهَا
وَحَرَّهَا إِذَا أَصَابَتِ الشَّجَرَةَ عَلَى أَنْ تُحْرِقَ مَا فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْهَا .
وَالْمَاءُ يَبْرِدُهُ وَلِينُهُ يَسْتَأْصِلُ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْهَا . وَيُقَالُ
أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لَا يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا : النَّارُ وَالْمَرَضُ وَالْعَدُوُّ وَالذَّنُّ .
قَالَ الْغُرَابُ : وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَدْبِهِ وَسَعَادَةِ
جَدِّهِ . وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : إِذَا طَلَبَ اثْنَانِ أَمْرًا ظَفَرِيَهُ مِنْهُمَا
أَفْضَلُهُمَا مُرُوءَةً . فَإِنْ اعْتَدَلَا فِي الْمُرُوءَةِ ، فَأَشَدُّهُمَا عَزْمًا .
فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي الْعَزْمِ ، فَأَسْعَدُهُمَا جَدًّا . وَكَانَ يُقَالُ : مَنْ
حَارَبَ الْمَلِكََ الْحَازِمَ الْأَرِيْبَ الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لَا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ ،
وَلَا تَذْهَبُهُ الضَّرَّاءُ ، كَانَ هُوَ دَاعِي الْخَتَفِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا سِيَّمَا

إِذَا كَانَ مِثْلَكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَالِمُ بِفُرُوضِ الْأَعْمَالِ ، وَمَوَاضِعِ
الشَّدَّةِ وَاللَّيْنِ ، وَالْغَضَبِ وَالرُّضَا ، وَالْمُعَاجَلَةِ وَالْأَنَاءَةِ ، النَّاطِرُ
فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَغَدِهِ ، وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ . قَالَ الْمَلِكُ لِلْغُرَابِ :
بَلْ بِرَأْيِكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيحَتِكَ وَبِمَنْ طَالِعِكَ كَانَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ
رَأَى الرَّجُلَ الْوَاحِدَ ، الْعَاقِلَ الْحَازِمَ ، أَبْلَغُ فِي هَلَاكِ الْعَدُوِّ مِنْ
الْجُنُودِ الْكَثِيرَةِ ، مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ .
وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طُولَ لُبِّكَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْيَوْمِ
تَسْمَعُ الْكَلَامَ الْغَلِيظَ ، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ ! قَالَ الْغُرَابُ :
لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكًا بِأَدَبِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : أَصْحَبُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ ،
بِالرَّفْقِ وَاللَّيْنِ ، وَالْمُبَالَغَةِ وَالْمَوَاتَاةِ . قَالَ الْمَلِكُ : أَصْبَحْتُ
وَقَدْ وَجَدْتُكَ صَاحِبَ الْعَمَلِ ، وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ الْوُزَرَاءِ
أَصْحَابَ أَقَاوِيلَ : لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
بِكَ مِنْهُ عَظِيمَةً لَمْ نَكُنْ قَبْلَهَا نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَلَا الشَّرَابِ ،
وَلَا النَّوْمَ وَلَا الْقَرَارَ . وَكَانَ يُقَالُ : لَا يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعَامِ
وَالنَّوْمَ حَتَّى يَبْرَأَ ، وَلَا الرَّجُلُ الشَّرَّ الَّذِي قَدْ أَطْمَعَهُ سُلْطَانُهُ

فِي مَالٍ وَعَمَلٍ فِي يَدِهِ ، حَتَّى يُنْجِزَهُ لَهُ ، وَلَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ أَلْحَ
عَلَيْهِ عَدُوَّهُ ، وَهُوَ يَخَافُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً حَتَّى يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَلْبُهُ .
وَمَنْ وَضَعَ الْجَمَلَ الثَّقِيلَ عَنْ يَدَيْهِ أَرَّاحَ نَفْسَهُ . وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ
ثَلَجَ صَدْرُهُ ^(١) .

قَالَ الْغُرَابُ : أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ أَنْ يَمْتَعَكَ
بِسُلْطَانِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ صَلاَحَ رَعِيَّتِكَ ، وَيُشْرِكُهُمْ
فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ ! فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مُلْكِهِ قُرَّةَ
عُيُونِ رَعِيَّتِهِ ، فَثَلْهُ مِثْلُ زَنْمَةِ الْعَنْزِ الَّتِي يَمَصُّهَا ، وَهُوَ يَحْسِبُهَا
حَلْمَةَ الضَّرْعِ ، فَلَا يُصَادِفُ فِيهَا خَيْرًا . قَالَ الْمَلِكُ : أَيُّهَا
الْوَزِيرُ الصَّالِحُ ، كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ الْيَوْمِ وَمَلِكُهَا فِي حُرُوبِهَا ،
وَفِيهَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِهَا ؟ قَالَ الْغُرَابُ : كَانَتْ سِيرَتُهُ سِيرَةً
بَطَرٍ ، وَأَشْرٍ وَخِيَلَاءٍ ، وَعَجْزٍ ، وَتَخَرٍّ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصُّفَاتِ
النَّمِيمَةِ . وَكُلُّ أَصْحَابِهِ وَوُزَرَائِهِ شَبِيهُ بِهِ ، إِلَّا الْوَزِيرَ الَّذِي
كَانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ : فَإِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا أَرِيْبًا ، فَيَلْسُوفًا حَازِمًا

(١) اطمأن . (٢) قطعة لحم تتدلى من عنقه .

عَالِمًا ، قَلْبًا يَرَى مِثْلَهُ فِي عُلُوِّ الْهِمَّةِ ، وَكَمَالِ الْعَقْلِ ، وَجَوْدَةِ
الرَّأْيِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَآيُ خَصْلَةٍ رَأَيْتَ مِنْهُ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَقْلِهِ ؟
قَالَ : خَلَّتَانِ : إِحْدَاهُمَا رَأَيْتُ فِي قَتْلِي ، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيحَتَهُ ، وَإِنْ اسْتَقْلَاهَا ، وَلَمْ يَكُنْ كَلَامَهُ كَلَامَ
عُنْفٍ وَقَسْوَةٍ ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ رَفِيقٍ وَلَيْنٍ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ
بِبَعْضِ عُيُوبِهِ ، وَلَا يُصْرِحُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الْأَمْثَالَ ،
وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ ، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ . فَلَا يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الْغَضَبِ
عَلَيْهِ سَبِيلًا . وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِمَلِكِهِ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي
لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ ، لَا يَظْفَرُ بِهِ مِنْ
النَّاسِ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَزْمِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ عَزِيزٌ ،
فَمَنْ ظَفَرُ بِهِ فَلْيُحْسِنِ حِفْظَهُ وَتَحْصِينَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ
فِي قِلَّةِ بَقَائِهِ بِمَنْزِلَةِ قِلَّةِ بَقَاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النِّلُوفِرِ ، وَهُوَ
فِي خِفَّةِ زَوَالِهِ ، وَسُرْعَةِ إِقْبَالِهِ وَإِذْبَارِهِ كَالرَّيْحِ ، وَفِي قِلَّةِ
ثَبَاتِهِ كَاللَّيْبِ مَعَ اللَّثَامِ ، وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلَالِهِ كَحَبَابِ الْمَاءِ مِنْ
وَقَعِ الْمَطَرِ . فَهَذَا مِثْلُ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ ،
وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّدًا وَتَضَرُّعًا .

بَابُ الْقَرْدِ وَالْغَيْلِ^(١)

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ،
فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ ، فَإِذَا ظَفَرَ بِهَا ،
أَضَاعَهَا . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ
الِإِحْتِفَازِ بِهَا ، وَمَنْ ظَفَرَ بِحَاجَةٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ بِهَا ،
أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْغَيْلَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا يُقَالُ لَهُ مَاهِرٌ ، كَانَ مَلِكَ الْقِرَدَةِ ،
وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ
فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ . فَخَرَجَ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى
انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ ، فَوَجَدَ شَجَرَةً مِنْ شَجَرِ التِّينِ ، فَارْتَقَى إِلَيْهَا
وَجَعَلَهَا مُقَامَهُ . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ التِّينِ ،
إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تِينَةٌ فِي الْمَاءِ ، فَسَمِعَ لَهَا صَوْتًا وَإِيقَاعًا ،
فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي الْمَاءِ ، فَاطْرَبَهُ ذَلِكَ : فَأَكْثَرَ مِنْ طَرْجِ
التِّينِ فِي الْمَاءِ ، وَثُمَّ غَيْلٌ ، كَلَّمَا وَقَعَتْ تِينَةٌ أَكَلَهَا . فَلَمَّا

(١) السُّلْحَفَةُ الذِّكْرُ .

كَثُرَ ذَلِكَ ظَنًّا أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَجْلِهِ ، فَرَغِبَ
 فِي مُصَادَقَتِهِ ، وَأُتِيَ إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَهُ ، وَأَلْفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 صَاحِبَهُ . وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْغَيْلِمِ عَنْ زَوْجَتِهِ : فَخَزَعَتْ عَلَيْهِ ،
 وَشَكَّتْ ذَلِكَ إِلَى جَارَةٍ لَهَا ، وَقَالَتْ : قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ
 قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ سُوءٌ فَاغْتَالَهُ . فَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ زَوْجَكَ
 بِالسَّاحِلِ قَدْ أَلِفَ قِرْدًا وَأَلِفَهُ الْقِرْدُ : فَهُوَ مُوَآكِلُهُ وَمُشَارِبُهُ ،
 وَهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكَ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكَ حَتَّى تَحْتَالِي
 لِهَلَاكِ الْقِرْدِ . قَالَتْ : وَكَيْفَ أَصْنَعُ ؟ . قَالَتْ جَارَتُهَا : إِذَا
 وَصَلَ إِلَيْكَ فَتَمَارَضِي ، فَإِذَا سَأَلَكَ عَنْ حَالِكَ فَقُولِي : إِنَّ
 الْحُكَمَاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ . ثُمَّ إِنَّ الْغَيْلِمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ
 إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الْحَالِ مَهْمُومَةً ، فَقَالَ لَهَا
 الْغَيْلِمُ : مَا لِي أَرَاكَ هَكَذَا ، فَأَجَابَتْهُ جَارَتُهَا ، وَقَالَتْ : إِنَّ
 زَوْجَتَكَ مَرِيضَةٌ مَسْكِينَةٌ . وَقَدْ وَصَفَ لَهَا الْأَطِبَاءُ قَلْبَ قِرْدٍ ،
 وَلَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ سِوَاهُ . قَالَ الْغَيْلِمُ : هَذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ . مِنْ أَيْنَ
 لَنَا قَلْبُ قِرْدٍ ، وَنَحْنُ فِي الْمَاءِ ؟ لَكِنْ سَأَحْتَالُ لِصَدِيقِي .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ : فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ يَا أُخِي ، مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ قَالَ لَهُ الْغَيْلَمُ : مَا حَبَسَنِي عَنْكَ إِلَّا حَيَاتِي : فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَجَازِيكَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؟ وَأُرِيدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي : فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيرَةٍ طَيِّبَةِ الْفَاكِهَةِ . فَأَرْكَبُ ظَهْرِي لِأَسْبَحَ بِكَ . فَرَغِبَ الْقِرْدُ فِي ذَلِكَ ، وَنَزَلَ فَرَكِبَ ظَهْرَ الْغَيْلَمِ ، فَسَبَحَ بِهِ ، حَتَّى إِذَا سَبَحَ بِهِ ، عَرَضَ لَهُ قُبْحُ مَا أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغَدْرِ ، فَتَكَسَّ رَأْسُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ : مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا ؟ قَالَ الْغَيْلَمُ : إِنَّمَا هُمِّي لِأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيدَةُ الْمَرَضِ ، وَذَلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَهُ مِنْ كَرَامَتِكَ وَمِلَاطِفَتِكَ . قَالَ الْقِرْدُ : إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى كَرَامَتِي يَكْفِيكَ مَوْنَةَ التَّكْلِيفِ . قَالَ الْغَيْلَمُ : أَجَلٌ . وَمَضَى بِالْقِرْدِ سَاعَةً ، ثُمَّ تَوَقَّفَ بِهِ ثَانِيَةً : فَسَاءَ ظَنُّ الْقِرْدِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا اخْتَبَأَ الْغَيْلَمُ وَإِبْطَاؤُهُ إِلَّا لِأَمْرٍ ! وَلَسْتُ آمِنًا أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَغَيَّرَ لِي ، وَحَالَ عَن مَوَدَّتِي ، فَأَرَادَ بِي سُوءًا : فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَخْفَ وَأَسْرَعُ تَقَلُّبًا

مِنَ الْقَلْبِ . وَقَدْ يُقَالُ : يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلَّا يَغْفَلَ عَنِ التَّمَاسِ
مَا فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيقِهِ ، عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ ،
وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ ، وَعِنْدَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ
فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ
إِذَا دَخَلَ قَلْبَ الصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ رَيْبَةٌ فَلْيَأْخُذْ بِالْحَزْمِ
فِي التَّحْفِظِ مِنْهُ ، وَلْيَتَفَقَّدْ ذَلِكَ فِي لَحْظَاتِهِ وَحَالَاتِهِ . فَإِنْ كَانَ
مَا يَظُنُّ حَقًّا ظَفَرَ بِالسَّلَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا ظَفَرَ بِالْحَزْمِ ، وَلَمْ
يُضِرَّهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : مَا الَّذِي يَحْبِسُكَ ؟ وَمَالِي أَرَاكَ
مُهْتَمًّا ، كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى ؟ قَالَ : يَهْمُنِي أَنَّكَ
تَأْتِي مَنَزِلِي فَلَا تَجِدُ أَمْرِي كَمَا أُحِبُّ : لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضَةٌ .
قَالَ الْقِرْدُ : لَا تَهْتَمَّ ، فَإِنَّ الِهِمَّ لَا يَغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَلَكِنْ
التَّمَسَّ مَا يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ : فَإِنَّهُ يُقَالُ
لِيَبْذُلَ ذُو الْمَالِ مَالَهُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ : فِي الصَّدَقَةِ ، وَفِي
وَقْتِ الْحَاجَةِ ، وَعَلَى الْبَنِينَ ، وَعَلَى الْأَزْوَاجِ . قَالَ الْغَيْلِمُ :
صَدَقْتَ . وَقَدْ قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : إِنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ
قِرْدٍ . فَقَالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ : وَأَسْفَاهُ ! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الْحِرْصُ

وَالشَّرُّ عَلَى كِبَرِ سِنِي : حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ وَرْطَةٍ ! وَلَقَدْ صَدَقَ
الَّذِي قَالَ : يَعِيشُ الْقَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا ، وَذُو
الْحِرْصِ وَالشَّرِّ يَعِيشُ مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ . وَإِنِّي قَدْ
اِحْتَجَجْتُ الْآنَ إِلَى عَقْلِي فِي التِمَاسِ الْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ .
ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُعَلِّمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي ، حَتَّى كُنْتُ
أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِيَ ؟ فَهَذِهِ سُنَّةٌ فِينَا ، مَعَاشِرَ الْقِرَدَةِ ، إِذَا خَرَجَ
أَحَدُنَا لَزِيَارَةِ صَدِيقٍ ، خَلَفَ قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ ، أَوْ فِي مَوْضِعِهِ ،
لِيَنْتَظِرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرْمِ الْمَزُورِ وَلَيْسَ قُلُوبُنَا مَعَنَا . قَالَ
الْغَيْلِمُ : وَأَيْنَ قَلْبُكَ الْآنَ ؟ قَالَ : خَلَفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ . فَإِنْ شِئْتَ
فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ ، حَتَّى آتِيكَ بِهِ . فَفَرِحَ الْغَيْلِمُ بِذَلِكَ .
وَقَالَ : لَقَدْ وَافَقَنِي صَاحِبِي بِدُونِ أَنْ أَغْدِرَ بِهِ . ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ
إِلَى مَكَانِهِ . فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ ، وَثَبَ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَارْتَقَى
الشَّجَرَةَ . فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْغَيْلِمِ ، نَادَاهُ : يَا خَلِيلِي ، اِحْمِلْ قَلْبُكَ
وَانْزِلْ ، فَقَدْ حَبَسْتَنِي . فَقَالَ الْقِرْدُ : هَيَّاتَ ! أَتُظَنُّ أَنَّ
كَالْحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنَانِ :
قَالَ الْغَيْلِمُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْقِرْدُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ أَسَدٌ فِي أَجْمَةٍ ، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ
 آوَى يَأْكُلُ مِنْ فَوَاضِلِ طَعَامِهِ ، فَأَصَابَ الْأَسَدَ جَرَبٌ ،
 وَضَعْفٌ شَدِيدٌ ، وَجَهْدٌ ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ . فَقَالَ لَهُ
 ابْنُ آوَى : مَا بِكَ ، يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ ، قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُكَ ؟
 قَالَ : هَذَا الْجَرَبُ الَّذِي قَدْ أَجْهَدَنِي ، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا قَلْبُ
 حِمَارٍ وَأُذُنَاهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : مَا أَيْسَرَ هَذَا ! وَقَدْ عَرَفْتُ
 بِمَكَانٍ كَذَا حِمَارًا مَعَ قَصَّارٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ ، وَأَنَا آتِيكَ بِهِ ،
 ثُمَّ دَلَفَ إِلَى الْحِمَارِ فَأَتَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : مَا لِي أَرَاكَ مَهْزُولًا ؟
 قَالَ مَا يُطْعِمُنِي صَاحِبِي شَيْئًا . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ تَرْضَى الْمَقَامَ
 مَعَهُ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : فَمَا لِي حِيلَةٌ فِي الْهَرَبِ مِنْهُ ، لَسْتُ
 أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلَّا أَضْرَبَنِي إِنْسَانٌ فَكَدَّنِي وَأَجَاعَنِي . قَالَ
 ابْنُ آوَى : فَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَكَانٍ مَغْزُولٍ عَنِ النَّاسِ ، لَا يَمُرُّ
 بِهِ إِنْسَانٌ ، خَصِيبُ الْمَرْعَى ، فِيهِ قَطِيعٌ مِنَ الْحُمُرِ لَمْ تَرَ عَيْنٌ
 مِثْلَهَا حُسْنًا وَسَمْنًا . قَالَ الْحِمَارُ : وَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهَا ؟ فَاَنْطَلَقَ

بِنَا إِلَيْهَا ، فَانْطَلَقَ بِهِ ابْنُ آوَى نَحْوَ الْأَسَدِ ، وَتَقَدَّمَ ابْنُ آوَى ،
وَدَخَلَ الْغَايَةَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِ الْجَمَارِ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ
وَأَرَادَ أَنْ يَنْبِ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لَضَعْفِهِ ، وَتَخَلَّصَ الْجَمَارُ
مِنْهُ . فَأَفْلَتَ هَلِعًا عَلَى وَجْهِهِ ^(١) . فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ الْأَسَدَ
لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْجَمَارِ ، قَالَ لَهُ : أُعْجَزْتَ يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ إِلَى هَذِهِ
الْغَايَةِ ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنْ جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَنْ يَنْجُو مِنِّي
أَبَدًا . فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الْجَمَارِ فَقَالَ لَهُ : مَا الَّذِي جَرَى
عَلَيْكَ ؟ إِنَّ أَحَدَ الْحُمُرِ رَاكَ غَرِيبًا ، فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّبًا بِكَ ،
وَلَوْ ثَبَتَ لَهُ لَا تَسَكَ ، وَمَضَى بِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ
الْجَمَارُ كَلَامَ ابْنِ آوَى ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَدًا قَطُّ ، صَدَّقَهُ ،
وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْأَسَدِ ، فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الْأَسَدِ ، وَأَعْلَمَهُ
بِمَكَانِهِ . وَقَالَ لَهُ : اسْتَعِدَّ لَهُ ، فَقَدْ خَدَعْتُهُ لَكَ : فَلَا يَدْرِكُكَ
الضَّعْفُ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ : فَإِنَّهُ إِنْ أَفْلَتَ فَلَنْ يَعُودَ مَعِيَ أَبَدًا .
فَجَاشُ ^(٢) جَاشُ الْأَسَدِ لِتَحْرِيطِ ابْنِ آوَى لَهُ ، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ

(١) اهلح : ألحش الجزع . (٢) غلى والجلش ، وقد لا يهمز ، من معانيه النفس .

الجمار . فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها . ثم قال : قد
ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور : فاحتفظ
به حتى أعود فأكل قلبه وأذنيه ، وأترك ما سوى ذلك قوتا
لك . فلما ذهب الأسد ليغتسل ، عمد ابن آوى إلى الجمار
فأكل قلبه وأذنيه ، رجاء أن يتطير الأسد منه ، فلا يأكل منه
شيئا . ثم إن الأسد رجع إلى مكانه ، فقال لابن آوى : أين
قلب الجمار وأذناه ؟ قال ابن آوى : ألم تعلم أنه لو كان له
قلب يفقه به ، وأذنان يسمع بهما ، لم يرجع إليك بعد ما أفلت
ونجا من الهلكة :

وإنما ضربت لك هذا المثل لنعلم أني لست كذلك الجمار
الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان ، ولكنك
احتلت على ، وخدعتني ، نخدعتك بمثل خديعتك ،
واستدركت فارط أمري . وقد قيل : إن الذي يفسده الحلم
لا يصلحه إلا العلم . قال الغيلم : صدقت ، إلا أن الرجل
الصالح يعترف بزله ، وإذا أذنب ذنبا لم يستحي أن يودب :

لِصِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أَمْكَنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا
بِحِيلَتِهِ وَعَقْلِهِ : كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْثُرُ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ
عَلَيْهَا مُعْتَمِدًا . فَهَذَا مِثْلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَإِذَا
ظَهَرَ بِهَا أَضَاعَهَا .

(اقضى باب القرد والغيلم)

بَابُ النَّاسِكِ وَابْنِ عَرِسٍ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمِثْلَ .
فَاضْرِبْ لِي مِثْلَ الرَّجُلِ الْعَجَلَانِ فِي أَمْرِهِ ، مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا
نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ
مُتَثَبًّا ، لَمْ يَزَلْ نَادِمًا ، وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ
مِنْ قَتْلِ ابْنِ عَرِسٍ . وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُودًا . قَالَ الْمَلِكُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا مِنَ النَّسَاكِ كَانَ بِأَرْضِ
جُرْجَانٍ وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ ، فَكَثُرَ زَمَانًا لَمْ يَرْزَقَا وَلَدًا ،

ثُمَّ حَمَلَتْ مِنْهُ بَعْدَ الْإِيَّاسِ . فَسَرَّتِ الْمَرْأَةُ وَسَرَّ النَّاسِكُ بِذَلِكَ ،
 فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَرًا . وَقَالَ
 لِزَوْجَتِهِ : أَبْشِرِي : فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا ، لَنَا فِيهِ
 مَنَافِعُ ، وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، اخْتَارَ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، وَأَحْضَرُ لَهُ
 سَائِرَ الْأَدْبَاءِ . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : مَا يَحْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ
 تَتَكَلَّمَ بِمَا لَا تَدْرِي أَيْكُونُ أَمْ لَا ؟ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ
 مَا أَصَابَ النَّاسِكَ الَّذِي أَرَأَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ .
 قَالَ لَهَا : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ
 تَاجِرٍ ، فِي كُلِّ يَوْمٍ ، رِزْقٌ مِنَ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، وَكَانَ يَأْكُلُ
 مِنْهُ قُوَّتَهُ وَحَاجَتَهُ ، وَيَرْفَعُ الْبَاقِي ، وَيَجْعَلُهُ فِي بَحْرَةٍ ، فَيُعَلِّقُهَا
 فِي وَتِدٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ . فَبَيْنَمَا النَّاسِكُ ذَاتَ
 يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ ، وَالْحِجْرَةُ مُعَلَّقَةٌ عَلَى
 رَأْسِهِ ، تَفَكَّرَ فِي غَلَاءِ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، فَقَالَ : سَأَبِيعُ مَا فِي
 هَذِهِ الْحِجْرَةِ بِدِينَارٍ ، وَأَشْتَرِي بِهِ عَشْرَةَ أَعْنُرٍ ، فَيَحْبِلُنَّ وَيَلْدُنَّ

فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ بَطْنًا ، وَلَا تَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَصِيرَ غَنَمًا
كَثِيرَةً ، إِذَا وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا ، ثُمَّ حَرَّرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ بِسِنِينَ
فَوَجَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ عَنَزٍ ، فَقَالَ : أَنَا أَشْتَرِي بِهَا
مِائَةً مِنَ الْبَقَرِ ، بِكُلِّ أَرْبَعَةِ أَعْنَزٍ ثَوْرًا أَوْ بَقَرَةً ، وَأَشْتَرِي أَرْضًا
وَبَذْرًا ، وَأَسْتَأْجِرُ أَكْرَةً^(١) وَأَزْرَعُ عَلَى الثُّيَرَانِ ، وَأَنْتَفِعُ بِالْبَنَانِ
الْإِنَاثِ وَنِتَاجِهَا فَلَا يَأْتِي عَلَى خَمْسِ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُ
مِنَ الزَّرْعِ مَالًا كَثِيرًا : فَأَبْنِي بَيْتًا فَانْحِرًا ، وَأَشْتَرِي إِمَاءً وَعَعِيدًا ،
وَأَتَزَوِّجُ امْرَأَةً جَمِيلَةً ذَاتَ حُسْنٍ ، ثُمَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ سَرِيٍّ نَجِيبٍ ،
فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، فَإِذَا تَرَعَرَ أَدَبْتُهُ ، وَأَخْسَنْتُ
تَأْدِيبَهُ ، وَأَشَدُّ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ يَقْبَلَ مِنِّي ، وَإِلَّا ضَرَبْتُهُ
بِهَذِهِ الْعُكَّازَةِ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَرَّةِ فَكَسَرَهَا ، فَسَالَ مَا كَانَ
فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِكَيْ لَا تَعْجَلَ
بِذِكْرِ مَا لَا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ ، وَمَا لَا تَدْرِي أَيَصَحُّ أَمْ لَا يَصَحُّ .
فَاتَعَطَّ النَّاسِكُ بِمَا حَكَتْ زَوْجَتُهُ . ثُمَّ إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلَامًا

(١) جمع أكار وهو الحراث .

جَمِيلًا فَفَرِحَ بِهِ أَبُوهُ . وَبَعْدَ أَيَّامٍ حَانَ لَهَا أَنْ تَتَطَهَّرَ فَقَالَتْ
 الْمَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ : اقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ فَأَغْتَسِلَ
 وَأَعُودَ . ثُمَّ إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ إِلَى الْحَمَّامِ ، وَخَلَفَتْ زَوْجَهَا وَالْغُلَامَ .
 فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ ^(١) يَسْتَدْعِيهِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَخْلُفُهُ
 عِنْدَ ابْنِهِ ، غَيْرَ ابْنِ عَرِيسٍ دَاجِنٍ عِنْدَهُ ، كَانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيرًا
 فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيلٌ وَلَدِهِ . فَتَرَكَهُ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ ، وَأَغْلَقَ
 عَلَيْهِمَا الْبَيْتَ ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُولِ . فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ أَجْحَارِ
 الْبَيْتِ حَيَّةٌ سَوْدَاءُ ، فَدَنَّتْ مِنَ الْغُلَامِ ، فَضَرَبَهَا ابْنُ عَرِيسٍ ،
 ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا ، ثُمَّ قَطَعَهَا وَامْتَلَأَ قَمِيهِ مِنْ دَمِهَا ، ثُمَّ جَاءَ
 النَّاسِكُ ، وَفَتَحَ الْبَابَ ، فَالْتَقَاهُ ابْنُ عَرِيسٍ ، كَالْمُبَشِّرِ لَهُ بِمَا
 صَنَعَ مِنْ قَتْلِ الْحَيَّةِ . فَلَمَّا رَأَاهُ مُلَوَّنًا بِالدِّمِ ، وَهُوَ مَذْعُورٌ ،
 طَارَ عَقْلُهُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَتَقَ وَلَدَهُ . وَلَمْ يَتَثَبَّتْ فِي أَمْرِهِ ،
 وَلَمْ يَتَرَوَّفِ فِيهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْحَالِ ، وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ مَا ظَنَّ
 مِنْ ذَلِكَ . وَلَكِنْ عَجَّلَ عَلَى ابْنِ عَرِيسٍ ، وَضَرَبَهُ بِعُكَّازَةٍ كَانَتْ

فِي يَدِهِ ، عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَمَاتَ . وَدَخَلَ النَّاسِكُ فَرَأَى الْغُلَامَ
 سَلِيماً حَيّاً ، وَعِنْدَهُ أَسْوَدٌ مُقَطَّعٌ . فَلَمَّا عَرَفَ الْقِصَّةَ ، وَتَبَيَّنَ
 لَهُ سُوءُ فِعْلِهِ فِي الْعَجَلَةِ ، لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ . وَقَالَ : لَيْتَنِي لَمْ أَرْزُقْ
 هَذَا الْوَلَدَ ، وَلَمْ أَغْدِرْ هَذَا الْغَدْرَ ! وَدَخَلَتْ امْرَأَتُهُ ، فَوَجَدَتْهُ
 عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . فَقَالَتْ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالنَّحْبِ مِنْ
 حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عَرِسٍ وَسُوءِ مُكَافَأَتِهِ لَهُ . فَقَالَتْ : هَذِهِ ثَمَرَةُ
 الْعَجَلَةِ ! فَهَذَا مِثْلُ مَنْ لَا يَتَثَبَّتُ فِي أَمْرِهِ ، بَلْ يَفْعَلُ أَغْرَاضَهُ
 بِالسَّرْعَةِ وَالْعَجَلَةِ . (انقضى باب الناسك وابن عرس)

بَابُ الْجُرْدِ وَالسَّنُورِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمِثْلَ ،
 فَاضْرِبْ لِي مِثْلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُ ، وَأَخَذُوا بِهِ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ ، فَأَشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ ، فَالْتَمَسَ النِّجَاةَ وَالْمَخْرَجَ
 بِمُؤَالَاةِ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَمُصَالَحَتِهِ ، فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ ، ثُمَّ
 وَفَى لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْهُمْ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَدَاوَةَ

لَا تَثْبُتَانِ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَبَدًا . وَرُبَّمَا حَالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى
الْعَدَاوَةِ ، وَصَارَتِ الْعَدَاوَةُ وَلَايَةً وَصَدَاقَةً . وَلِهَذَا حَوَادِثُ
وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ ، وَذُو الرَّأْيِ يُحَدِّثُ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ
رَأْيًا جَدِيدًا : أَمَّا مِنْ قَبْلِ الْعَدُوِّ فَبِالْبَاسِ ، وَأَمَّا مِنْ قَبْلِ الصَّدِيقِ
فَبِالِاسْتِنَاسِ . وَلَا تَمْنَعُ ذَا الْعَقْلِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ
مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَالِاسْتِنْجَادِ بِهِ عَلَى دَفْعِ مَخُوفٍ أَوْ جَرٍّ مَرْغُوبٍ .
وَمَنْ عَمِلَ فِي ذَلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ
الْجُرَذِ وَالسَّنُورِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرِظَةِ ، فَفَجَّوَا بِاصْطِلَاحِهِمَا
جَمِيعًا مِنَ الْوَرِظَةِ وَالشَّدَةِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمَةً كَانَتْ فِي أَصْلِهَا بِحَرَسِنُورٍ
يُقَالُ لَهُ رُومِي ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ بِحَرَجُرٍ يُقَالُ لَهُ فَرِيدُونُ ،
وَكَانَ الصَّيَّادُونَ كَثِيرًا يَتَدَاوَلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ ، يَصِيدُونَ فِيهِ
الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ ، فَتَزَلْ ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ ، فَنَصَبَ حِبَالَتَهُ
قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ رُومِي ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ فِيهَا . فَخَرَجَ الْجُرَذُ
يَذُبُّ ، وَيَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ ، وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِي . فَبَيْنَمَا هُوَ

يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي الشَّرِكِ ، فَسَرَّ وَأَسْتَبَشَرَ . ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى
خَلْفَهُ ابْنَ عَرِسٍ ، يُرِيدُ أَخْذَهُ ، وَفِي الشَّجَرَةِ بَوْمًا ، يُرِيدُ
اِخْتِطَافَهُ ، فَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَخَافَ إِنْ رَجَعَ وَرَاءَهُ أَخْذَهُ ابْنَ
عَرِسٍ ، وَإِنْ ذَهَبَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا اِخْتِطَفَهُ الْبَوْمُ ، وَإِنْ تَقَدَّمَ
أَمَامَهُ أَفْتَرَسَهُ السَّنُورُ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذَا بَلَاءٌ قَدْ اِكْتَنَفَنِي ،
وَشُرُورٌ تَظَاهَرَتْ عَلَيَّ ، وَمِحْنٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِي . وَبَعْدَ ذَلِكَ
فَمَعِيَ عَقْلِي ، فَلَا يُفْزِعُنِي أَمْرِي ، وَلَا يَهُولُنِي شَأْنِي ، وَلَا يُلْحَقُنِي
الدَّهْشُ ، وَلَا يَذْهَبُ قَلْبِي شِعَاعًا : فَالْعَاقِلُ لَا يَفْرُقُ^(١) عِنْدَ سَدَادِ
رَأْيِهِ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ ذِهْنُهُ عَلَى حَالٍ . وَإِنَّمَا الْعَقْلُ شَبِيهُ
بِالْبَحْرِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ غَوْرَهُ . وَلَا يَبْلُغُ الْبَلَاءُ مِنْ ذِي الرَّأْيِ
مَجْهُودَهُ فِيهِلَكَ ، وَتَحَقُّقُ الرَّجَاءِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغًا
يَبْطِرُهُ وَيُسْكِرُهُ : فَيَعْمَى عَلَيْهِ أَمْرُهُ . وَلَسْتُ أَرَى لِي مِنْ هَذَا
الْبَلَاءِ مَخْلَصًا إِلَّا مُصَالِحَةَ السَّنُورِ : فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ
مِثْلُ مَا قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُهُ . وَلَعَلَّهُ إِنْ سَمِعَ كَلَامِي الَّذِي أَكَلَمَهُ بِهِ ،

وَوَعَى عَنِّي فَصِيحَ خَطَابِي ، وَمَحْضَ صِدْقِي الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ ،
وَلَا خِدَاعَ مَعَهُ فَفَهِمَهُ ، وَطَمِعَ فِي مَعُونَتِي إِيَّاهُ ، نَخْلُصُ
جَمِيعًا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ دَنَا مِنَ السُّنُورِ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَ لَهُ
السُّنُورُ : كَمَا تُحِبُّ : فِي ضَمْنِكَ وَضَيْقِي . قَالَ : وَأَنَا الْيَوْمَ
شَرِيكَكَ فِي الْبَلَاءِ ، وَلَسْتُ أَرْجُو لِنَفْسِي خَلَاصًا إِلَّا بِالَّذِي
أَرْجُو لَكَ فِيهِ الْخَلَاصَ . وَكَلَامِي هَذَا لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ وَلَا
خَدِيعَةٌ . وَأَبْنُ عَرِيسٍ هَا هُوَ كَامِنٌ لِي ، وَالْيَوْمَ يَرْصُدُنِي ،
وَكِلَاهُمَا لِي وَلَكَ عَدُوٌّ . فَإِنْ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ ، قَطَعْتُ
حَبَائِلَكَ ، وَخَلَصْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرِطَةِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَخَلَّصَ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ : كَالسَّفِينَةِ وَالرُّكَّابِ فِي الْبَحْرِ :
فَبِالسَّفِينَةِ يَنْجُونَ ، وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ . فَلَمَّا سَمِعَ السُّنُورُ
كَلَامَ الْجُرَذِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صَادِقٌ ، قَالَ لَهُ : إِنَّ قَوْلَكَ هَذَا
لَشَبِيهُ بِالْحَقِّ ، وَأَنَا أَيْضًا رَاغِبٌ فِيمَا أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي بِهِ

انحلَّاص . ثُمَّ إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَسَأَشْكُرُ لَكَ مَا بَقِيَتْ .
 قَالَ الْجُرْدُ : فَإِنِّي سَادُّنُو مِنْكَ ، فَأَقْطَعُ الْحَبَائِلَ كُلَّهَا إِلَّا حَبْلًا
 وَاحِدًا أَبْقِيهِ لِأَسْتَوْثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ . ثُمَّ أَخَذَ فِي قَرْضِ حَبَائِلِهِ
 ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ وَابْنَ عَرِيسٍ لَمَّا رَأَيَا دُنُو الْجُرْدِ مِنَ السُّنُورِ أَيْسَا
 مِنْهُ وَانْصَرَفَا . ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَبْطَأَ عَلَى رُومِي فِي قَطْعِ الْحَبَائِلِ
 فَقَالَ لَهُ : مَالِي لَا أَرَاكَ مُجَدًّا فِي قَطْعِ حَبَائِلِي ؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ
 ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ : فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ ، وَتَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِي ،
 فَمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَتَوَانَى فِي حَقِّ
 صَاحِبِهِ . وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدَةِ وَالنَّفْعِ
 مَا قَدْ رَأَيْتَ . وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكَافِئَنِي بِذَلِكَ ، وَلَا تَذْكُرَ
 الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ : فَالَّذِي حَدَّثَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ
 الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيَكَ ذَلِكَ ، مَعَ مَا فِي الْوَفَاءِ مِنَ الْفَضْلِ
 وَالْأَجْرِ ، وَمَا فِي الْغَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَكُونُ
 إِلَّا شُكُورًا غَيْرَ حَقُودٍ ، تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْإِحْسَانِ

(١) شكر ونصح : تعديتهما باللام أفصح : من تعديتهما بنفسهما .

اِلْخِلَالَ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ أَجَلَ الْعُقُوبَةِ
 عُقُوبَةُ الْغَدْرِ . وَمَنْ إِذَا تَضَرَّعَ إِلَيْهِ ، وَسُئِلَ الْعَفْوَ ، فَلَمْ يَرْحَمْ ،
 وَلَمْ يَعْفُ ، فَقَدْ غَدَرَ ، قَالَ الْجُرُذُ : إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقَانِ :
 طَائِعٌ وَمُضْطَرٌ . وَكِلَاهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْمُنْفَعَةَ ، وَيَحْتَرِسَانِ مِنَ
 الْمَضَرَّةِ . فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ ، وَيُؤْمَنُ فِي جَمِيعِ
 الْأَحْوَالِ . وَأَمَّا الْمُضْطَرُ فَنِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ ،
 وَفِي بَعْضِهَا يُتَحَذَّرُ مِنْهُ . وَلَا يَزَالُ الْعَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ ،
 لِبَعْضِ مَا يَتَّقِي وَيَخَافُ . وَلَيْسَ عَاقِبَةُ التَّوَاصُلِ مِنَ الْمُتَوَاصِلِ
 إِلَّا طَلَبُ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغُ مَأْمُولِهِ . وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا
 جَعَلْتُ لَكَ ، وَمُحْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ ، مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ
 تَخَوُّفًا أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ مَا أُلْجَأُ خَوْفُهُ إِلَى مُصَالَحَتِكَ ، وَالْجَاحَاكَ
 إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي : فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِينًا . فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ
 فِي حِينِهِ ، فَلَا حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ . وَأَنَا قَاطِعٌ حَبَائِلِكَ كُلَّهَا ، غَيْرَ
 أَنِّي تَارِكٌ عُقْدَةً وَاحِدَةً أُرْتِهِنُكَ بِهَا ، وَلَا أَقْطَعُهَا إِلَّا فِي السَّاعَةِ
 الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيهَا عَنِّي مَشْغُولٌ : وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايَنَتِي الصِّيَادَ .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبَائِلِ السُّنُورِ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ وَافَى الصَّيَّادُ ، فَقَالَ لَهُ السُّنُورُ : الْآنَ جَاءَ الْجُدُّ فِي قَطْعِ حَبَائِلِي . فَأَجْهَدَ الْجُرْدُ نَفْسَهُ فِي الْقَرِضِ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَثَبَ السُّنُورُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهْشٍ مِنَ الصَّيَّادِ ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ ، وَجَاءَ الصَّيَّادُ فَأَخَذَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً ، ثُمَّ انْصَرَفَ خَائِبًا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ نَحَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَرِهَ أَنْ يَدْنُو مِنَ السُّنُورِ ، فَنَادَاهُ السُّنُورُ : أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّاصِحُ ، ذُو الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عِنْدِي ، مَا مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ ، لِأُجَازِيكَ بِأَحْسَنِ مَا أُسَدِّتُ إِلَيَّ ، هَلُمَّ إِلَيَّ وَلَا تَقْطَعْ إِخَائِي : فَإِنَّهُ مِنَ اتَّخَذَ صَدِيقًا ، وَقَطَعَ إِخَاءَهُ ، وَأَضَاعَ صَدَاقَتَهُ ، حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ ، وَأُيْسَ مِنْ نَفْعِهِ الْإِخْوَانُ وَالْأَصْدِقَاءُ . وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لَا تُنْسَى ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكَافَأَةَ ذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي . وَلَا تَخَافَنَّ مِنِّي شَيْئًا . وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَبِلِي لَكَ مَبْدُولٌ . ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا قَالَ . فَنَادَاهُ الْجُرْدُ : رَبِّ صَدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عَدَاوَةٌ كَامِنَةٌ . وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ .

وَمَنْ لَمْ يَحْتَرَسْ مِنْهَا ، وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نَابَ الْفِيلِ
 الْمُخْتَلِمِ ، ثُمَّ يَغْلِبُهُ النَّعَاسُ ، فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فَرَاسِنِ الْفِيلِ ^(١) ،
 فَيَدُوسُهُ وَيَقْتُلُهُ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا : لِمَا يُرْجَى
 مِنْ نَفْعِهِ ، وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا : لِمَا يُخَافُ مِنْ ضَرَرِهِ . وَالْعَاقِلُ
 إِذَا رَجَا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ ، وَإِذَا خَافَ ضَرَّ الصَّدِيقِ
 أَظْهَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ . أَلَا تَرَى ؟ تَتَّبِعُ الْبَهَائِمُ أُمَّهَاتِهَا رَجَاءَ الْبَاقِيَا ،
 فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ انْصَرَفَتْ عَنْهَا . وَرُبَّمَا قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنْ
 صَدِيقِهِ بَعْضَ مَا كَانَ يَصِلُهُ ، فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ : لِأَنَّ أَصْلَ
 أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً . فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً ،
 ثُمَّ أَحْدَثَ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا زَالَتِ
 الْحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ ، زَالَتِ صَدَاقَتُهُ ، فَتَحَوَّلَتْ
 عَدَاوَةً ، وَصَارَ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ : كَالْمَاءِ الَّذِي يُسَخَّنُ بِالنَّارِ ،
 فَإِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِدًا . وَلَيْسَ مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضُرُّ لِي
 مِنْكَ . وَقَدْ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةٌ إِلَى مَا أَحْدَثْنَا مِنَ الْمَصَالِحَةِ .
 وَقَدْ ذَهَبَ الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَجْتُ إِلَيَّْ وَاخْتَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ ،

(١) جمع فرسين وهو بمنزلة الحافر .

وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدُ الْعَدَاوَةِ . وَلَا خَيْرَ لِلضَّعِيفِ
فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ ، وَلَا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعَزِيزِ .
وَلَا أَعْلَمُ لَكَ قَبْلِي حَاجَةً ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي ؛ وَلَا أَعْلَمُ
لِي قَبْلَكَ حَاجَةً ، وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقَةٌ : فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ
أَنَّ الضَّعِيفَ الْمُحْتَرِسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ
مِنَ الْقَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ . وَالْعَاقِلُ
يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ ، وَيُصَانِعُهُ ، وَيُظْهِرُ لَهُ وَدَّهُ ،
وَيُرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْإِسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدًّا ،
ثُمَّ يَعَجِّلُ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ ، حِينَ يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ
سَرِيعَ الْإِسْتِرْسَالِ لَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ . وَالْعَاقِلُ يَفِي لِمَنْ صَالَحَهُ
مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَثِقُ بِهِ كُلَّ الثَّقَةِ ،
وَلَا يَأْمُنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ
مَا اسْتَطَاعَ . وَأَنَا أَوْدَكَ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحَبُّ لَكَ مِنَ الْبَقَاءِ
وَالسَّلَامَةِ ، مَا لَمْ أَكُنْ أَحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تُجَازِيَنِي
عَلَى صَنِيعِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ : إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا وَالسَّلَامِ .

بَابُ ابْنِ الْمَلِكِ وَالطَّائِرِ فَنَزَةٍ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التُّرَاثِ الَّذِينَ لَا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ
 مِنْ اتِّقَاءِ بَعْضٍ . قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ
 كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيدُونُ ، وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ فَنَزَةٌ ، وَكَانَ لَهُ فَرَخٌ
 وَكَانَ هَذَا الطَّائِرُ وَفَرَخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنَطِقٍ ، وَكَانَ الْمَلِكُ
 بِهِمَا مُعْجَبًا . فَأَمَرَ بِهِمَا أَنْ يُجْعَلَا عِنْدَ امْرَأَتِهِ ، وَأَمَرَهَا بِالْمُحَافَظَةِ
 عَلَيْهِمَا . وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ وَلَدَتْ غُلَامًا ، فَأَلِفَ الْفَرَخُ
 الْغُلَامَ . وَكِلَاهُمَا طِفْلَانِ يَلْعَبَانِ جَمِيعًا . وَكَانَ فَنَزَةٌ يَذْهَبُ
 إِلَى الْجَبَلِ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لَا تُعْرَفُ ، فَيُطْعِمُ
 ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا ، وَيُطْعِمُ فَرَخَهُ شَطْرَهَا . فَاسْرَعَ ذَلِكَ
 فِي نَشَأَتِهِمَا ، وَزَادَ فِي شَبَابِهِمَا ، وَبَانَ عَلَيْهِمَا أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ :
 فَازْدَادَ لِفَنَزَةٍ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا وَمَحَبَّةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنْ
 الْأَيَّامِ وَفَنَزَةٌ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ ، وَفَرَخُهُ فِي جِجْرِ الْغُلَامِ ،

(١) جمع فَنَزَةٍ وهي الطائر .

ذَرَقَ فِي جِرِّهِ ؛ فَغَضِبَ الْغُلَامُ ، وَأَخَذَ الْفَرَّخَ فَضَرَبَ بِهِ
 الْأَرْضَ فَمَاتَ . ثُمَّ إِنَّ فَنزَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرَّخَهُ مَقْتُولًا ،
 فَصَاحَ وَحَزَنَ ، وَقَالَ : قُبْحًا لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وَفَاءَ !
 وَيْلٌ لِمَنْ ابْتُلِيَ بِصُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا حِمِيَّةَ لَهُمْ وَلَا حُرْمَةَ ،
 وَلَا يُحِبُّونَ أَحَدًا وَلَا يَكْرَهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ
 غَنَاءٍ ، وَآخَتَاجُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ : فَيُكْرِمُونَهُ لَذَلِكَ ،
 فَإِذَا ظَفَرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ ، فَلَا وَدَّ ، وَلَا إِخَاءَ ، وَلَا إِحْسَانَ ،
 وَلَا غُفْرَانَ ذَنْبٍ ، وَلَا مَعْرِفَةَ حَقِّ ! هُمُ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ مَبْنِيٌّ
 عَلَى الرِّيَاءِ وَالْفُجُورِ . وَهُمْ يَسْتَصْغِرُونَ مَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ عَظِيمِ
 الذُّنُوبِ ، وَيَسْتَعْظِمُونَ الْيَسِيرَ إِذَا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْوَاؤُهُمْ .
 وَمِنْهُمْ هَذَا الْكَفُورُ الَّذِي لَا رَحْمَةَ لَهُ ، الْغَادِرُ بِالْيَفِهِ وَأَخِيهِ .
 ثُمَّ وَثَبَ فِي شِدَّةِ حَنَقِهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلَامِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ ، وَطَارَ فَوْقَ
 عَلَى شُرْفَةِ الْمَنْزِلِ . ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَ الْمَلِكَ ذَلِكَ ، فَخَزَعَ أَشَدَّ الْخَزَعِ ،
 ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ ، فَوَقَفَ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَادَاهُ ، وَقَالَ لَهُ :
 إِنَّكَ آمِنٌ ، فَأَنْزِلْ يَا فَنزَةُ . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْغَادِرَ

مَاخُودٌ بِغَدْرِهِ ، وَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَاهُ عَاجِلُ الْعُقُوبَةِ ، لَمْ يُحِطْهُ
 الْآجِلُ ، حَتَّى إِنَّهُ يُدْرِكُ الْأَعْقَابَ وَأَعْقَابَ الْأَعْقَابِ . وَإِنَّ
 ابْنَكَ غَدَرَ بِابْنِي ، فَعَجَلْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ . قَالَ الْمَلِكُ : لَعَمْرِي
 قَدْ غَدَرْنَا بِابْنِكَ ، فَانْتَقَمْتِ مِنَّا : فَلَيْسَ لَكَ قِبَلْنَا ، وَلَا لَنَا
 قِبَلَكَ وَتُرْمَطُوبٌ . فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِنًا . قَالَ فَتَزُورُ : لَسْتُ
 بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَدًا : فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ الْمُتَوَرِّ^(١)
 فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُكَ لُطْفُ الْحَقُودِ وَلِينُهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلَّا وَحْشَةً
 مِنْهُ ، وَسُوءَ ظَنٍّ بِهِ : فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمُتَوَرِّ أَمَانًا هُوَ
 أَوْثَقُ لَكَ مِنَ الدُّعْرِ مِنْهُ ، وَلَا أَجُودُ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ ،
 وَالْإِحْتِرَاسُ مِنْهُ أَوْلَى . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنَّ الْعَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ
 أَصْدِقَاءَ ، وَالْإِخْوَةَ رُقَقَاءَ ، وَالْأَزْوَاجَ أَلْفَاءَ ، وَالْبَنِينَ ذِكْرًا ،
 وَالْبَنَاتِ خُصَمَاءَ ، وَالْأَقَارِبَ غُرَمَاءَ وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيدًا . وَأَنَا
 الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ الطَّرِيدُ ، قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ مِنَ
 الْحُزْنِ عِبْنًا ثَقِيلًا ، لَا يَحْمِلُهُ مَعِيَ أَحَدٌ . وَأَنَا ذَاهِبٌ . فَعَلَيْكَ
 مِنِّي السَّلَامُ .

(١) من قتل له قتيلا فلم يدرك بدمه .

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنَّكَ لَوَلَمْ تَكُنْ اجْتَرَيْتَ مِنَّا فِيمَا صَنَعْنَاهُ
 بِكَ ، بَلْ كَانَ صَنِيعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ أِبْدَاءٍ مِنَّا بِالْغَدْرِ ، كَانَ
 الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ . وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ بِدَانَاكَ ، فَمَا ذَنْبُكَ ؟
 وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنَا ؟ هَلُمَّ فَارْجِعْ : فَإِنَّكَ آمِنٌ .
 قَالَ فَتَزَعُ : اعْلَمْ أَنَّ الْأَحْقَادَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ مَوَاقِعُ مُمَكَّنَةٌ
 مُوجِعَةٌ . فَالْأَلْسُنُ لَا تَصْدُقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ الْقُلُوبِ ،
 وَالْقَلْبُ أَعْدَلُ شَهَادَةٍ مِنَ اللِّسَانِ عَلَى الْقَلْبِ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ
 قَلْبِي لَا يَشْهَدُ لِلِّسَانِ ، وَلَا قَلْبُكَ لِلِّسَانِي . قَالَ الْمَلِكُ : أَلَمْ
 تَعْلَمْ أَنَّ الضَّغَائِنَ وَالْأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ : فَمَنْ
 كَانَ ذَا عَقْلٍ ، كَانَ عَلَى إِمَاتَةِ الْحَقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ .
 قَالَ فَتَزَعُ : إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْبَغِي لِدِي
 الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمُؤْتَوَرَ الْحَقُودَ نَاسٍ مَا وَتَرِيهِ ،
 مَصْرُوفٌ عَنْهُ فِكْرُهُ فِيهِ . وَذُو الرَّأْيِ يَخْوَفُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ
 وَالْحَيْلَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لَا يُسْتَطَاعُ بِالشَّدَّةِ

وَالْمُكَابَرَةُ ، حَتَّى يُصَادَ بِالرُّفْقِ وَالْمَلَايَنَةِ : كَمَا يُصَادُ الْفِيلُ
 الْوَحْشِيُّ بِالْفِيلِ الدَّاجِنِ . قَالَ الْمَلِكُ : إِنَّ الْعَاقِلَ الْكَرِيمَ
 لَا يَتْرُكُ إِلْفَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ إِخْوَانَهُ وَلَا يُضَيِّعُ الْحِفَاطَ ، وَإِنْ
 هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ ، حَتَّى إِنَّ هَذَا الْخَلْقَ يَكُونُ فِي أَوْضِعِ
 الدَّوَابِّ مَنَزَلَةً : فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَّابِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكِلَابِ ،
 ثُمَّ يَذْبَحُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا . وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلْفَهُمْ ذَلِكَ ،
 فَلَا يَدْعُوهُ إِلَى مُفَارَقَتِهِمْ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْفَتَنِ إِيَّاهُمْ .
 قَالَ فَتَرَةً : إِنَّ الْأَحْقَادَ مَخُوفَةً حَيْثُمَا كَانَتْ . فَأَخُوفُهَا وَأَشَدُّهَا
 مَا كَانَ فِي أَنْفُسِ الْمُلُوكِ : فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالْإِنْتِقَامِ ،
 وَيَرَوْنَ الدَّرَكَ وَالطَّلَبَ بِالْوَتْرِ مَكْرَمَةً وَنَحْرًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ
 بِسُكُونِ الْحَقْدِ إِذَا سَكَنَ فَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَقْدِ فِي الْقَلْبِ ، إِذَا لَمْ
 يَجِدْ مُحَرَّكًَا ، مَثَلُ الْجَمْرِ الْمُسْكُونِ ، مَا لَمْ يَجِدْ حَطْبًا ، فَلَيْسَ
 يَنْفَكُ الْحَقْدُ مُتَطَلِّعًا إِلَى الْعِلَلِ ، كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطَبَ :
 فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَّ اسْتِعَارَ النَّارِ : فَلَا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلَامٍ ،
 وَلَا لِينٌ وَلَا رِفْقٌ ، وَلَا خُضُوعٌ وَلَا تَضَرُّعٌ وَلَا مُصَانَعَةٌ ، وَلَا شَيْءٌ

دُونَ تَلَفِ الْأَنْفُسِ . مَعَ أَنَّهُ رَبٌّ وَاتِرٌ يَطْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ
الْمَوْتُورِ بِمَا يَرْجُو أَنَّ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ ، وَالِدَفْعِ عَنْهُ .
وَلَكِنِّي أَنَا أَضْعَفُ عَنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا فِي
نَفْسِكَ . وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ مُنْطَوِيَةً لِي عَلَى مَا تَقُولُ مَا كَانَ
ذَلِكَ عَنِّي مُغْنِيًا . وَلَا أَزَالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ ، وَسُوءِ ظَنٍّ ،
مَا اضْطَحَبْنَا . فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلَّا الْفِرَاقُ .
وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ .

قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ الْأَشْيَاءِ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، يُصِيبُ
أَحَدًا ، إِلَّا بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ . وَكَمَا أَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ ،
وَوِلَادَةَ مَا يُوَلَدُ ، وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى ، لَيْسَ إِلَى الْخَلَائِقِ مِنْهُ
شَيْءٌ ، كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى ، وَهَلَاكُ مَا يَهْلِكُ . وَلَيْسَ لَكَ
فِي الَّذِي صَنَعْتَ بِابْنِي ذَنْبٌ ، وَلَا لِابْنِي فِيمَا صَنَعَ بِابْنِكَ ذَنْبٌ .
إِنَّمَا كَانَتْ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدَرًا مَقْدُورًا ، وَكَلَانَا لَهُ عِلَّةٌ : فَلَا
نُؤْخِذُ بِمَا أَتَانَا بِهِ الْقَدَرُ . قَالَ فَتَرَةً : إِنَّ الْقَدَرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ ،
لَكِنْ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ الْحَازِمَ مِنْ تَوَقُّي الْمَخَافِيفَ ، وَالْإِحْتِرَاسَ

مِنَ الْمَكَارِهِ . وَلَكِنَّهُ يَجْمَعُ تَصَدِيقًا بِالْقَدَرِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ
وَالْقُوَّةِ . وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ . وَالْأَمْرُ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ : لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي ، وَأَنَا فَقَّاتُ عَيْنِ
ابْنِكَ ، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَشْتَفِيَ بِقَتْلِي ، وَتَخْتَلِنِي عَنْ نَفْسِي ؛
وَالنَّفْسُ تَأْتِي الْمَوْتَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : الْفَاقَةُ بَلَاءٌ ، وَالْحُزْنُ
بَلَاءٌ ، وَقُرْبُ الْعَدُوِّ بَلَاءٌ ، وَفِرَاقُ الْأَحِبَّةِ بَلَاءٌ ، وَالسَّقَمُ بَلَاءٌ ،
وَالْهَرَمُ بَلَاءٌ ؛ وَرَأْسُ الْبَلَائِ كُلِّهَا الْمَوْتُ . وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ
بِمَا فِي نَفْسِ الْمَوْجَعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ . فَأَنَا
بِمَا فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ : لِلْمِثْلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ
ذَلِكَ . وَلَا خَيْرَ لِي فِي صُحْبَتِكَ : فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي
بِابْنِكَ ، وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعَ ابْنِكَ بِابْنِي ، إِلَّا أَحْدَثَ ذَلِكَ
لِقُلُوبِنَا تَغْيِيرًا .

قَالَ الْمَلِكُ : لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِعْرَاضَ عَمَّا
فِي نَفْسِهِ ، وَيَنْسَاهُ وَيُهْمِلُهُ ، حَتَّى لَا يَذْكُرَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكُونَ
لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ . قَالَ فَتَزُهُ : إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ

قَدَمِهِ قُرْحَةً ، إِنْ هُوَ حَرَصَ عَلَى الْمَشْيِ ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ
 يَسْتَكِي قُرْحَتَهُ . وَالرَّجُلُ الْأَرْمَدُ الْعَيْنِ إِذَا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ ،
 تَعَرَّضَ لِأَنْ تَزْدَادَ رَمْدًا . وَكَذَلِكَ الْوَائِرُ إِذَا دَنَا مِنَ الْمُوتُورِ ،
 فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ . وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا
 إِلَّا تَوَقَّى الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ ، وَتَقْدِيرُ الْأُمُورِ وَقِلَّةُ الْإِتِّكَالِ
 عَلَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَقِلَّةُ الْإِغْتِرَارِ بِمَنْ لَا يَأْمَنُ : فَإِنَّهُ مِنْ
 اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ ، فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ ،
 فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ نَفْسِهِ . وَمَنْ لَا يَقْدِرُ لِبَاقَتِهِ طَعَامَهُ
 وَشَرَابَهُ ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ وَلَا تَحْمِلُ ، فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ .
 وَمَنْ لَا يَقْدِرُ لِقَمَّتِهِ ، وَعَظَمَهَا فَوْقَ مَا يَسَعُ فُوهَ ، فَرُبَّمَا
 غَضَّ بِهَا فَمَاتَ . وَمَنْ اغْتَرَبَ بِكَلَامِ عَدُوِّهِ ، وَانْخَدَعَ لَهُ ،
 وَضَيَعَ الْحَزْمَ ، فَهُوَ أَعْدَى لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ
 النَّظَرُ فِي الْقَدْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَأْتِيهِ مِنْهُ وَلَا مَا يُصْرَفُ
 عَنْهُ ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْحَزْمِ وَالْأَخْذُ بِالْقُوَّةِ وَمُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ
 فِي ذَلِكَ . وَالْعَاقِلُ لَا يَتَّقُ بِأَحَدٍ مَا اسْتَطَاعَ ، وَلَا يُقِيمُ عَلَى
 خَوْفٍ وَهُوَ يَجِدُ عَنْهُ مَذْهَبًا . وَأَنَا كَثِيرُ الْمَذَاهِبِ ، وَأَرْجُو

أَلَّا أَذْهَبَ وَجْهًا إِلَّا أَصَبْتُ فِيهِ مَا يُغْنِينِي : فَإِنَّ خِلَالَ نَحْسًا
 مِنْ تَزَوُّدِهِمْ كَفَيْنَهُ فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَأَتَسَّنَهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ ،
 وَقَرَّبَنَ لَهُ الْبَعِيدَ ، وَأَكْسَبَنَهُ الْمَعَاشَ وَالْإِخْوَانَ : أَوَّلُهُنَّ كَفُّ
 الْأَذَى ، وَالثَّانِيَةُ حُسْنُ الْأَدَبِ ، وَالثَّلَاثَةُ مَجَانِبَةُ الرِّيبِ ،
 وَالرَّابِعَةُ كَرَمُ الْخُلُقِ ، وَالْخَامِسَةُ النُّبْلُ فِي الْعَمَلِ . وَإِذَا خَافَ
 الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا طَابَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
 وَالْوَطَنِ : فَإِنَّهُ يَرْجُو الْخُلْفَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلَا يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ
 خَلْفًا . وَشَرُّ الْمَالِ مَا لَا إِتْفَاقَ مِنْهُ ، وَشَرُّ الْأَزْوَاجِ الَّتِي
 لَا تُؤَاتِي بَعْلَهَا ، وَشَرُّ الْوَلَدِ الْعَاصِي لِوَالِدَيْهِ ، وَشَرُّ
 الْإِخْوَانِ الْخَاذِلِ لِأَخِيهِ عِنْدَ النَّجَاتِ وَالشَّدَائِدِ ، وَشَرُّ الْمُلُوكِ
 الَّذِي يَخَافُهُ الْبَرِيُّ ، وَلَا يُؤَاطِبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
 وَشَرُّ الْبِلَادِ بِلَادٌ لَا خِصْبَ فِيهَا وَلَا أَمْنًا ، وَإِنَّهُ لَا أَمْنًا لِي
 عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَلَا طُمَأْنِينَةً لِي فِي جَوَارِكَ . ثُمَّ وَدَّعَ الْمَلِكُ
 وَطَارَ . فَهَذَا مَثَلُ ذَوِي الْأَوْتَارِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ

يَشُقَّ بِبَعْضٍ .

(انقضى باب ابن الملك والطائر)

بَابُ الْأَسَدِ وَالشَّغْبَرِ النَّاسِكِ وَهُوَ ابْنُ آوَى

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ الْمَلِكِ الَّذِي يَرْاجِعُ ^(١) مِنْ أَصَابَتِهِ مِنْهُ عَقُوبَةٌ
 مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، أَوْ جَفْوَةٌ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ :
 إِنَّ الْمَلِكَ لَوْ لَمْ يَرْاجِعْ مِنْ أَصَابَتِهِ مِنْهُ جَفْوَةٌ عَنْ ذَنْبٍ أَوْ عَنْ
 غَيْرِ ذَنْبٍ ، ظَلِمَ أَوْ لَمْ يَظْلَمْ ، لَا ضَرَّ ذَلِكَ بِالْأُمُورِ ، وَلَكِنَّ الْمَلِكَ
 حَقِيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنْ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ ، وَيَخْبِرَ مَا عِنْدَهُ مِنَ
 الْمَنَافِعِ : فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوثِقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ
 حَقِيقٌ بِالْحَرِصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ لَا يُسْتَطَاعُ ضَبْطُهُ
 إِلَّا مَعَ ذَوِي الرَّأْيِ وَهُمْ الْوُزَرَاءُ وَالْأَعْوَانُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِالْوُزَرَاءِ
 وَالْأَعْوَانِ إِلَّا بِالْمُودَّةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَلَا مُودَّةَ وَلَا نَصِيحَةَ إِلَّا لِدَوَى
 الرَّأْيِ وَالْعَفَافِ . وَأَعْمَالُ السُّلْطَانِ كَثِيرَةٌ ، وَالَّذِينَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِمْ
 مِنَ الْعُمَّالِ وَالْأَعْوَانِ كَثِيرُونَ . وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْتُ مِنْ
 النَّصِيحَةِ وَالْعَفَافِ قَلِيلٌ . وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْأَسَدِ
 وَابْنِ آوَى . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفِيلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى كَانَ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ
 الدُّحَالِ ^(١) ، وَكَانَ مُتَزَهِّدًا مُتَعَفِّفًا ، مَعَ بَنَاتِ آوَى وَذِئَابِ
 وَثَعَالِبَ . وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعْنَ ، وَلَا يُغِيرُ كَمَا يُغِرْنَ ،
 وَلَا يَهْرِيقُ دَمًا ، وَلَا يَأْكُلُ لَحْمًا . نَفَاصِمَهُ تِلْكَ السَّبَاعُ ، وَقُلْنَ :
 لَا نَرْضَى بِسِيرَتِكَ وَلَا رَأْيِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزَهُّدِكَ :
 مَعَ أَنَّ تَزَهُّدَكَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ
 إِلَّا كَأَحَدِنَا : تَسْعَى مَعَنَا ، وَتَفْعَلُ فِعْلَنَا فَمَا الَّذِي كَفَّكَ عَنِ
 الدَّمَاءِ وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكُنَّ
 لَا تَوْثِقُنِي إِذَا لَمْ أَوْثِقْ نَفْسِي : لِأَنَّ الْآثَامَ لَيْسَتْ مِنْ قَبْلِ
 الْأَمَاكِنِ وَالْأَصْحَابِ ، وَلَكِنَّهَا مِنْ قَبْلِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ .
 وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ الْمَكَانِ الصَّالِحِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ صَالِحًا ،
 وَصَاحِبُ الْمَكَانِ السَّيِّئِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ سَيِّئًا ، كَانَ حِينَئِذٍ
 مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مُحَرَّابِهِ لَمْ يَأْتُمْ ، وَمَنْ اسْتَحْيَاهُ فِي مَعْرَكَةِ
 الْقِتَالِ أَثِمَ . وَإِنِّي إِنَّمَا صَحَبْتُكَ بِنَفْسِي ، وَلَمْ أَصْحَبْكَ بِقَلْبِي
 وَأَعْمَالِي : لِأَنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الْأَعْمَالِ : فَلَزِمْتُ حَالِي . وَثَبَّتْ

(١) ثقب ضيق فيه ، متسع أسفله .

ابن آوى على حاله تلك ، واشتهر بالنسك والتزهد ؛ حتى بلغ ذلك أسداً كان ملك تلك الناحية ، فرغب فيه : لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة ، فأرسل إليه يستدعيه . فلما حضر كلمه وأنسه فوجده في جميع الأمور وفق غرضه . ثم دعاه بعد أيام إلى صحبتيه وقال له : تعلم أن عمالي كثير ، وأعواني جم غفير ، وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج . وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، فازددت فيك رغبة . وأنا موليك من عملي جسيماً ورافعك إلى منزلة شريفة ، وجاعلك من خاصتي . قال ابن آوى : إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم . وهم أحرى ألا يكرهوا على ذلك أحداً : فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل . وإنى لعمل السلطان كاره . وليس لي به تجربة ، ولا بالسلطان رفق . وأنت ملك السباع ، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير ، فيهم أهل نبل وقوة ، ولهم على العمل حرص ، وعندهم به وبالسلطان رفق : فإن استعملتهم أغنوا عنك ، واغبطوا لأنفسهم

بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ الْأَسَدُ : دَع عَنْكَ هَذَا : فَإِنِّي غَيْرُ
 مُعْضِيكَ مِنَ الْعَمَلِ . قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّمَا يَسْتَطِيعُ خِدْمَةَ
 السُّلْطَانِ رَجُلَانِ لَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا : إِمَّا فَاجِرٌ مُصَانِعٌ ، يَنَالُ
 حَاجَتَهُ بِفُجُورِهِ ، وَيَسْلَمُ بِمُصَانَعَتِهِ ، وَإِمَّا مُغْفَلٌ لَا يَحْسُدُهُ
 أَحَدٌ . فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ فَلَا يَخْلُطُ
 ذَلِكَ بِمُصَانَعَتِهِ ، وَحِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذَلِكَ : لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ
 عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيقُهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ . أَمَّا الصَّدِيقُ
 فَيَنَافِسُهُ فِي مَنَزَلَتِهِ ، وَيَبْغِي عَلَيْهِ فِيهَا ، وَيُعَادِيهِ لِأَجْلِهَا ،
 وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ فَيَضْطَعُ عَلَيْهِ ، لِنَصِيحَتِهِ لِسُلْطَانِهِ ، وَإِغْنَانِهِ
 عَنْهُ . فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَذَانِ الصِّنْفَانِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ .
 قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَكُونَنَّ بَغْيُ أَصْحَابِي عَلَيْكَ ، وَحَسَدُهُمْ إِيَّاكَ
 بِمَا يَعْزِضُ فِي نَفْسِكَ : فَأَنْتَ مَعِيَ ، وَأَنَا أَكْفِيكَ ذَلِكَ ،
 وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجَاتِ الْكِرَامَةِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِكَ .
 قَالَ ابْنُ آوَى : إِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ الْإِحْسَانَ إِلَيَّ ، فَلْيَدْعُنِي
 فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ أَعِيشُ آمِنًا ، قَلِيلَ الْهَمِّ ، رَاضِيًا بِعَيْشِي مِنَ الْمَاءِ

وَالْعُشْبُ : فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ
الْأَذَى وَالْخَوْفِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَا يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طُولِ
عُمُرِهِ ، وَإِنَّ قَلِيلًا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ
مِنَ الْعَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ . قَالَ الْأَسَدُ : قَدْ سَمِعْتُ
مَقَالَتَكَ ، فَلَا تَخَفْ شَيْئًا مِمَّا أَرَاكَ تَخَافُ مِنْهُ . وَلَسْتُ
أَجِدُ بَدَأًا مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِكَ فِي أَمْرِي . قَالَ ابْنُ أَوَى : أَمَّا إِذَا
أَبَى الْمَلِكُ إِلَّا ذَلِكَ فَلْيَجْعَلْ لِي عَهْدًا ، إِنْ بَغَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ
أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ ، مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي : مَخَافَةً عَلَى مَنَزَلَتِهِ ، أَوْ مِمَّنْ هُوَ
دُونِي : لِيُنَازِعَنِي فِي مَنَزَلَتِي ، فَذَكَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ذَاكِرُ
بِلِسَانِهِ ، أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ مَا يُرِيدُ بِهِ تَحْمِيلَ الْمَلِكِ عَلَى ، إِلَّا
يَعَجَلُ فِي أَمْرِي ، وَأَنْ يَتَثَبَّتَ فِيمَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ وَيَذَكَرَ عِنْدَهُ
مِنْ ذَلِكَ ، وَيَفْحَصَ عَنْهُ ، ثُمَّ لِيَصْنَعَ مَا بَدَأَ لَهُ . فَإِذَا وَثِقْتُ
مِنْ ذَلِكَ ، أَعْنَتُهُ بِنَفْسِي فِيمَا يُحِبُّ ، وَعَمِلْتُ لَهُ فِيمَا أَوْلَانِي
بِنَصِيحَةٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَحَرَصْتُ عَلَى أَلَّا أُجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي
سَبِيلًا . قَالَ الْأَسَدُ : لَكَ ذَلِكَ عَلَى وَزِيَادَةٍ . ثُمَّ وَلَّاهُ خَزَائِنَهُ ،
وَاخْتَصَّ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ ، وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ .

فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُ الْأَسَدِ ذَلِكَ ، غَاظَهُمْ وَسَاءَهُمْ . فَاجْتَمَعُوا
كَيْدَهُمْ ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ الْأَسَدَ . وَكَانَ الْأَسَدُ
قَدْ اسْتَطَابَ لَحْمًا فَعَزَلَ مِنْهُ مِقْدَارًا ، وَأَمَرَهُ بِالِاخْتِفَاطِ بِهِ ،
وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعٍ طَعَامِهِ وَأَحْرَزِهِ : لِيَعَادَ عَلَيْهِ ،
فَأَخَذُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَحَمَلُوهُ إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى ، فَخَبَّئُوهُ فِيهِ ،
وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، ثُمَّ حَضَرُوا يَكْذِبُونَهُ إِنْ جَرَتْ فِي ذَلِكَ حَالٌ .
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، وَدَعَا الْأَسَدُ بِغَدَائِهِ ، فَقَدَ ذَلِكَ اللَّحْمَ ،
فَالْتَمَسَهُ وَلَمْ يَجِدْهُ ، وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنَ
الْمَكِيدَةِ . فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا الْمَكِيدَةَ ، وَقَعَدُوا فِي الْمَجْلِسِ .
ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ ، وَشَدَّدَ فِيهِ ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ ،
فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ الْمُخْبِرِ النَّاصِحِ :
إِنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُخْبِرَ الْمَلِكَ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ ، وَإِنْ شَقَّ
ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ . وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي
ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ . قَالَ الْآخَرُ : لَا أَرَاهُ يَفْعَلُ هَذَا ، وَلَكِنْ
انْظُرُوا وَافْخَصُوا : فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْخِلَائِقِ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الْآخَرُ :

لَعَمْرِي مَا تَكَادُ السَّرَائِرُ تُعَرَّفُ ، وَأَظُنُّكُمْ إِنْ فَخَصْتُمْ عَنْ هَذَا
وَجَدْتُمْ اللَّحْمَ بَيْتِ ابْنِ آوَى ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ يُذَكِّرُ مِنْ عِيُونِهِ وَخِيَانَتِهِ
نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ . قَالَ الْآخَرُ : لَيْنَ وَجَدْنَا هَذَا حَقًّا
فَلَيْسَتْ بِاخْتِيَانَةٍ فَقَطْ ، وَلَكِنْ مَعَ اخْتِيَانَةٍ كُفْرَانَعْمَةٍ ، وَالْجَرَائِةُ
عَلَى الْمَلِكِ . قَالَ الْآخَرُ : أَنْتُمْ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ، لَا أُسْتَطِيعُ
أَنْ أَكْذِبَكُمْ ، وَلَكِنْ سَيَبِينُ هَذَا لَوْ أَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ
يُفْتَشُهُ . قَالَ آخَرُ : إِنْ كَانَ الْمَلِكُ مُفْتَشًا مَنْزِلَهُ فَلْيُعَجِّلْ :
فَإِنَّ عِيُونَهُ وَجَوَاسِيسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ . وَلَمْ يَزَالُوا فِي هَذَا
الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِابْنِ
آوَى فَخَضَرَ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّنَ اللَّحْمِ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِالِاخْتِفَاطِ بِهِ ،
قَالَ : دَفَعْتُهُ إِلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ . فَدَعَا
الْأَسَدُ بِصَاحِبِ الطَّعَامِ ، وَكَانَ مِمَّنْ شَايَعَ وَبَايَعَ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى
ابْنِ آوَى . فَقَالَ : مَا دَفَعْتُ إِلَى شَيْئًا . فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ أَمِينًا إِلَى بَيْتِ
ابْنِ آوَى لِيُفْتَشَهُ ، فَوَجَدَ فِيهِ ذَلِكَ اللَّحْمَ ؛ فَأَتَى بِهِ الْأَسَدَ .
فَدَنَا مِنْ الْأَسَدِ ذَنْبٌ لَمْ يَكُنْ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ

يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ الْعَدُولِ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا لَا يَعْلَمُونَ ، حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . فَقَالَ : بَعْدَ أَنْ اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى خِيَانَةِ ابْنِ
آوَى فَلَا يَعْفُونَ عَنْهُ : فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ لَمْ يَطْلِعِ الْمَلِكُ بَعْدَهَا
عَلَى خِيَانَةِ خَائِنٍ ، وَلَا ذَنْبٍ مُذْنِبٍ . فَأَمَرَ الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى أَنْ
يُخْرَجَ ، وَيُحْتَفَظَ بِهِ . فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَاءِ الْمَلِكِ : إِنِّي لَا أُعْجِبُ
مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ هَذَا ،
وَلَمْ يَعْرِفْ خَبْرَهُ وَمُخَادَعَتَهُ ؟ وَأَعْجِبُ مِنْ هَذَا أَنِّي أَرَاهُ سَيَصْفَحُ
عَنْهُ ، بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ . فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ بَعْضَهُمْ رَسُولًا إِلَى
ابْنِ آوَى يَلْتَمِسُ مِنْهُ الْعُذْرَ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ بِرِسَالَةٍ كَاذِبَةٍ
اخْتَرَعَهَا ، فَغَضِبَ الْأَسَدُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِابْنِ آوَى أَنْ يُقْتَلَ .
فَعَلِمَتْ أُمُّ الْأَسَدِ أَنَّهُ قَدْ عَجَلَ فِي أَمْرِهِ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِينَ أَمَرُوا
بِقَتْلِهِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ ، وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِهَا ، فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ بَأَى ذَنْبٍ
أَمَرْتَ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْأَمْرِ . فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ
عَجَلْتَ . وَإِنَّمَا يَسْلُمُ الْعَاقِلُ مِنَ النَّدَامَةِ بِتَرْكِ الْعَجَلَةِ
وَبِالتَّثَبُّتِ . وَالْعَجَلَةُ لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَجْتَنِي ثَمَرَةَ النَّدَامَةِ ،

بِسَبَبِ ضَعْفِ الرَّأْيِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التُّودَةِ وَالتَّثَبُّتِ
 مِنَ الْمُلُوكِ : فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا ، وَالْوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ ، وَالْمُتَعَلِّمَ
 بِالْمُعَلِّمِ ، وَالْجُنْدَ بِالْقَائِدِ ، وَالنَّاسِكَ بِالْدِّينِ ، وَالْعَامَّةَ
 بِالْمُلُوكِ ، وَالْمُلُوكَ بِالتَّقْوَى ، وَالتَّقْوَى بِالْعَقْلِ ، وَالْعَقْلَ
 بِالتَّثَبُّتِ وَالْأَنَاءَةِ ، وَرَأْسَ الْكُلِّ الْحَزْمُ ، وَرَأْسَ الْحَزْمِ لِلْمَلِكِ
 مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ ، وَإِنْزَاهُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ ، وَاتِّهَامُهُ بَعْضَهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ . فَإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلَاكِ بَعْضٍ سَبِيلًا
 لَفَعَلَ . وَقَدْ جَرَّبْتُ ابْنَ آوَى ، وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمَرْوَعَتَهُ ،
 ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَادِحًا لَهُ رَاضِيًا عَنْهُ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَخُونَهُ
 بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَأَتِمَّانِهِ لَهُ ، وَمُنْذُ مَجِيئِهِ إِلَى الْآنَ لَمْ يُطْلَعْ لَهُ
 عَلَى خِيَانَةٍ إِلَّا عَلَى الْعِفَّةِ وَالنَّصِيحَةِ . وَمَا كَانَ رَأْيُ الْمَلِكِ
 أَنْ يُعْجَلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ طَائِقِ لَحْمٍ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ
 تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى : لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَعَرَّضَ لِلْحِمِّ
 اسْتَوْدَعْتُهُ إِيَّاهُ . وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذَلِكَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ
 ابْنَ آوَى لَهُ خُصَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ أُتِمُّوا بِهَذَا الْأَمْرِ . وَهُمْ الَّذِينَ

ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ فَوَضَعُوهُ فِيهِ : فَإِنَّ الْحِدَاةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا قِطْعَةً لَحْمٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ ، وَالْكَلْبُ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَظْمٌ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ . وَابْنُ آوَى مُنْذُ كَانَ إِلَى الْيَوْمِ نَافِعٌ ، وَكَانَ مُحْتَمِلًا لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبٍ مَنَفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ ، وَلِكُلِّ عَنَاءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ رَاحَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُونَكَ سِرًّا .

فَبَيْنَمَا أُمُّ الْأَسَدِ تَقُصُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، إِذْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ بَعْضُ ثِقَاتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى . فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ ، بَعْدَ أَنْ أَطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ آوَى : إِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ إِلَّا بِرُخْصَ لِمَنْ سَعَى بِهِ لِئَلَّا يَنْجَرَّ وَاعِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ؛ بَلْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لَكِنِّي لَا يَعُودُوا إِلَى مِثْلِهِ : فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجِعَ فِي أَمْرِ الْكَفُورِ لِلْحُسْنَى ، الْجَرِيءِ عَلَى الْغَدْرِ ، الزَّاهِدِ فِي الْخَيْرِ ، الَّذِي لَا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْزَى بِعَمَلِهِ ، وَقَدْ عَرَفْتَ سُرْعَةَ الْغَضَبِ وَفَرْطَ الْهَفْوَةِ ؛ وَمَنْ سَخَطَ بِالْيَسِيرِ لَمْ يَبْلُغْ رِضَاهُ بِالْكَثِيرِ . وَالْأَوَّلَى لَكَ أَنْ تُرَاجِعَ ابْنَ آوَى ،

وَتَعَطِفَ عَلَيْهِ ، وَلَا يُوسِّنَكَ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ
 مِنَ الْإِسَاءَةِ : فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَتَّبِعِي تَرْكُهُ عَلَى حَالٍ مِنَ
 الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلَاحِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ
 وَالشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبُعْدِ
 مِنَ الْأَذَى وَالِاخْتِمَالِ لِلْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ وَإِنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ
 مِنْهُمْ الْمَثُونَةُ . وَأَمَّا مَنْ يَتَّبِعِي تَرْكُهُ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّرَاسَةِ وَلُومِ
 الْعَهْدِ وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْوَرَعِ ، وَاتِّصَفَ
 بِالْجُحُودِ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَعَقَابِهَا . وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ آوَى وَجَرَبْتَهُ
 وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُوَاصَلَتِهِ .

فَدَعَا الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدَهُ
 خَيْرًا ، وَقَالَ : إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَرَادُّكَ إِلَى مَنْزِلَتِكَ . فَقَالَ
 ابْنُ آوَى : إِنَّ شَرَّ الْأَخْلَاءِ مِنَ التَّمَسِّ مَنَفَعَةَ نَفْسِهِ بِضُرِّ أَخِيهِ ،
 وَمَنْ كَانَ غَيْرَ نَازِلٍ لَهُ كَنْظَرِهِ لِنَفْسِهِ ، أَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَرْضِيَهُ
 بِغَيْرِ الْحَقِّ لِأَجْلِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ ذَلِكَ بَيْنَ

الْأَخْلَاءُ . وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَى مَا عَلِمَ ، فَلَا يَغْلُظَنَّ عَلَى
 نَفْسِهِ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَنِّي بِهِ غَيْرُ وَائِقٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَصْحَبَهُ :
 فَإِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْحَبُوا مَنْ عَاقَبُوهُ أَشَدَّ الْعِقَابِ ،
 وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَرْفُضُوهُ أَصْلًا : فَإِنَّ ذَا السُّلْطَانِ إِذَا عَزَلَ
 كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِبْعَادِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُ . فَلَمْ يَلْتَفِتْ
 الْأَسَدُ إِلَى كَلَامِهِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ
 وَأَخْلَاقَكَ ، وَجَرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفَاءَكَ وَصِدْقَكَ ، وَعَرَفْتُ
 كَذِبَ مَنْ تَمَحَّلَ الْحِيْلَ لِتَحْمَلِي عَلَيْكَ . وَإِنِّي مِنْزِلُكَ مِنْ نَفْسِي
 مَنْزِلَةُ الْأَخْيَارِ الْكُرَمَاءِ ، وَالْكَرِيمُ تُنْسِبُهُ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنْ
 الْإِحْسَانِ ، الْخِلَالُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الثِّقَةِ
 بِكَ ، فَعُدْ إِلَى الثِّقَةِ بِنَا : فَإِنَّ لَنَا وَلَكَ بِذَلِكَ غِبْطَةً وَسُرُورًا .
 فَعَادَ ابْنُ آوَى إِلَى وَلَايَةِ مَا كَانَ يَلِي ، وَضَاعَفَ لَهُ الْمَلِكُ
 الْكَرَامَةَ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْآيَّامُ إِلَّا تَقَرُّبًا مِنَ السُّلْطَانِ .

بَابُ إِيْلَاذَ وَبِلَاذَ وَإِرَاخَتَ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدَبَا الْفِيلْسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ
 يُلْزِمَ بِهَا نَفْسَهُ ، وَيَحْفَظَ مُلْكَهُ وَيُثَبِّتَ سُلْطَانَهُ ، وَيَكُونَ ذَلِكَ
 رَأْسَ أَمْرِهِ وَمِلَاكَهُ : أَبِالْحِلْمِ أَمْ بِالْمُرُوءَةِ أَمْ بِالشَّجَاعَةِ أَمْ
 بِالْجُودِ ؟ قَالَ بِيَدَبَا : إِنَّ أَحَقَّ مَا يَحْفَظُ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكَهُ
 الْحِلْمُ ، وَبِهِ تَثَبُّتُ السَّلْطَنَةُ ، وَالْحِلْمُ رَأْسُ الْأُمُورِ وَمِلَاكُهَا ،
 وَأَجُودُ مَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ : كَالَّذِي زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ كَانَ مَلِكٌ يُدْعَى
 بِإِلَاذَ ، وَكَانَ لَهُ وَزِيرٌ يُدْعَى إِيْلَاذَ . وَكَانَ مُتَعَبِّدًا نَاسِكًا .
 فَنَامَ الْمَلِكُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ ثَمَانِيَةَ أَحْلَامٍ أَفْرَعَتْهُ ،
 فَاسْتَيْقَظَ مَرْعُوبًا . فَدَعَا الْبَرَاهِمَةَ ، وَهُمْ النَّسَاكُ لِيَعْبُرُوا
 رُؤْيَاهُ . فَلَمَّا حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى . فَقَالُوا
 بِأَجْمَعِهِمْ : لَقَدْ رَأَى الْمَلِكُ عَجَبًا فَإِنْ أَتَيْنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِئْنَاهُ
 بِتَأْوِيلِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : قَدْ أَتَيْتُكُمْ نَخْرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ

ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحَدِهِمْ وَأَتَمَرُوا بَيْنَهُمْ . وَقَالُوا : قَدْ وَجَدْتُمْ
 عَلَيْنَا وَاسِعًا تَدْرِكُونَ بِهِ ثَارَكُمْ وَتَنْتَقِمُونَ بِهِ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ
 أَنَّهُ قَتَلَ مِنَّا بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَهَذَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنَا
 عَلَى سِرِّهِ وَسَأَلْنَا تَفْسِيرَ رُؤْيَاهُ : فَهَلَسُوا نَغْلِظُ لَهُ الْقَوْلَ وَنُخَوِّفُهُ
 حَتَّى يَجْمَلَهُ الْفَرْقُ وَالْجَزَعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيدُ وَنَأْمُرُ .
 فَنَقُولُ : اذْفَعْ إِلَيْنَا أَحِبَاءَكَ وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نَقْتُلَهُمْ :
 فَإِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فَلَمْ نَرَ أَنَّ يَدْفَعُ عَنْكَ مَا رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ
 وَمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ هَذَا الشَّرِّ إِلَّا بِقَتْلِ مَنْ نُسَمِّي لَكَ . فَإِنْ
 قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا ؟ سَمُّوهُمْ لِي . قُلْنَا :
 نُرِيدُ الْمَلِكَةَ إِيرَاخْتَ أُمَّ جَوِيرِ الْمُحْمُودَةِ أَكْرَمَ نِسَائِكَ عَلَيْكَ .
 وَنُرِيدُ جَوِيرَ أَحَبِّ بَنِيكَ إِلَيْكَ وَأَفْضَلَهُمْ عِنْدَكَ . وَنُرِيدُ ابْنَ
 أَخِيكَ الْكَرِيمِ ، وَإِيلَاذَ خَلِيلِكَ وَصَاحِبَ أَمْرِكَ . وَنُرِيدُ كَالَا
 الْكَاتِبَ صَاحِبَ سِرِّكَ وَسَيْفَكَ الَّذِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ ، وَالْفِيلَ
 الْأَبْيَضَ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ ، وَالْفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرَكَبُكَ
 فِي الْقِتَالِ . وَنُرِيدُ الْفِيلَيْنِ الْآخَرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونَانِ

مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ . وَنُرِيدُ الْبُخْتِيَّ السَّرِيعَ الْقَوِيَّ . وَنُرِيدُ
 كَبَارِيُونَ الْحَكِيمَ الْفَاضِلَ الْعَالِمَ بِالْأُمُورِ لِنَنْتَقِمَ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنَا .
 ثُمَّ نَقُولُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 سَمَّيْنَاهُمْ لَكَ ، ثُمَّ تَجْعَلَ دِمَاءَهُمْ فِي حَوْضٍ تَمْلُوهُ ، ثُمَّ تَقْعُدُ فِيهِ .
 فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْحَوْضِ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ الْبَرَاهِمَةِ مِنَ
 الْآفَاقِ الْأَرْبَعَةِ نَجُولُ حَوْلَكَ فَفَرِّقْكَ وَنَتَقُلْ عَلَيْكَ وَنَمْسَحُ
 عَنْكَ الدَّمَ وَنَغْسِلُكَ بِالْمَاءِ وَالذَّهْنِ الطَّيِّبِ . ثُمَّ تَقُومُ إِلَى مَنْزِلِكَ
 الْبَهِيِّ فَيَدْفَعُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْبَلَاءِ الَّذِي تَخْشَوْهُ عَلَيْكَ . فَإِنْ
 صَبَرْتَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَطَابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَحِبَائِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا
 لَكَ ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاءَكَ ، تَخَلَّصْتَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَاسْتَقَامَ لَكَ
 مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ ، وَاسْتَخْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحَبَبْتَ .
 وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ تَخَوَّفْنَا عَلَيْكَ أَنْ يُغْصَبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهْلِكَ .
 فَإِنْ هُوَ أَطَاعَنَا فِيمَا نَأْمُرُهُ قَتَلْنَاهُ أَوْ قَتَلَهُ شِئْنَا .

فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى مَا أَمَرُوا بِهِ رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ .
 وَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فِي تَفْسِيرِ مَا رَأَيْتَ ،
 وَفَحَصْنَا عَنِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا . فَلْتَكُنْ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الطَّاهِرُ

الصَّالِحُ الْكَرَامَةُ . وَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلِمَكَ بِمَا رَأَيْنَا إِلَّا أَنْ
تَخْلُوَ بِنَا . فَأَخْرَجَ الْمَلِكُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَخَلَا بِهِمْ . فَحَدَّثُوا
بِالَّذِي ائْتَمَرُوا بِهِ . فَقَالَ لَهُمْ : أَلَمُوتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَيَاةِ
إِنْ أَنَا قَتَلْتُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَدِيلُ نَفْسِي . وَأَنَا مَيِّتٌ لَا مُحَالَةَ ،
وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ ، وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكًا ، وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي
وَفِرَاقَ الْأَحْبَاءِ سَوَاءٌ . قَالَ لَهُ الْبَرَاهِمَةُ : إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ
أَخْبَرْنَاكَ . فَأَذِنَ لَهُمْ . فَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ
صَوَابًا حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ . فَاحْتَفِظْ
بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ ، وَاعْمَلْ هَذَا الَّذِي لَكَ فِيهِ الرَّجَاءُ الْعَظِيمُ
عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ . وَقَرَّ عَيْنًا بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ
الَّذِينَ شَرُفَتْ وَكَرُمَتْ بِهِمْ . وَلَا تَدَّعِ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَتَأْخُذْ
بِالضَّعِيفِ فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِشَارًا لِمَنْ يُحِبُّ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ
أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْحَيَاةَ مُحَبَّةً لِنَفْسِهِ . وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ
مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْأَحْبَابِ إِلَّا لِيَتَمَتَّعَ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِ . وَإِنَّمَا
قَوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمُلْكِكَ . وَإِنَّكَ لَمْ تَتَلَّ مُلْكَكَ

إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ . وَلَيْسَ
يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ وَيَهُونَ عَلَيْكَ . فَاسْتَمِعْ كَلَامَنَا . فَانْظُرْ
لِنَفْسِكَ مِنْهَا ، وَدَعْ مَا سِوَاهَا : فَإِنَّهُ لَا خَطَرَ لَهُ . فَلَمَّا
رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ وَاجْتَرَعُوا
عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ . وَقَامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ
وَدَخَلَ إِلَى جُجْرَتِهِ نَحَرَ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ
السَّمَكَةُ إِذَا نَخَرَجَتْ مِنَ الْمَاءِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
مَا أَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي ؟ الْمَمْلَكَةُ أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي ؟
وَلَنْ أُنَالَ الْفَرَحَ مَا عِشْتُ . وَلَيْسَ مُلْكِي بِبَاقٍ عَلَيَّ
إِلَى الْأَبَدِ . وَلَسْتُ بِالْمُصِيبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي . وَإِنِّي لَزَاهِدٌ
فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرِ إِيرَاخْتَ . وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُلْكِي
إِذَا هَلَكَ وَزِيرِي إِيْلَاذُ ؟ وَكَيْفَ أَضْبِطُ أَمْرِي إِذَا هَلَكَ فِيلِي
الْأَبْيَضُ وَفَرَسِي الْجَوَادُ ؟ وَكَيْفَ أَدْعَى مَلِكًا وَقَدْ قَتَلْتُ
مَنْ أَشَارَ الْبَرَاهِمَةُ بِقَتْلِهِ ؟ وَمَا أَصْنَعُ بِالذَّنْبِ بَعْدَهُمْ ؟ ثُمَّ إِنَّ
الْحَدِيثَ فَشَا فِي الْأَرْضِ بِحُزْنِ الْمَلِكِ وَهَمِّهِ . فَلَمَّا رَأَى

إِيلَاذُ مَا نَالَ الْمَلِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَكَّرَ بِحِكْمَتِهِ وَنَظَرَ وَقَالَ :
 مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ الْمَلِكَ فَاسْأَلَهُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ
 نَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُونِي . ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِيْرَاخَتْ فَقَالَ :
 إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ الْمَلِكَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا إِلَّا بِمَشُورَتِي
 وَرَأْيِي . وَأَرَاهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْرًا لَا أَعْلَمُ مَا هُوَ . وَلَا أَرَاهُ
 يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئًا . وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خَالِيًا مَعَ جَمَاعَةِ الْبَرَّهَمِيِّينَ
 مُنْذُ لَيَالٍ . وَقَدْ احْتَجَبَ عَنَّا فِيهَا . وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَكُونَ
 قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ . فَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يُسِيرُوا
 عَلَيْهِ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ السُّوءُ . فَقَوْمِي وَادْخُلِي
 عَلَيْهِ فَاسْأَلِيهِ عَنْ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ . وَأَخْبِرْنِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ
 وَأَعْلِيْنِي : فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ . فَلَعَلَّ الْبَرَّهَمِيِّينَ
 قَدْ زَيْنُوا لَهُ أَمْرًا أَوْ حَمَلُوهُ عَلَى خُطَّةٍ قَبِيحَةٍ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ
 خُلُقِ الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا . وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَغِيرُ
 الْأُمُورِ وَكَبِيرُهَا . فَقَالَتْ إِيْرَاخَتْ : إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكِ
 بَعْضُ الْعِتَابِ فَلَسْتُ بِدَاخِلَةٍ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ . فَقَالَ لَهَا
 إِيلَاذُ : لَا تَحْمِلِي عَلَيْهِ الْحَقْدَ فِي مِثْلِ هَذَا . وَلَا يَخْطُرَنَّ ذَلِكَ

عَلَى بَالِكَ فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكَ . وَقَدْ سَمِعْتَهُ
 كَثِيرًا يَقُولُ : مَا اشْتَدَّ غَمِّي وَدَخَلْتُ عَلَى إِيرَاخْتُ إِلَّا سُرِّي
 عَنِّي ، فَقُومِي إِلَيْهِ وَاصْفَحِي عَنْهُ . وَكَلِمِيهِ بِمَا تَعْلَمِينَ أَنَّهُ
 تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ . وَأَعْلِمِينِي بِمَا يَكُونُ
 جَوَابُهُ : فَإِنَّهُ لَنَا وَلِأَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَكْثَرُ الرَّاحَةِ . فَانْطَلَقْتُ
 إِيرَاخْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى الْمَلِكِ فَجَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ . فَقَالَتْ :
 مَا الَّذِي بِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُحْمَدُ ؟ وَمَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ ؟
 فَإِنِّي أَرَاكَ مُحْزُونًا . فَأَعْلِمْنِي مَا بِكَ ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْزَنَ
 مَعَكَ وَنُوَاسِيكَ بِأَنْفُسِنَا . فَقَالَ الْمَلِكُ : أَيُّهَا السَّيِّدَةُ لَا تَسْأَلِينِي
 عَنْ أَمْرِي فَتَزِيدَنِي غَمًّا وَحُزْنًا : فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلَنِي
 عَنْهُ . قَالَتْ : أَوْ قَدْ تَزَلْتُ عِنْدَكَ مَنَزَلَةً مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا ؟
 إِنَّمَا أَخَذَ النَّاسُ عَقْلًا مَنْ إِذَا تَزَلَتْ بِهِ النَّازِلَةُ كَانَ لِنَفْسِهِ
 أَشَدَّ ضَبْطًا ، وَأَكْثَرَهُمْ اسْتِمَاعًا مِنْ أَهْلِ النَّصِيحِ حَتَّى يَنْجُو مِنْ
 تِلْكَ النَّازِلَةِ بِالْحِيلَةِ وَالْعَقْلِ وَالْبَحْثِ وَالْمُشَاوَرَةِ . فَعَظِيمُ
 الذَّنْبِ لَا يَقْنَطُ مِنَ الرَّحْمَةِ . وَلَا تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ الْهَمِّ
 وَالْحُزَنِ . فَإِنَّهُمَا لَا يَرُدَّانِ شَيْئًا مَقْضِيًّا . إِلَّا أَنَّهُمَا يُنْجِلَانِ

الْجِسْمَ وَيُسْفِيَانِ الْعَدُوَّ . قَالَ لَهَا الْمَلِكُ : لَا تَسْأَلِينِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ^(١) . وَالَّذِي تَسْأَلِينِي عَنْهُ لَا خَيْرَ فِيهِ : لِأَنَّ عَاقِبَتَهُ هَلَاكِي وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي وَمَنْ هُوَ عَدِيلُ نَفْسِي . وَذَٰكَ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَتْلِكَ وَقَتْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي . وَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكُمْ . وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهَذَا إِلَّا اعْتَرَاهُ الْحُزْنُ ؟

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ إِيرَاخْتُ بَزَعَتْ . وَمَنَعَهَا عَقْلُهَا أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ بَزْعًا . فَقَالَتْ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَجْزَعْ فَنَحْنُ لَكَ الْفِدَاءُ . وَلَكَ فِي سِوَايَ وَمِثْلِي مِنَ الْجَوَارِي مَا تَقْرُبُهُ عَيْنُكَ . وَلَكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، حَاجَةً يَحْمِلُنِي عَلَى طَلِبِهَا حُبِّي لَكَ وَإِثَارِي إِيَّاكَ . وَهِيَ نَصِيحَتِي لَكَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَتْ : أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا تَتَّقَ بَعْدَهَا بِأَحَدٍ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ . وَلَا تُسَاوِرَهُمْ فِي أَمْرِ حَتَّى تَنْتَشِبْتَ فِي أَمْرِكَ . ثُمَّ تُسَاوِرَ فِيهِ ثِقَاتِكَ مِرَارًا : فَإِنَّ الْقَتْلَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَلَسْتَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُنْجِي مَنْ

قَتَلْتُ . وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ : إِذَا لَقِيتَ جَوْهَرًا لَا خَيْرَ فِيهِ
فَلَا تُلْقِهِ مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
لَا تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ لَا يُحِبُّونَكَ . وَقَدْ قَتَلْتَ
مِنْهُمْ بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَلَا تَظُنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ
أَوْلِيكَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ ، وَلَا أَنْ
تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا . وَإِنَّمَا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لِأَجْلِ الْحَقْدِ الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ : لَعَلَّهُمْ يَهْلِكُونَكَ وَيَهْلِكُونَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيرَكَ :
فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ . فَأَظُنُّكَ لَوْ قَبِلْتَ مِنْهُمْ فَقَتَلْتَ مَنْ
أَشَارُوا بِقَتْلِهِ ظَفَرُوا بِكَ وَغَلَبُوكَ عَلَى مُلْكِكَ ، فَيَعُودُ الْمَلِكُ
إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ . فَانْطَلِقْ إِلَى كَبَارِيُونَ الْحَكِيمِ ، فَهُوَ عَالِمٌ فِطْنٍ ،
فَأَخْبِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ وَاسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِهَا .
فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَرَى عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الْغَمِّ .
فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ فَرَكَبَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى كَبَارِيُونَ الْحَكِيمِ .
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَسَجَدَ لَهُ ، وَقَامَ مُطَاطِبًا
الرَّاسَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : مَا بِالْكُ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟ وَمَا لِي

أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ ؟ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ثَمَانِيَةَ
أَحْلَامٍ فَقَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرَاهِمَةِ . وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ
ذَلِكَ عَظِيمٌ أَمْرٌ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَغْيِيرِهِمْ لِرُؤْيَايَ . وَأَخْشَى أَنْ
يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِي أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : إِنْ
شِئْتَ فَأَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ . فَلَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ .
قَالَ : لَا يَحْزُنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَمْرُ وَلَا تَخَفْ مِنْهُ : أَمَّا
السَّمَكَتَانِ الْحَمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا قَائِمَتَيْنِ عَلَى أُذُنَيْهِمَا
فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكٍ نَهَاوَنَدَ بَعْلَبَةِ فِيهَا عِقْدَانِ مِنَ الدَّرِّ
وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ ، قِيمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ
بَيْنَ يَدَيْكَ . وَأَمَّا الْوَزَّتَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ
فَوَقَعْنَا بَيْنَ يَدَيْكَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ بَلَخَ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى
الْأَرْضِ مِثْلَهُمَا فَيَقُومَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا
تَدِبُ عَلَى رِجْلِكَ الْبُسْرَى : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ صَنِجِينَ مِنْ
يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصِ الْحَدِيدِ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ .
وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ
مَلِكٍ كَازُرُونَ مِنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِلِبَاسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ

أَرْجُوَانِ يُضَىٰ فِي الظُّلْمَةِ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسْلِكَ جِسْمَكَ
بِالْمَاءِ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ رَهْزِينَ مِنْ يَوْمٍ بَيْنَ يَدَيْكَ
بِثِيَابٍ كَتَّانٍ مِنْ لِبَاسِ الْمُلُوكِ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ
عَلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كِيدُورٍ مِنْ يَوْمٍ بَيْنَ
يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَبْيَضَ لَا تَلْحَقُهُ الْحَيْلُ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ
شَبِيهَاً بِالنَّارِ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ أَرْزَنٍ مِنْ يَوْمٍ بَيْنَ يَدَيْكَ
بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ . وَأَمَّا الطَّيْرُ الَّذِي
رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ : فَلَسْتُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ الْيَوْمَ .
وَلَيْسَ بِضَارِّكَ ، فَلَا تَوَجَلَنَّ مِنْهُ . وَلَكِنْ فِيهِ بَعْضُ السَّخِطِ
وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ تُحِبُّهُ : فَهَذَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَأَمَّا
هَذِهِ الرُّسُلُ وَالْبُرْدُ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعًا فَيَقُومُونَ
بَيْنَ يَدَيْكَ . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ لِكَبَارِيِّونَ وَرَجَعَ إِلَى
مَنْزِلِهِ .

(١) إجراء هذه الكلمة على وزن فعيل أو فعلين كقطمير وغسلين ليكون لها نظير في العربية هو الذي دُعِيَ إِلَى ضَبْطِهَا هَكَذَا وَمِثْلَهَا مُنْجِبِينَ .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَاءَتِ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّسُلِ تَخْرُجُ
 الْمَلِكُ بِمَجْلَسٍ عَلَى النَّخْتِ ، وَأَذِنَ لِلْأَشْرَافِ ، وَجَاءَتْهُ الْهَدَايَا
 كَمَا أَخْبَرَهُ بَكَارِيُونُ الْحَكِيمُ . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ عَجْبُهُ
 وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ بَكَارِيُونٍ . وَقَالَ : مَا وَفَّقْتُ حِينَ قَصَصْتُ
 رُؤْيَايَ عَلَى الْبَرَاهِمَةِ فَأَمُرُونِي بِمَا أَمُرُونِي بِهِ . وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى تَدَارَكَنِي بِرَحْمَتِهِ لَكُنْتُ قَدْ هَلَكْتُ وَاهْلَكْتُ ، وَكَذَلِكَ
 لَا يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَّا مِنْ الْأَخْلَاءِ ذَوِي الْعُقُولِ .
 وَإِنْ إِيْرَاخَتْ أَشَارَتْ بِالْخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ . وَرَأَيْتُ بِهِ النَّجَاحَ . فَضَعُوا
 الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لَتَأْخُذَ مِنْهَا مَا اخْتَارَتْ . ثُمَّ قَالَ لِإِيلَازَ :
 خُذِ الْإِكْلِيلَ وَالشِّبَابَ وَاحْمِلْهَا وَاتَّبِعْنِي بِهَا إِلَى مَجْلِسِ النِّسَاءِ .
 ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَعَا إِيْرَاخْتَ وَحُورَقْنَاهُ أَكْرَمَ نِسَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ .
 فَقَالَ لِإِيلَازَ : ضَعْ الْكُسُوَّةَ وَالْإِكْلِيلَ بَيْنَ يَدَيَّ إِيْرَاخْتَ
 لَتَأْخُذَ أَهْيَا شَاءَتْ . فَوَضَعَتِ الْهَدَايَا بَيْنَ يَدَيَّ إِيْرَاخْتَ .
 فَأَخَذَتْ مِنْهَا الْإِكْلِيلَ ، وَأَخَذَتْ حُورَقْنَاهُ كُسُوَّةً مِنْ أَنْفَرِ
 الشِّبَابِ وَأَحْسَنَهَا . وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ لَيْلَةً عِنْدَ

إِيْرَاخَتْ وَلَبِيْلَةٌ عِنْدَ حُورَقْنَاهُ . وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ الْمَلِكِ أَنْ تَهْبِي لَهُ
 الْمَرْأَةُ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا أُرْزًا بِحَلَاوَةٍ فَتُطْعِمُهُ إِيَّاهُ .
 فَأَتَى الْمَلِكُ إِيْرَاخَتْ فِي نَوْبَتِهَا . وَقَدْ صَنَعَتْ لَهُ أُرْزًا . فَدَخَلَتْ
 عَلَيْهِ بِالصَّخْفَةِ وَالْإِكْلِيلِ عَلَى رَأْسِهَا . فَعَلِمَتْ حُورَقْنَاهُ بِذَلِكَ
 فَغَارَتْ مِنْ إِيْرَاخَتْ . فَلَبِسَتْ تِلْكَ الْكُسُوَّةَ . وَمَرَّتْ بَيْنَ
 يَدَيِ الْمَلِكِ وَتِلْكَ الثُّيَابُ تُضِيءُ عَلَيْهَا مَعَ نُورِ وَجْهِهَا
 كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ . فَلَمَّا رَأَاهَا الْمَلِكُ أَعْجَبَتْهُ . ثُمَّ التَفَتَ
 إِلَى إِيْرَاخَتْ فَقَالَ : إِنَّكَ جَاهِلَةٌ حِينَ أَخَذْتِ الْإِكْلِيلَ وَتَرَكْتِ
 الْكُسُوَّةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِثْلُهَا . فَلَمَّا سَمِعَتْ إِيْرَاخَتْ
 مَدَحَ الْمَلِكِ لِحُورَقْنَاهُ وَثَنَاءَهُ عَلَيْهَا وَتَجْهِيلَهَا هِيَ وَذَمَّ رَأْيَهَا
 أَخَذَهَا مِنْ ذَلِكَ الْغِيْرَةِ وَالْغَيْظُ . فَضَرَبَتْ بِالصَّخْفَةِ رَأْسَ الْمَلِكِ .
 فَسَالَ الْأُرْزُ عَلَى وَجْهِهِ . فَقَامَ الْمَلِكُ مِنْ مَكَانِهِ وَدَعَا بِإِيْلَادَ .
 فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَرَى ، وَأَنَا مَلِكُ الْعَالَمِ ، كَيْفَ حَقَرْتَنِي هَذِهِ
 الْجَاهِلَةُ ، وَفَعَلْتَ بِي مَا تَرَى ؟ فَانْطَلَقَ بِهَا فَأَقْتُلَهَا وَلَا
 تَرْحَمَهَا . فَخَرَجَ إِيْلَادُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ : لَا أَقْتُلُهَا حَتَّى
 يَسْكُنَ عَنْهُ الْغَضَبُ . فَالْمَرْأَةُ عَاقِلَةٌ سَبِيْدَةُ الرَّأْيِ مِنَ الْمَلِكَاتِ

الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ فِي النِّسَاءِ ، وَلَيْسَ الْمَلِكُ بِصَابِرٍ عَنْهَا .
 وَقَدْ خَلَصَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ ، وَعَمِلَتْ أَعْمَالًا صَالِحَةً ، وَرَجَاؤُنَا
 فِيهَا عَظِيمٌ . وَلَسْتُ آمَنُهُ أَنْ يَقُولَ : لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَهَا حَتَّى
 تُرَاجِعَنِي ؟ فَلَسْتُ قَاتِلَهَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ الْمَلِكِ فِيهَا ثَانِيَةً :
 فَإِنْ رَأَيْتُهُ نَادِمًا حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ جِشْتُ بِهَا حَيَّةً . وَكُنْتُ قَدْ
 عَمِلْتُ عَمَلًا عَظِيمًا ، وَأَنْجَيْتُ إِيرَاخْتَ مِنَ الْقَتْلِ . وَحَفَظْتُ
 قَلْبَ الْمَلِكِ . وَأَتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ يَدًا . وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحًا
 مُسْتَرِيحًا مُصَوِّبًا رَأْيَهُ فِي الَّذِي فَعَلَهُ وَأَمَرَ بِهِ فَقَتْلُهَا لَا يَفُوتُ .

ثُمَّ أَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَوَكَّلَ بِهَا خَادِمًا مِنْ أُمَنَائِهِ ، وَأَمَرَهُ
 بِخِدْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا ، حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرِ الْمَلِكِ .
 ثُمَّ خَضَبَ سَيْفَهُ بِالدِّمِ وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ كَالْكُتَيْبِ الْحَزِينِ .
 فَقَالَ أَيُّهَا الْمَلِكُ : إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيرَاخْتَ . فَلَمْ
 يَلْبِثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَذَكَرَ بِجَمَالِ إِيرَاخْتَ
 وَحُسْنِهَا . وَاشْتَدَّ أَسْفُهُ عَلَيْهَا . وَجَعَلَ يُعْزِي نَفْسَهُ عَنْهَا .
 وَيَجْلَدُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ إِيلَادَ : أَحَقًّا أَمْضَى

أمره فيها أم لا ؟ ورجا - لما عرف من عقل إيلاذ -
 ألا يكون قد فعل ذلك . ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم
 الذي به ، فقال له : لا تهتم ولا تحزن أيها الملك : فإنه ليس
 في الهم والحزن منفعة . ولكنهما ينجلان الجسم ويفسدانه .
 فأصبر أيها الملك على ما لست بقادر عليه أبدا . وإن أحب
 الملك حديثه بحديث يسليه . قال : حدثني .

قال إيلاذ : زعموا أن حمامتين ذكرا وأنثى مالا عشهما من
 الحنطة والشعير . فقال الذكر للأنثى : إنا إذا وجدنا في الصحارى
 ما نعيش به فلسنا نأكل مما هاهنا شيئا . فإذا جاء الشتاء
 ولم يكن في الصحارى شيء رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه .
 فرضيت الأنثى بذلك . وقالت له : نعم ما رأيت . وكان ذلك
 الحب نديا حين وضعاه في عشهما . فانطلق الذكر فغاب .
 فلما جاء الصيف ^(١) يس الحب وانضم . فلما رجع الذكر رأى
 الحب ناقصا . فقال لها : أليس كنا أجمعنا رأينا على ألا
 نأكل منه شيئا ؟ فلم أكلناه ؟ فجعلت تخلف أنها ما أكلت منه

(١) ذهب ماؤه ولم يذكر الاقمار من ضمرا لا في هذا المعنى .

شَيْئًا . وَجَعَلَتْ تَعْتَذِرُ إِلَيْهِ . فَلَمْ يُصَدِّقْهَا . وَجَعَلَ يَنْقُرُهَا
 حَتَّى مَاتَتْ . فَلَبَّأَ جَاءَتْ الْأَمْطَارُ وَدَخَلَ الشِّتَاءُ تَتَدَّى الْحَبُّ
 وَأَمْتَلَأَ الْعُشُّ كَمَا كَانَ . فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذَلِكَ نَدِمَ . ثُمَّ اضْطَجَعَ
 إِلَى جَانِبِ حَمَامَتِهِ وَقَالَ : مَا يَنْفَعُنِي الْحَبُّ وَالْعُشُّ بَعْدَكَ إِذَا
 طَلَبْتُكَ فَلَمْ أَجِدْكَ ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكَ ، وَإِذَا فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ
 وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكَ ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى تَدَارُكِ مَا فَاتَ .
 ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى حُزْنِهِ فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَامًا وَلَا شَرَبًا حَتَّى مَاتَ
 إِلَى جَانِبِهَا . وَالْعَاقِلُ لَا يَعْجَلُ فِي الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ ،
 وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَخَافُ النَّدَامَةَ ، كَمَا نَدِمَ الْحَمَامُ الذَّكَرُ . وَقَدْ سَمِعْتُ
 أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ كَاوُ^(١)ةٌ مِنَ الْعَدَسِ
 فَوَضَعَ الْكَارَةَ عَنْ ظَهْرِهِ لِيَسْتَرِيحَ . فَتَزَلَّ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ
 مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الْعَدَسِ وَصَعِدَ إِلَى الشَّجَرَةِ . فَسَقَطَتْ مِنْ
 يَدِهِ حَبَّةٌ فَتَزَلَّ فِي طَلِبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا . وَانْتَثَرَمَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ
 الْعَدَسِ أَجْمَعُ . وَأَنْتَ أَيْضًا أَيُّهَا الْمَلِكُ عِنْدَكَ سِتَّةٌ عَشَرَ أَلْفَ
 أَمْرَأَةٍ تَدْعُو أَنْ تَلْهُو بَيْنَ وَتَطْلُبُ الَّتِي لَا تَجِدُ ! فَلَبَّأَ سَمِعَ

الْمَلِكُ ذَلِكَ خَشِيَ أَنْ تَكُونَ إِيرَاحْتُ قَدْ هَلَكْتَ . فَقَالَ
 إِيْلَاذُ : لِمَ لَا تَأْتِيَتْ وَتَثَبَّتْ ؟ بَلْ أَسْرَعْتَ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَةٍ
 وَاحِدَةٍ فَتَعَلَّقْتَ بِهَا ، وَفَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ سَاعَتِكَ ؟
 قَالَ إِيْلَاذُ : إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي
 لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَا اخْتِلَافَ لِقَوْلِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ
 أَفْسَدْتَ أَمْرِي وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِيرَاحْتُ . قَالَ إِيْلَاذُ :
 اثْنَانِ يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا : الَّذِي يَعْمَلُ الْإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ،
 وَالَّذِي لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ : لِأَنَّ فَرَحَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا
 قَلِيلٌ . وَتَدَامَتُهُمَا إِذْ يُعَايِنَانِ الْجَزَاءَ طَوِيلَةً لَا يُسْتَطَاعُ
 إِحْصَاؤُهَا . قَالَ الْمَلِكُ : لَئِنْ رَأَيْتُ إِيرَاحْتَ حَيَّةً لَا أُحْزَنُ عَلَى
 شَيْءٍ أَبَدًا . قَالَ إِيْلَاذُ : اثْنَانِ لَا يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا :
 الْمُجْتَهِدُ فِي الْبِرِّ كُلِّ يَوْمٍ ، وَالَّذِي لَمْ يَأْتِمْ قَطُّ . قَالَ الْمَلِكُ :
 مَا أَنَا بِنَاطِرٍ إِلَى إِيرَاحْتُ أَكْثَرِمًا نَظَرْتُ . قَالَ إِيْلَاذُ : اثْنَانِ
 لَا يَنْظُرَانِ : الْأَعْمَى وَالَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ . وَكَأَنَّ الْأَعْمَى لَا يَنْظُرُ
 السَّمَاءَ وَنُجُومَهَا وَأَرْضَهَا وَلَا يَنْظُرُ الْقُرْبَ وَالْبُعْدَ ، كَذَلِكَ الَّذِي
 لَا عَقْلَ لَهُ لَا يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ وَلَا الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : لَوْ رَأَيْتُ إِيرَاحْتَ لَأَشْتَدَّ فَرَحِي . قَالَ إِيْلَاذُ : اثْنَانِ

هُمَا الْفَرِحَانُ : الْبَصِيرُ وَالْعَالِمُ . فَكَمَا أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ أُمُورَ الْعَالِمِ
وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، فَكَذَلِكَ الْعَالِمُ
يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالْإِثْمَ ، وَيَعْرِفُ عَمَلَ الْآخِرَةِ ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ ،
وَيَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . قَالَ الْمَلِكُ : يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِيْلَاذُ وَنَأْخُذَ الْحَذَرَ وَنَلْزِمَ الْإِتْقَاءَ . قَالَ إِيْلَاذُ :
اِثْنَانِ يَنْبَغِي أَنْ يُتَبَاعَدَ مِنْهُمَا : الَّذِي يَقُولُ لَا بِرَّ وَلَا إِثْمَ وَلَا
عِقَابَ وَلَا ثَوَابَ وَلَا شَيْءَ عَلَى مِمَّا أَنَا فِيهِ ، وَالَّذِي لَا يَكَادُ
يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِمَحْرَمٍ ، وَلَا أُذُنُهُ عَنِ اسْتِمَاعِ
السُّوءِ ، وَلَا قَلْبُهُ عَمَّا تَهْمُ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الْإِثْمِ وَالْحَرِصِ .
قَالَ الْمَلِكُ : صَارَتْ يَدِي مِنْ إِيْرَاخْتٍ صِفْرًا . قَالَ إِيْلَاذُ :
ثَلَاثَةُ أَشْيَاءٍ أَصْفَارُ : النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ ، وَالْأَرْضُ
الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَلِكٌ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَعْلٌ . قَالَ الْمَلِكُ :
إِنَّكَ يَا إِيْلَاذُ لَتُلْقَى بِالْجَوَابِ ^(١) . قَالَ إِيْلَاذُ : ثَلَاثَةٌ يُلْقُونَ
بِالْجَوَابِ : الْمَلِكُ الَّذِي يُعْطَى وَيَقْسِمُ مِنْ خَزَائِنِهِ ، وَالْمَرْأَةُ
الْمُهْدَاةُ إِلَى مَنْ تَهْوَى مِنْ ذَوِي الْحَسَبِ ، وَالرَّجُلُ الْعَالِمُ
الْمَوْقُفُ لِلْخَيْرِ .

(١) مُجَابِي بِهِ أَوْ تَوْحَى بِهِ وَتَوَى إِلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ إِيْلَاذَ لَمَّا رَأَى الْمَلِكَ اشْتَدَّ بِهِ الْأَمْرُ، قَالَ : أَيُّهَا
 الْمَلِكُ، إِنَّ إِيْرَاخْتَ بِالْحَبَاةِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ
 فَرَحُهُ . وَقَالَ يَإِيْلَاذُ : إِنَّمَا مَنَعَنِي مِنَ الْغَضَبِ مَا أَعْرِفُ
 مِنْ نَصِيحَتِكَ وَصِدْقِ حَدِيثِكَ . وَكُنْتُ أَرْجُو لِمَعْرِفَتِي بِعِلْمِكَ
 أَلَّا تَكُونَ قَدْ قَتَلْتَ إِيْرَاخْتَ . فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ أَتَتْ عَظِيمًا
 وَأَغْلَظَتْ فِي الْقَوْلِ فَلَمْ تَأْتِهِ عَدَاوَةٌ وَلَا طَلَبَ مَضَرَّةٍ، وَلَكِنَّهَا
 فَعَلَتْ ذَلِكَ لِلْغَيْرَةِ . وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعْرِضَ عَنْ ذَلِكَ
 وَاحْتِمَلَهُ . وَلَكِنَّكَ يَإِيْلَاذُ أَرَدْتَ أَنْ تَحْتَبِرَنِي وَتَتْرُكَنِي فِي شَكٍّ
 مِنْ أَمْرِهَا . وَقَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدِي أَفْضَلَ الْأَيْدِي . وَأَنَا لَكَ
 شَاكِرٌ . فَأَنْطَلِقْ فَأَتِنِي بِهَا . فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَأَتَى إِيْرَاخْتَ
 وَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَيَّنَ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ . وَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى الْمَلِكِ .
 فَلَمَّا دَخَلَتْ سَجَدَتْ لَهُ . ثُمَّ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَقَالَتْ : أَحْمَدُ
 اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ أَحْمَدُ الْمَلِكَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيَّ : قَدْ أَذْنَبْتُ الذَّنْبَ
 الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لِلْبَقَاءِ أَهْلًا بَعْدَهُ، فَوَسَّعَهُ حِلْمُهُ وَكَرَّمَ طَبْعَهُ
 وَرَافَقَنِي، ثُمَّ أَحْمَدُ إِيْلَاذَ الَّذِي أَنْجَرَأَمْرِي، وَأَنْجَانِي مِنَ الْهَلَكَةِ،

لِعَلِّهِ بِرَأْفَةِ الْمَلِكِ وَسَعَةِ حِلِّهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ وَوَفَاءِ
عَهْدِهِ . وَقَالَ الْمَلِكُ لِإِيلَاذَ : مَا أَكْثَمَ يَدَكَ عِنْدِي وَعِنْدَ
إِيرَاخْتَ وَعِنْدَ الْعَامَّةِ : إِذْ قَدْ أَحْيَيْتَهَا بَعْدَ مَا أُمِرْتَ بِقَتْلِهَا :
فَأَنْتَ الَّذِي وَهَبَهَا لِي الْيَوْمَ : فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ وَاثِقًا بِنَصِيحَتِكَ
وَتَدْبِيرِكَ . وَقَدْ أَزْدَدْتَ الْيَوْمَ عِنْدِي كَرَامَةً وَتَعْظِيمًا . وَأَنْتَ
مُحْكَمٌ فِي مُلْكِي تَفْعَلُ فِيهِ بِمَا تَرَى ، وَتُحْكَمُ عَلَيْهِ بِمَا تُرِيدُ .
فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَوَثِّقْتُ بِكَ . قَالَ إِيلَاذُ : أَدَامَ اللَّهُ
لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُلْكُ وَالسُّرُورَ . فَلَسْتُ بِمُحْمُودٍ عَلَى ذَلِكَ .
فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ . لَكِنْ حَاجَتِي أَلَّا يَعْجَلَ الْمَلِكُ فِي الْأَمْرِ
الْجَسِيمِ الَّذِي يَنْدُمُ عَلَى فِعْلِهِ ، وَتَكُونَ عَاقِبَتُهُ الْغَمُّ وَالْحُزْنُ ،
وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَلِكَةِ النَّاصِحَةِ الْمُشْفِقَةِ الَّتِي لَا يُوجَدُ
فِي الْأَرْضِ مِثْلُهَا : فَقَالَ الْمَلِكُ بِحَقِّ قُلْتِ يَا إِيلَاذُ ، وَقَدْ
قَبِلْتُ قَوْلَكَ ، وَلَسْتُ عَامِلًا بَعْدَهَا عَمَلًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ،
فَضْلًا عَنْ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَاسَلْتُ مِنْهُ ، إِلَّا بَعْدَ
الْمُؤَامَرَةِ وَالنَّظَرِ وَالتَّرَدُّدِ إِلَى ذَوِي الْعُقُولِ وَمُشَاوَرَةِ أَهْلِ الْمُوَدَّةِ

وَالرَّأْيَ . ثُمَّ أَحْسَنَ الْمَلِكُ جَائِزَةَ إِيْلَازَ ، وَمَكَّنَهُ مِنْ أَوْلِيكَ
 الْبَرَاهِمَةِ الَّذِينَ أَشَارُوا بِقَتْلِ أَحْبَابِهِ ، فَأُطْلِقَ فِيهِمُ السَّيْفُ ،
 وَقَرَّتْ عَيْنُ الْمَلِكِ وَعُيُونُ عُظَمَاءِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ؛ وَحَمِدُوا اللَّهَ
 وَاثْنَوْا عَلَى كِبَارِيُونِ بِسَعَةِ عَلَيْهِ وَفَضْلِ حِكْمَتِهِ : لِأَنَّهُ بَعْلِهِ
 خَلَصَ الْمَلِكُ وَوَزِيرُهُ الصَّالِحَ وَأَمْرَأَتَهُ الصَّالِحَةَ .
 (انقضى باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت)

بَابُ اللَّبْوَةِ وَالْأَسْوَارِ وَالشَّغْبَرِ ^(١) ^(٢)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ .
 فَأَضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنٍ مِنْ يَدَعُ ضَرًّا غَيْرَهُ إِذَا قَدَرَ عَلَيْهِ لِمَا
 يُصِيبُهُ مِنَ الضَّرِّ ، وَيَكُونُ لَهُ فِيمَا يَنْزِلُ بِهِ وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ عَنِ
 ارْتِكَابِ الظُّلْمِ وَالْعَدَاوَةِ لِغَيْرِهِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ
 عَلَى طَلَبِ مَا يَضُرُّ بِالنَّاسِ وَمَا يَسُوءُهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالسَّفَهِ
 وَسُوءِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقِلَّةِ الْعِلْمِ

(١) الأسد وهو مهوذة وغير مهوذة . (٢) قائد القوس .

بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ ؛ وَبِمَا يَلْزِمُهُمْ
 مِنْ تَبِعَةِ مَا اكْتَسَبُوا مِمَّا لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ . وَإِنْ سَلِمَ بَعْضُهُمْ
 مِنْ ضَرَرِ بَعْضٍ بِمَنْيَةٍ عَرَضَتْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَبَالُ
 مَا صَنَعَ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَفْكُرْ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَأْمَنِ الْمَصَائِبَ ،
 وَحَقِيقُ الْأَيْسَلِ مِنَ الْمَعَاطِبِ . وَرُبَّمَا اتَّعَظَ الْجَاهِلُ وَاعْتَبَرَ
 بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ مِنْ غَيْرِهِ ، فَارْتَدَّ عَنْ أَنْ يَغْشَى أَحَدًا
 بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَحَصَلَ لَهُ نَفْعٌ مَا كَفَّ عَنْهُ
 مِنْ ضَرَرِهِ لِغَيْرِهِ فِي الْعَاقِبَةِ ؛ فَتَنْظِيرُ ذَلِكَ حَدِيثُ اللَّبْوَةِ
 وَالْإِسْوَارِ وَالشَّغْبَرِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيَّاسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ لَبْوَةً كَانَتْ فِي غَيْضَةٍ ^(١) ، وَلَهَا
 شِبْلَانِ ، وَأَنَّهَا خَرَجَتْ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ وَخَلَفَتْهُمَا فِي كَهْفِهِمَا ،
 فَمَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ فَحَمَلَ عَلَيْهِمَا وَرَمَاهُمَا فَمَقَتَلَهُمَا ، وَسَلَخَ جِلْدَيْهِمَا
 فَاحْتَقَبَهُمَا ^(٢) ، وَأَنْصَرَفَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ . فَلَمَّا رَأَتْ
 مَا حَلَّ بِهِمَا مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ اضْطَرَبَتْ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَصَاحَتْ

(١) أجمة . (٢) ربطتهما في مؤخر الرجل أو القتب .

وَضَجَّتْ . وَكَانَ إِلَى جَنْبِهَا شَجَرٌ . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ صِبَاحِهَا
 قَالَ لَهَا : مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ ؟ وَمَا تَزَلُ بِكَ ؟ فَأَخْبَرَنِي بِهِ .
 قَالَتِ اللَّبْوَةُ شِبْلَايَ مَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ فَقَتَلَهُمَا ، وَسَلَخَ جِلْدَهُمَا
 فَاحْتَقَبَهُمَا ، وَنَبَذَهُمَا بِالْعَرَاءِ ^(١) . قَالَ لَهَا الشَّجَرُ : لَا تَضْجِي
 وَأَنْصِفِي مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَعْلِي أَنَّ هَذَا الْإِسْوَارَ لَمْ يَأْتِ إِلَيْكَ
 شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ كُنْتَ تَفْعَلِينَ بِغَيْرِكَ مِثْلَهُ ، وَتَأْتِينَ إِلَى غَيْرِ وَاحِدٍ
 مِثْلَ ذَلِكَ ، مِمَّنْ كَانَ يَجِدُ بِحَمِيمِهِ وَمَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا تَجِدِينَ
 بِشِبْلِكَ . فَاصْبِرِي عَلَى فِعْلِ غَيْرِكَ كَمَا صَبَرَ غَيْرُكَ عَلَى فِعْلِكَ :
 فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : كَمَا تَدِينُ تُدَانُ . وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَمَرَةٌ مِنَ الثَّوَابِ
 وَالْعِقَابِ . وَهُمَا عَلَى قَدَرِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ . كَالزَّرْعِ إِذَا
 حَضَرَ الْحَصَادُ أُعْطِيَ عَلَى حَسَبِ بَذَرِهِ . قَالَتِ اللَّبْوَةُ : بَيْنَ لِي
 مَا تَقُولُ ، وَأَفْصَحَ لِي عَنْ إِشَارَتِهِ . قَالَ الشَّجَرُ : كَمْ أَتَى لَكَ
 مِنَ الْعُمُرِ ؟ قَالَتِ اللَّبْوَةُ : مِائَةُ سَنَةٍ . قَالَ الشَّجَرُ : مَا كَانَ
 قُوَّتُكَ ؟ قَالَتِ اللَّبْوَةُ : لَحْمُ الْوَحْشِ . قَالَ الشَّجَرُ : مَنْ كَانَ

(١) الفضاء لا يستر فيه شيء .

يُطْعِمُكَ إِيَّاهُ؟ قَالَتِ اللَّبُوءَةُ: كُنْتُ أُصِيدُ الْوَحْشَ وَأَكُلُهُ.
 قَالَ الشَّعْبَرُ: أَرَأَيْتِ الْوَحْشَ الَّتِي كُنْتَ تَأْكُلِينَ، أَمَا كَانَ لَهَا
 آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ الشَّعْبَرُ: فَمَا بَالِي لَا أَرَى
 وَلَا أَسْمَعُ لِنَتِكَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ مِنَ الْجَزَعِ وَالضَّجِيجِ مَا أَرَى
 وَأَسْمَعُ لَكَ؟ أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِكَ مَا نَزَلَ إِلَّا لِسُوءِ نَظَرِكَ
 فِي الْعَوَاقِبِ وَقِلَّةِ تَفَكُّرِكَ فِيهَا، وَجَهَالَتِكَ بِمَا يَرْجِعُ عَلَيْكَ
 مِنْ ضُرِّهَا. فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبُوءَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الشَّعْبَرِ عَرَفَتْ
 أَنَّ ذَلِكَ بِمَا جَنَّتْ عَلَى نَفْسِهَا، وَأَنَّ عَمَلَهَا كَانَ جَوْرًا وَظُلْمًا،
 فَتَرَكَتِ الصَّيْدَ، وَانصَرَفَتْ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ إِلَى الثَّمَارِ وَالنُّسُكِ
 وَالْعِبَادَةِ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ وَرَشَانُ^(١) (كَانَ صَاحِبَ تِلْكَ الْغِيْضَةِ
 وَكَانَ عَيْشُهُ مِنَ الثَّمَارِ) قَالَ لَهَا: قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الشَّجَرَ
 عَامِنًا هَذَا لَمْ يَحْمِلْ: لِقِلَّةِ الْمَاءِ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُكَ تَأْكُلِينَهَا،
 وَأَنْتِ آكِلَةُ اللَّحْمِ، فَتَرَكْتِ رِزْقَكَ وَطَعَامَكَ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ،

(١) طائر شبه الحمامة والأُنثى ورشانة وجمعه ورشان ووراشين.

وَتَحَوَّلَتْ إِلَى رِزْقٍ غَيْرِكَ فَأَنْتَقَصْتِهِ ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِيهِ —
 عَلِمْتُ أَنَّ الشَّجَرَ الْعَامَ أَثْمَرَتْ كَمَا كَانَتْ تُثْمِرُ قَبْلَ الْيَوْمِ ؛ وَإِنَّمَا
 أَنْتَ قِلَّةُ الثَّمَرِ مِنْ جِهَتِكَ . فَوَيْلٌ لِلشَّجَرِ وَوَيْلٌ لِلثَّمَارِ وَوَيْلٌ
 لِمَنْ عَيْشُهُ مِنْهَا ! مَا أَسْرَعَ هَلَاكُهُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ ،
 وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَظٌّ وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا لِأَكْلِهَا !
 فَلَمَّا سَمِعَتْ اللَّبْوَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْوَرَشَانِ تَرَكَّتْ أَكْلَ الثَّمَارِ
 وَأَقْبَلَتْ عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَالْعِبَادَةِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ
 هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْجَاهِلَ رُبَّمَا أَنْصَرَفَ بِضُرٍّ يُصِيبُهُ عَنْ ضُرِّ
 النَّاسِ ، كَاللَّبْوَةِ الَّتِي أَنْصَرَفَتْ لِمَا لَقِيتْ فِي شِبْلِيهَا عَنْ أَكْلِ
 اللَّحْمِ ثُمَّ عَنْ أَكْلِ الثَّمَارِ بِقَوْلِ الْوَرَشَانِ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى النَّسْكِ
 وَالْعِبَادَةِ . وَالنَّاسُ أَحَقُّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ : فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ
 مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لَا تَصْنَعُهُ لْغَيْرِكَ : فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَدْلَ :
 وَفِي الْعَدْلِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَا النَّاسِ .

بَابُ النَّاسِكِ وَالضَّيْفِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ . فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ الَّذِي يَدْعُ صُنْعَهُ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ
 وَيُشَاكِلُهُ ، وَيَطْلُبُ غَيْرَهُ فَلَا يَدْرِكُهُ : فَيَبْقَى حَيْرَانَ مُتَرَدِّدًا .
 قَالَ الْفِيلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ الْكَرْخِ نَاسِكٌ عَابِدٌ
 مُجْتَهِدٌ . فَتَزَلَّ بِهِ ضَيْفٌ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَدَعَا النَّاسِكُ لِضَيْفِهِ بِتَمْرٍ :
 لِيُطْرِفَهُ بِهِ . فَأَكَلَا مِنْهُ جَمِيعًا . ثُمَّ قَالَ الضَّيْفُ : مَا أَهْلَى
 هَذَا التَّمْرَ وَأَطْيَبَهُ ! فَلَيْسَ هُوَ فِي بِلَادِي الَّتِي أُسْكُنُهَا ،
 وَلَيْتَهُ كَانَ فِيهَا ! ثُمَّ قَالَ : أَرَى أَنَّ تُسَاعِدَنِي عَلَى أَنْ أَخُذَ
 مِنْهُ مَا أَغْرِسُهُ فِي أَرْضِنَا : فَإِنِّي لَسْتُ عَارِفًا بِثَمَارِ أَرْضِكُمْ هَذِهِ
 وَلَا بِمَوَاضِعِهَا . فَقَالَ لَهُ النَّاسِكُ : لَيْسَ لَكَ فِي ذَلِكَ رَاحَةٌ :
 فَإِنَّ ذَلِكَ يَثْقُلُ عَلَيْكَ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يُوَافِقُ أَرْضَكُمْ ، مَعَ أَنَّ
 بِلَادَكُمْ كَثِيرَةُ الْأَنْمَارِ فَمَا حَاجَتُهَا مَعَ كَثَرَةِ ثَمَارِهَا إِلَى التَّمْرِ
 مَعَ وَخَامَتِهِ وَقِلَّةِ مُوَافَقَتِهِ لِلْجَسَدِ ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّاسِكُ : إِنَّهُ لَا يُعَدُّ
 حَكِيمًا مَنْ طَلَبَ مَا لَا يَجِدُ . وَإِنَّكَ سَعِيدٌ الْجَدُّ إِذَا قَنِعْتَ
 بِالَّذِي تَجِدُ ، وَزَهَدْتَ فِيهَا لَا تَجِدُ . وَكَانَ هَذَا النَّاسِكُ يُتَكَلَّمُ

بِالْعِبْرَانِيَّةِ . فَاسْتَحْسَنَ الضَّيْفُ كَلَامَهُ وَاعْجَبَهُ ، فَتَكَلَّفَ أَنْ
يَتَعَلَّمَهُ ، وَعَاطَلَ فِي ذَلِكَ نَفْسَهُ أَيَّامًا . فَقَالَ النَّاسِكُ لَضَيْفِهِ :
مَا أَخْلَقَكَ أَنْ تَقَعَ مِمَّا تَرَكْتَ مِنْ كَلَامِكَ ، وَتَكَلَّفْتَ مِنْ كَلَامِ
الْعِبْرَانِيَّةِ ، فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيهِ الْغُرَابُ ! قَالَ الضَّيْفُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ النَّاسِكُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا رَأَى جِلَّةً تَدْرُجُ وَتَمْشِي ،
فَاعْجَبَتْهُ مَشِيَّتُهَا ، وَطَمَعَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا . فَرَاضَ عَلَى ذَلِكَ
نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْكَامِهَا ، وَأَيْسَ مِنْهَا . وَأَرَادَ أَنْ يَعُودَ
إِلَى مَشِيَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا : فَإِذَا هُوَ قَدْ اخْتَلَطَ وَتَحَلَّعَ فِي مَشِيَّتِهِ ،
وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مَشْيًا . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِمَا
رَأَيْتُ مِنْ أَنَّكَ تَرَكْتَ لِسَانَكَ الَّذِي طُبِعَتْ عَلَيْهِ ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى
لِسَانِ الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَهُوَ لَا يُشَاكِلُكَ ، وَأَخَافُ أَلَّا تُدْرِكَهُ ،
وَتَنْسَى لِسَانَكَ ، وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسَانًا : فَإِنَّهُ
قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ يُعَدُّ جَاهِلًا مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا يُشَاكِلُهُ ،
وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ وَلَمْ يُوَدِّعْهُ عَلَيْهِ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلُ .

(انقضى باب الناسك والضيف)

بَابُ السَّائِحِ وَالصَّائِغِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدَبَا الْفِيلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنِ الَّذِي يَضَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ
 مَوْضِعِهِ ، وَيَرْجُو الشُّكْرَ عَلَيْهِ . قَالَ الْفِيلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
 إِنَّ طَبَائِعَ الْخَلْقِ مُخْتَلِفَةٌ . وَلَيْسَ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
 مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ أَوْ عَلَى رِجْلَيْنِ أَوْ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ شَيْءٌ
 هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ .
 وَقَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ مَا هُوَ أَوْفَى مِنْهُ ذِمَّةً ،
 وَأَشَدُّ مُحَامَاةً عَلَى حُرْمِهِ ، وَأَشْكُرُ لِلْمَعْرُوفِ ، وَأَقُومُ بِهِ . وَحِينَئِذٍ
 يَجِبُ عَلَى ذَوِي الْعَقْلِ مِنَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَضَعُوا مَعْرُوفَهُمْ
 مَوَاضِعَهُ ، وَلَا يَضَعُوهُ عِنْدَ مَنْ لَا يَحْتَمِلُهُ . وَلَا يَقُومُ بِشُكْرِهِ ،
 وَلَا يَضْطَنِعُوا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ انْخِبَرَةِ بِطَرَائِقِهِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِوَفَائِهِ
 وَمَوَدَّتِهِ وَشُكْرِهِ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَصُّوا بِذَلِكَ قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ ،
 إِذَا كَانَ غَيْرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيعَةِ ، وَلَا أَنْ يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهُمْ وَرِفْدَهُمْ
 لِلْبَعِيدِ ، إِذَا كَانَ يَقِيمُ بِنَفْسِهِ وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ : لِأَنَّهُ يَكُونُ

حِينَئِذٍ عَارِفًا بِحَقِّ مَا اضْطَنَعَ إِلَيْهِ مُودِيًا لِشُكْرِ مَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ ،
 مَحْمُودًا بِالنُّصْحِ ، مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ ، صَدُوقًا عَارِفًا ، مُؤَثِّرًا
 لِحَمِيدِ الْفِعَالِ وَالْقَوْلِ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ عُرِفَ بِالْخِصَالِ
 الْمَحْمُودَةِ وَوُثِقَ مِنْهُ بِهَا ، كَانَ لِلْمَعْرُوفِ مَوْضِعًا ، وَلِتَقْرِيبِهِ
 وَأَصْطِنَاعِهِ أَهْلًا : فَإِنَّ الطَّيِّبَ الرَّفِيقَ الْعَاقِلَ لَا يَقْدِرُ
 عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرِيضِ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَالْجَسِّ لِعُرُوقِهِ وَمَعْرِفَةِ
 طَبِيعَتِهِ وَسَبَبِ عِلَّتِهِ ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ أَقْدَمَ
 عَلَى مُدَاوَاتِهِ . فَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ : لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَضْطَظَّ
 أَحَدًا ، وَلَا يَسْتَخْلِصَهُ إِلَّا بَعْدَ الْخَبَرَةِ : فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى
 مَشْهُورِ الْعَدَالَةِ مِنْ غَيْرِ اخْتِبَارٍ كَانَ مُحَاطِرًا فِي ذَلِكَ وَمُشْرِفًا
 مِنْهُ عَلَى هَلَاكِ وَفْسَادٍ . وَمَعَ ذَلِكَ رَبَّمَا صَنَعَ الْإِنْسَانُ الْمَعْرُوفَ
 مَعَ الضَّعِيفِ الَّذِي لَمْ يُجَرِّبْ شُكْرَهُ ، وَلَمْ يَعْرِفْ حَالَهُ
 فِي طِبَائِعِهِ فَيَقُومُ بِشُكْرِ ذَلِكَ وَيُكَافِي عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْمُكَافَأَةِ .
 وَرَبَّمَا حَذَرَ الْعَاقِلُ النَّاسَ وَلَمْ يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ أَحَدًا مِنْهُمْ .

وَقَدْ يَأْخُذُ ابْنُ عَرِسٍ فَيُدْخِلُهُ فِي كُمِّهِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْآخِرِ ، كَالَّذِي
يَحْمِلُ الطَّائِرَ عَلَى يَدِهِ ، فَإِذَا صَادَ شَيْئًا انْتَفَعَ بِهِ ، وَمَطْعَمُهُ مِنْهُ .
وَقَدْ قِيلَ : لَا يَنْبَغِي لِلَّذِي الْعَقْلُ أَنْ يَخْتَقِرَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا
مِنَ النَّاسِ وَلَا مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَلَكِنَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَبْلُوَهُمْ ، وَيَكُونَ
مَا يَصْنَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى قَدَرٍ مَا يَرَى مِنْهُمْ . وَقَدْ مَضَى فِي ذَلِكَ
مِثْلُ ضَرْبِهِ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً اخْتَفَرُوا رَكِيَّةً ^(١) فَوْقَ
فِيهَا رَجُلٌ صَائِغٌ وَحِيَّةٌ وَقِرْدٌ وَبَبْرٌ ^(٢) ، وَمَرَّتْ بِهِمْ رَجُلٌ سَائِحٌ ،
فَأَشْرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ ، فَبَصُرَ بِالرَّجُلِ وَالْحِيَّةِ وَالْبَبْرِ وَالْقِرْدِ .
فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ ، وَقَالَ : لَسْتُ أَعْمَلُ لِآخِرَتِي عَمَلًا أَفْضَلَ مِنْ
أَنْ أَخْلَصَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ . فَأَخَذَ حَبَلًا ،
وَأَدْلَاهُ إِلَى الْبَبْرِ فَتَعَلَّقَ بِهِ الْقِرْدُ لِحَفَّتِهِ فَخَرَجَ . ثُمَّ دَلَّاهُ ثَانِيَةً ،
فَالْتَفَتَ بِهِ الْحِيَّةُ فَخَرَجَتْ . ثُمَّ دَلَّاهُ الثَّالِثَةَ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ الْبَبْرُ
فَأَخْرَجَهُ . فَشَكَرْنَ لَهُ صَنِيعَهُ . وَقُلْنَ لَهُ : لَا تُخْرِجْ هَذَا الرَّجُلَ

مِنَ الرِّكْيَةِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَقْلَ شُكْرًا مِنَ الْإِنْسَانِ .
 ثُمَّ هَذَا الرَّجُلُ خَاصَّةٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْقِرْدُ : إِنَّ مَنَزْلِي فِي جَبَلٍ
 قَرِيبٍ مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا : نَوَادِرْخَتْ . فَقَالَ لَهُ الْبَبْرُ :
 أَنَا أَيْضًا فِي أَجْمَةٍ إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . قَالَتِ الْحَيَّةُ :
 أَنَا أَيْضًا فِي سُورِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . فَإِنْ أَنْتَ مَرَرْتَ بِنَا يَوْمًا
 مِنَ الدَّهْرِ ، وَاحْتَجَجْتَ إِلَيْنَا فَصَوِّتْ عَلَيْنَا حَتَّى نَأْتِيكَ فَنَجْزِيكَ
 بِمَا أَسَدَيْتَ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ السَّائِحُ
 إِلَى مَا ذَكَرُوا لَهُ مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ ، وَأَذَلِّ الْحَبَلِ ،
 فَأَخْرَجَ الصَّائِغَ ، فَسَجَدَ لَهُ ، وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ أَوْلَيْتَنِي
 مَعْرُوفًا . فَإِنْ أَتَيْتَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِمَدِينَةِ نَوَادِرْخَتْ فَاسْأَلْ
 عَنْ مَنَزْلِي : فَأَنَا رَجُلٌ صَائِغٌ لَعَلِّي أَكْفَيْتُكَ بِمَا صَنَعْتَ
 إِلَيَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَاذْهَبْ الصَّائِغُ إِلَى مَدِينَتِهِ وَانْطَلَقَ السَّائِحُ
 إِلَى جَانِبِهِ . فَعَرَّضَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ السَّائِحَ اتَّفَقَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى
 تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، فَاذْهَبَ ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْقِرْدُ ، فَسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَ
 رِجْلَيْهِ . وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الْقُرُودَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ،
 وَلَكِنْ أَقْعُدُ حَتَّى آتِيكَ . وَانْطَلَقَ الْقِرْدُ ، وَاتَّاهُ بِفَاكِهَةٍ

طَبِيبَةً ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَكَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ . ثُمَّ إِنَّ السَّائِحَ
 أَنْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَهُ الْبِيرُ ، نَحَرَ لَهُ
 سَاجِدًا وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا . فَاطْمَئِنَّ
 سَاعَةً حَتَّى آتِيكَ . فَاَنْطَلَقَ الْبِيرُ فَدَخَلَ فِي بَعْضِ الْحِطَّانِ^(١)
 إِلَى بِنْتِ الْمَلِكِ فَقَتَلَهَا ، وَأَخَذَ حَلِيهَا ، فَأَتَاهُ بِهَا ، مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَعْلَمَ السَّائِحُ مِنْ أَيْنَ هُوَ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذِهِ الْبَهَائِمُ
 قَدْ أَوْلَتْنِي هَذَا الْجَزَاءَ ، فَكَيْفَ لَوْ قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الصَّائِغِ
 فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُعْسِرًا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا فَسَيَبِيعُ هَذَا الْحَلَى فَيَسْتَوْفِي
 ثَمَنَهُ . فَيُعْطِينِي بَعْضَهُ ، وَيَأْخُذُ بَعْضَهُ ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِثَمَنِهِ .
 فَاَنْطَلَقَ السَّائِحُ ، فَأَتَى إِلَى الصَّائِغِ . فَلَمَّا رَأَاهُ رَحَّبَ بِهِ وَأَدْخَلَهُ
 إِلَى بَيْتِهِ . فَلَمَّا بَصُرَ بِالْحَلَى مَعَهُ ، عَرَفَهُ وَكَانَ هُوَ الَّذِي
 صَاغَهُ لِابْنَةِ الْمَلِكِ . فَقَالَ لِلْسَّائِحِ : اطمَئِنَّ حَتَّى آتِيكَ
 بِطَعَامٍ فَلَسْتُ أَرْضَى لَكَ مَا فِي الْبَيْتِ . ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :
 قَدْ أَصَبْتُ فُرْصَتِي : أُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى الْمَلِكِ وَأَدْلُهُ عَلَى ذَلِكَ ،
 فَتَحَسُنَ مَنَزِلَتِي عِنْدَهُ . فَاَنْطَلَقَ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ ، فَأَرْسَلَ

إِلَيْهِ : إِنَّ الَّذِي قَتَلَ ابْنَتَكَ وَأَخَذَ حَلِيهَا عِنْدِي .
فَارْسَلَ الْمَلِكُ وَأَتَى بِالسَّائِحِ فَلَمَّا نَظَرَ الْحَلِيَّ مَعَهُ لَمْ يُمِهِلْهُ ،
وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَذَّبَ وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَيُصَلَّبَ .
فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ جَعَلَ السَّائِحُ يَبْكِي وَيَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :
لَوْ أَنَّي أَطَعْتُ الْقِرَدَ وَالْحَيَّةَ وَالْبَبْرَ فِيمَا أَمَرَنِي بِهِ وَأَخْبَرَنِي
مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ لَمْ يَصِرْ أَمْرِي إِلَى هَذَا الْبَلَاءِ ، وَجَعَلَ
يُكْرِرُ هَذَا الْقَوْلَ . فَسَمِعَتْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ الْحَيَّةُ فَخَرَجَتْ مِنْ
جُحْرِهَا فَعَرَفَتْهُ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهَا أَمْرُهُ ، فَجَعَلَتْ تَحْتَالُ فِي خَلَاصِهِ .
فَانْطَلَقَتْ حَتَّى لَدَغَتْ ابْنَ الْمَلِكِ ، فَدَعَا الْمَلِكُ أَهْلَ الْعِلْمِ
فَرَفَعَهُ لِيَشْفُوهُ فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُ شَيْئًا . ثُمَّ مَضَتْ الْحَيَّةُ إِلَى أُخْتِ
لَهَا مِنَ الْجَنِّ ، فَأَخْبَرَتْهَا بِمَا صَنَعَ السَّائِحُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعْرُوفِ ،
وَمَا وَقَعَ فِيهِ . فَرَقَّتْ لَهُ ، وَانْطَلَقَتْ إِلَى ابْنِ الْمَلِكِ ، وَتَحَايَلَتْ لَهُ .
وَقَالَتْ لَهُ : إِنْكَ لَا تَبْرَأُ حَتَّى يَرْفِكَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ
عَاقَبْتُمُوهُ ظُلْمًا . وَانْطَلَقَتْ الْحَيَّةُ إِلَى السَّائِحِ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ
السَّجْنَ ، وَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ مِنْ اضْطِنَاعِ
الْمَعْرُوفِ إِلَى هَذَا الْإِنْسَانِ : وَلَمْ تُطِيعْنِي . وَأَتَتْهُ بِوَرَقٍ يَنْفَعُ

مِنْ سُمِّهَا . وَقَالَتْ لَهُ : إِذَا جَاءُوا بِكَ لِتَرْقِيَ ابْنَ الْمَلِكِ فَاسْقِهِ
 مِنْ مَاءِ هَذَا الْوَرَقِ : فَإِنَّهُ يَبْرَأُ . وَإِذَا سَأَلَكَ الْمَلِكُ عَنْ حَالِكَ
 فَاصْدُقْهُ : فَإِنَّكَ تَنْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَإِنَّ ابْنَ الْمَلِكِ
 أَخْبَرَ الْمَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرْقِيكَ
 هَذَا السَّائِحُ الَّذِي حُسَّ ظُلْمًا . فَدَعَا الْمَلِكُ بِالسَّائِحِ ، وَأَمَرَهُ
 أَنْ يَرْقِيَ وَلَدَهُ . فَقَالَ : لَا أَحْسِنُ الرَّقَى ، وَلَكِنْ أَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ
 هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . فَسَقَاهُ فَبَرِيَ الْغُلَامُ .
 فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ : وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ . فَشَكَرَهُ
 الْمَلِكُ ، وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً ، وَأَمَرَ بِالصَّائِغِ أَنْ يُصَلَّبَ .
 فَصَلَّبُوهُ لِكَذِبِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنِ الشُّكْرِ وَمَجَازَاتِهِ الْفِعْلَ الْجَمِيلَ
 بِالْقَبِيحِ . ثُمَّ قَالَ الْفَيْلَسُوفُ لِلْمَلِكِ : فِي صَنِيعِ الصَّائِغِ
 بِالسَّائِحِ ، وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَازِهِ إِيَّاهُ ، وَشُكْرِ الْبَهَائِمِ لَهُ ،
 وَتَخْلِيصِ بَعْضِهَا إِيَّاهُ ، عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ ، وَفِكْرَةٌ لِمَنْ تَفَكَّرَ ،
 وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ ،
 قَرُبُوا أَوْ بَعُدُوا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ وَجَلْبِ الْخَيْرِ
 وَصَرَفِ الْمَكْرُوهِ .

(انقضى باب السائح والصائغ)

بَابُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ . فَإِنْ كَانَتِ الرَّجُلُ لَا يُصِيبُ الْخَيْرَ إِلَّا بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ
وَتَثَبُّتِهِ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَزْعُمُونَ ، فَمَا بَالُ الرَّجُلِ الْجَاهِلِ يُصِيبُ
الرَّفْعَةَ وَالْخَيْرَ ، وَالرَّجُلِ الْحَكِيمِ الْعَاقِلِ قَدْ يُصِيبُ الْبَلَاءَ
وَالضَّرَّ ؟ . قَالَ بَيْدَبَا : كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُبْصِرُ إِلَّا بِعَيْنَيْهِ
وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا بِأُذُنَيْهِ ، كَذَلِكَ الْعَمَلُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْحِلْمِ
وَالْعَقْلِ وَالتَّثَبُّتِ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ يَغْلِبَانِ عَلَى ذَلِكَ .
وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ اضْطَحَبُوا فِي طَرِيقٍ
وَاحِدَةٍ ، أَحَدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ وَالثَّلَاثُ ابْنُ
شَرِيفٍ ذُو جَمَالٍ وَالرَّابِعُ ابْنُ أَكْثَارٍ^(١) . وَكَانُوا جَمِيعًا مُحْتَاجِينَ ،

(١) الْأَكْثَارُ : الْحَرَاثُ وَجَمْعُ أَكْرَةٍ كَأَنَّهُ جَمْعُ أَكْرٍ .

وَقَدْ أَصَابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ فِي مَوْضِعٍ غُرْبَةٍ لَا يَمْلِكُونَ
إِلَّا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّبَابِ . فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُونَ إِذْ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ
وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ رَاجِعًا إِلَى طِبَاعِهِ وَمَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْهُ
الْخَيْرُ : قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ : إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا كُلَّهُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ،
وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ يَأْتِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَالصَّبْرُ لِلْقَضَاءِ
وَالْقَدَرِ وَانْتِظَارُهُمَا أَفْضَلُ الْأُمُورِ . وَقَالَ ابْنُ التَّاجِرِ : الْعَقْلُ
أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَقَالَ ابْنُ الشَّرِيفِ : الْجَمَالُ أَفْضَلُ
مِمَّا ذَكَرْتُمْ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْأَثَّارِ : لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ
مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ . فَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا
مَطْرُونٌ ، جَلَسُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَتَشَاوَرُونَ : فَقَالُوا لِابْنِ
الْأَثَّارِ : انْطَلِقْ فَانْتَسِبْ لَنَا بِاجْتِهَادِكَ طَعَامًا لِيَوْمِنَا هَذَا .
فَانْطَلَقَ ابْنُ الْأَثَّارِ ، وَسَأَلَ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ يَكْتَسِبُ
فِيهِ طَعَامَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَعَرَفُوهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ
أَعَزَّ مِنَ الْحَطَبِ ، وَكَانَ الْحَطَبُ مِنْهَا عَلَى فَرَسَخٍ . فَانْطَلَقَ
ابْنُ الْأَثَّارِ فَاحْتَطَبَ ^(١) طُنًا مِنَ الْحَطَبِ ، وَآتَى بِهِ الْمَدِينَةَ

فَبَاعَهُ بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَامًا وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ :
 عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ إِذَا أُجْهِدَ فِيهِ الرَّجُلُ بَدَنَهُ قِيمَتُهُ دِرْهَمٌ .
 ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِالطَّعَامِ فَأَكَلُوا . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ :
 قَالُوا يَنْبَغِي لِلَّذِي قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ مِنَ الْجَمَالِ
 أَنْ تَكُونَ نَوْبَتُهُ . فَاِنْطَلَقَ ابْنُ الشَّرِيفِ لِيَأْتِيَ الْمَدِينَةَ ،
 فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ : أَنَا لَسْتُ أَحْسَنُ عَمَلًا فَمَا يَدْخِلُنِي
 الْمَدِينَةَ ؟ ثُمَّ اسْتَحْيَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ ، وَهُمْ
 بِمُفَارَقَتِهِمْ . فَاِنْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ ،
 فَغَلَبَهُ النَّوْمُ فَنَامَ . فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمَدِينَةِ فَرَأَاهُ
 بِجَمَالِهِ وَتَوَسَّمَ فِيهِ شَرَفَ النُّجَارِ فَرَقَّ لَهُ ^(١) وَمَنَحَهُ خَمْسِينَ دِرْهَمًا .
 فَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ : جَمَالُ يَوْمٍ وَاحِدٍ يُسَاوِي
 خَمْسِينَ دِرْهَمًا . وَآتَى بِالْدَّرَاهِمِ إِلَى أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا
 فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، قَالُوا لِابْنِ التَّاجِرِ : انْطَلِقِ أَنْتِ فَاطْلُبِ
 لَنَا بِعَقْلِكَ وَتِجَارَتِكَ لِيَوْمِنَا هَذَا شَيْئًا . فَاِنْطَلَقَ ابْنُ التَّاجِرِ

فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصَرَ بِسَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ كَثِيرَةِ الْمَتَاعِ
 قَدْ قَدِمَتْ إِلَى السَّاحِلِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ يُرِيدُونَ
 أَنْ يَتَنَاعُوا مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ . فَحَلَسُوا يَتَشَاوِرُونَ فِي نَاحِيَةٍ
 مِنَ الْمَرْكَبِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَرْجِعُوا يَوْمَنَا هَذَا
 لَا نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئًا حَتَّى يَكْسِدَ الْمَتَاعُ عَلَيْهِمْ فَيُرْخِصُوهُ
 عَلَيْنَا ، مَعَ أَنَّنا مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَسَيَرُخُصُّ . فَخَالَفَ الطَّرِيقَ
 وَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَرْكَبِ ، فَابْتَاعَ مِنْهُمْ مَا فِيهِ بِمِائَةِ أَلْفِ
 دِينَارٍ نَسِيئَةً ^(١) وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى .
 فَلَمَّا سَمِعَ التُّجَّارُ ذَلِكَ خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذَلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ،
 فَأَرْبَحُوهُ عَلَى مَا اشْتَرَاهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَأَحَالَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ ^(٢)
 الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي ، وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَكَتَبَ عَلَى بَابِ
 الْمَدِينَةِ : عَقْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . فَلَمَّا كَانَ
 الْيَوْمُ الرَّابِعُ قَالُوا لِابْنِ الْمَلِكِ : انْطَلِقِ أَنْتِ وَاكْتَسِبِ لَنَا
 بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ . فَانْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ

(١) إلى أجل . (٢) أي فاخذ مائة ألف درهم وأحال الخ .

لَمَدِينَةٍ فَجَلَسَ عَلَى مُتَّكَأٍ فِي بَابِ الْمَدِينَةِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ مَلِكَ
تِلْكَ النَّاحِيَةِ مَاتَ وَلَمْ يُخْلِفْ وَلَدًا وَلَا أَحَدًا ذَا قَرَابَةٍ .
فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَحْزِنُوهُ وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ . فَأَنكَرُوا
حَالَهُ وَشَتَمَهُ الْبَوَّابُ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا ؟ وَمَا يُجْلِسُكَ
عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَلَا نَرَاكَ تَحْزِنُ لِمَوْتِ الْمَلِكِ ؟ وَطَرَدَهُ الْبَوَّابُ
عَنِ الْبَابِ فَلَمَّا ذَهَبُوا عَادَ الْغُلَامُ فَجَلَسَ مَكَانَهُ . فَلَمَّا
دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بِصُرْبِهِ الْبَوَّابُ فَغَضِبَ وَقَالَ لَهُ :
أَلَمْ أَتُحَذِّرْكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟ وَأَخَذَهُ فَخَبَسَهُ .
فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَنْ
يَمْلِكُونَهُ عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَتَطَاوَلُ يَنْظُرُ صَاحِبَهُ ، وَيَخْتَلِفُونَ
بَيْنَهُمْ . فَقَالَ لَهُمُ الْبَوَّابُ : إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسَ غُلَامًا جَالِسًا
عَلَى الْبَابِ ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزِنُ لِحُزْنِنَا ، فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِِبْنِي ،
فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبَابِ . فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جَالِسًا ، فَأَدْخَلْتُهُ
السُّجْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا . فَبَعَثْتُ أَشْرَافَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
إِلَى الْغُلَامِ فَجَاءُوا بِهِ ، وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ ، وَمَا أَقْدَمَهُ

إِلَى مَدِينَتِهِمْ . فَقَالَ : أَنَا ابْنُ مَلِكٍ فَوِيرَانَ ، وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ
وَالِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى الْمُلْكِ ، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَرًا
عَلَى نَفْسِي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ . فَلَمَّا ذَكَرَ الْغُلَامُ
مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ مَنْ كَانَ يَغْشَى أَرْضَ أَبِيهِ مِنْهُمْ ،
وَأَثَنُوا عَلَى أَبِيهِ خَيْرًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَشْرَافَ اخْتَارُوا الْغُلَامَ
أَنْ يَمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ وَرَضُوا بِهِ . وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ
إِذَا مَلَكَوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا حَمَلُوهُ عَلَى فَيْلٍ أَبْيَضٍ ، وَطَافُوا بِهِ
حَوَالِي الْمَدِينَةِ . فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ مَرَّ بِبَابِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى
الْكُتَابَةَ عَلَى الْبَابِ فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ : إِنَّ الْإِجْتِهَادَ وَالْجَمَالَ
وَالْعَقْلَ وَمَا أَصَابَ الرَّجُلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِنَّمَا هُوَ
بِقَضَاءِ وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَدْ ازْدَدْتُ فِي ذَلِكَ
اعْتِبَارًا بِمَا سَأَلَ اللَّهُ إِلَيَّ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مُلْكِهِ وَأَرْسَلَ
إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ فَأَخْضَرَهُمْ ، فَأَشْرَكَ صَاحِبَ الْعَقْلِ
مَعَ الْوُزَرَاءِ ، وَضَمَّ صَاحِبَ الْإِجْتِهَادِ إِلَى أَصْحَابِ الزَّرْعِ .

وَأَمَرَ لِصَاحِبِ الْجَمَالِ بِمَالٍ كَثِيرٍ ثُمَّ نَفَاهُ كَيْ لَا يُفْتَنَ بِهِ .
ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا أَصْحَابِي
فَقَدْ تَيَقَّنُوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ الْخَيْرِ
إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ؛ وَإِنَّمَا أَحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ
وَتَسْتَيْقِنُوهُ ؛ فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِي اللَّهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ ،
وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَالٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا اجْتِهَادٍ . وَمَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ
طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِيبَنِي مَا يَعِيشُنِي مِنَ الْقُوَّةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ
أُصِيبَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ؛ وَمَا كُنْتُ أَوْمُلُ أَنْ أَكُونَ بِهَا : لِأَنِّي
قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْنًا وَجَمَالًا ،
وَأَشَدَّ اجْتِهَادًا وَأَسَدُّ رَأْيًا ، فَسَاقَنِي الْقَضَاءُ إِلَى أَنْ اعْتَزَزْتُ
بِقَدَرِ اللَّهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ فَهَضَحَ حَتَّى اسْتَوَى
قَائِمًا ، وَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ كَامِلٍ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ ،
وَإِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ وَفُورُ عَقْلِكَ وَحُسْنُ ظَنِّكَ ؛
وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ . وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ ،

وَصَدَّقْنَاكَ فِيمَا وَصَفْتَ . وَالَّذِي سَأَلَ اللَّهَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَلِكِ
وَالْكَرَامَةِ كُنْتَ أَهْلًا لَهُ ، لِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مِنَ الْعَقْلِ
وَالرَّأْيِ . وَإِنْ أَسْعَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ رِزْقِهِ اللَّهُ
رَأْيًا وَعَقْلًا . وَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا إِذْ وَفَّقَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ
مَلِكِنَا وَكَرَّمَنَا بِكَ . ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ سَائِحٌ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ
سَائِحًا ، رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ . فَلَمَّا بَدَأَ لِي رَفْضُ الدُّنْيَا
فَارَقْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَقَدْ كَانَ أُعْطَانِي مِنْ أُجْرَتِي دِينَارَيْنِ ،
فَارَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا ، وَأَسْتَبْقِيَ الْآخَرَ ، فَاتَيْتُ
السُّوقَ ، فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجَ هَذِهِ ،
فَسَاوَمْتُهُ فِيهِمَا فَأَبَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبِيعَهُمَا إِلَّا بِدِينَارَيْنِ ،
فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبِيعَنِيهِمَا بِدِينَارٍ وَاحِدٍ فَأَبَى . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
أَشْتَرِي أَحَدَهُمَا وَأَتْرِكُ الْآخَرَ . ثُمَّ فَكَّرْتُ وَقُلْتُ لَعَلَّهُمَا
يَكُونَانِ زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَانْثَى فَافْرَقَ بَيْنَهُمَا ، فَأَدْرَكْنِي لهما رَحْمَةٌ

فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَابْتَغَيْتُهُمَا بَدِينَارَيْنِ وَأَشْفَقْتُ إِنْ أُرْسِلْتُهُمَا
 فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ أَنْ يُصَادَا ، وَلَا يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرَا مِمَّا لَقِيَا
 مِنَ الْجُوعِ وَالْهَزَالِ ، وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِمَا الْآفَاتِ . فَانْطَلَقْتُ
 بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرَعَى وَالْأَشْجَارِ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ
 وَالْعُمَرَانِ ، فَأُرْسِلْتُهُمَا ، فَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ .
 فَلَمَّا صَارَا فِي أَغْلَاهَا شَكَرَا لِي ، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ
 لِلاَّخَرِ : لَقَدْ خَلَّصْنَا هَذَا السَّائِحُ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ ،
 وَاسْتَنْقَذَنَا وَنَجَّانَا مِنَ الْهَلَكَةِ . وَإِنَّا نَخْلِقَانِ أَنْ نُكَافِيَهُ
 بِفِعْلِهِ . وَإِنَّ فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ جَرَّةٌ مَمْلُوءَةٌ دَنَانِيرَ .
 أَفَلَا نَدُلُّهُ عَلَيْهَا فَيَأْخُذُهَا ؟ فَقُلْتُ لَهُمَا : كَيْفَ تَدُلَّانِي
 عَلَى كَنْزٍ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ ؟ فَقَالَا :
 إِنَّ الْقَضَاءَ إِذَا نَزَلَ صَرَفَ الْعُيُونَ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيْءِ وَغَشَى
 الْبَصَرَ . وَإِنَّمَا صَرَفَ الْقَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرِكِ وَلَمْ يَصْرِفْهَا
 عَنْ هَذَا الْكَنْزِ . فَاحْتَفَرْتُ^(١) وَاسْتَخْرَجْتُ الْبَرْنِيَّةَ وَهِيَ

(١) إناء من خرف .

مَمْلُوءَةٌ دَنَانِيرَ ، فَدَعَوْتُ لَهُمَا بِالْعَافِيَةِ ، وَقُلْتُ لَهُمَا :
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَعْلَمَا ، وَأَتَمَمَّا تَطِيرَانِ فِي السَّمَاءِ ،
 وَأَخْبَرْتُمَا بِمَا تَحْتَ الْأَرْضِ . فَقَالَا لِي : أَيُّهَا الْعَاقِلُ ،
 أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ
 أَنْ يَنْجَاوِزَهُ . وَأَنَا أَخْبَرُ الْمَلِكَ بِذَلِكَ الَّذِي رَأَيْتُهُ : فَإِنْ أَمَرَ
 الْمَلِكُ أَتَيْتُهُ بِالْمَالِ فَأَوْدَعْتُهُ فِي خَزَائِنِهِ . فَقَالَ الْمَلِكُ
 ذَلِكَ لَكَ ، وَمَوْفَّرٌ عَلَيْكَ .

(انتهى باب ابن الملك وأصحابه)

بَابُ الْحَمَامَةِ وَالْثَعْلَبِ وَمَالِكِ الْحَزِينِ

وَهُوَ بَابٌ مَنْ يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ . قَالَ الْمَلِكُ
 لِلْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا
 فِي شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ .
 قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ وَالْثَعْلَبِ وَمَالِكِ
 الْحَزِينِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا مَثَلُهُنَّ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ
 نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي السَّمَاءِ ، فَكَانَتْ الْحَمَامَةُ تُشْرَعُ فِي نَقْلِ
 الْعُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْقُلَ مَا تَنْقُلُ
 مِنْ الْعُشِّ وَتَجْعَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ :
 لِطُولِ النَّخْلَةِ وَسُحْقِهَا ، فَإِذَا فَرَغَتْ مِنَ النَّقْلِ بَاضَتْ
 ثُمَّ حَضَنْتْ بَيْضَهَا ، فَإِذَا فَقَسَتْ وَأَدْرَكَ فِرَاحُهَا جَاءَهَا ثَعْلَبٌ
 قَدْ تَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهَا لَوَقْتٍ قَدْ عَلِمَهُ بِقَدْرِ مَا يَنْهَضُ فِرَاحُهَا ،
 فَيَقِفُ بِأَصْلِ النَّخْلَةِ فَيَصِيحُ بِهَا وَيَتَوَعَّدُهَا أَنْ يَرْقَى إِلَيْهَا
 فَتُلْقِي إِلَيْهِ فِرَاحُهَا . فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ أَدْرَكَ لَهَا فَرَخَانِ
 إِذْ أَقْبَلَ مَالِكُ الْحَزِينِ فَوَقَعَ عَلَى النَّخْلَةِ . فَلَمَّا رَأَى الْحَمَامَةُ
 كَثِيبَةً حَزِينَةً شَدِيدَةً اهِمَّ قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ : يَا حَمَامَةُ ،
 مَا لِي أَرَاكَ كَاسِفَةً اللَّوْنَ سَيِّئَةَ الْحَالِ ؟ فَقَالَتْ لَهُ : يَا مَالِكُ
 الْحَزِينِ ، إِنَّ ثَعْلَبًا دُهِيتُ بِهِ كُلَّمَا كَانَ لِي فَرَخَانِ جَاءَنِي يَهْدِدُنِي
 وَيَصِيحُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ ، فَأَفْرُقُ مِنْهُ فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فَرَخِي .
 قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ : إِذَا أَتَاكَ لِيَفْعَلَ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ :

لَا أُلْقِي إِلَيْكَ فَرْنَحِي ، فَأَرَقَ إِلَى وَغَرَّزَ بِنَفْسِكَ . فَإِذَا فَعَلْتَ
 ذَلِكَ وَأَكَلْتَ فَرْنَحِي ، طَرْتُ عَنْكَ وَتَجَوَّثُ بِنَفْسِي . فَلَمَّا عَلِمَهَا
 مَالِكُ الْحَزِينُ هَذِهِ الْحِيلَةَ طَارَ فَوَقَعَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ . فَأَقْبَلَ
 الثَّعْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ ، فَوَقَفَ تَحْتَهَا ، ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ
 يَفْعَلُ . فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلِمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ . فَقَالَ لَهَا
 الثَّعْلَبُ : أَخْبِرِيْنِي مَنْ عَلَمَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : عَلَّمَنِي مَالِكُ
 الْحَزِينُ . فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكًا الْحَزِينُ عَلَى شَاطِئِ
 النَّهْرِ ، فَوَجَدَهُ وَقِفًا . فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ : يَا مَالِكُ الْحَزِينُ :
 إِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ عَنْ يَمِينِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟ قَالَ : عَنْ
 شِمَالِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَيْتَكَ عَنْ شِمَالِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟
 قَالَ : أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِينِي أَوْ خَلْفِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ مِنْ
 كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ فَأَيْنَ تَجْعَلُهُ ؟ قَالَ : أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحِي .
 قَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحِكَ ؟ مَا أَرَاهُ يَتَهَيَّأُ لَكَ .
 قَالَ : بَلَى : قَالَ : فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ فَلَعَمْرِي يَا مَعْشَرَ
 الطَّيْرِ لَقَدْ فَضَّلَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا . إِنَّكُمْ تَدْرِينَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ

مَا نَدْرِي فِي سَنَةٍ ، وَتَبْلُغْنَ مَا لَا نَبْلُغُ ، وَتَدْخِلْنَ رُءُوسَكُنَّ تَحْتَ
 أَجْنِحَتِكُنَّ مِنْ الْبَرْدِ وَالرَّيْحِ . فَهَنِيئًا لَكُنَّ فَأَرِنِي كَيْفَ
 تَصْنَعُ . فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِهِ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ
 مَكَانَهُ فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمْزَةً دَقَّتْ عَنْقَهُ . ثُمَّ قَالَ : يَا عَدُوَّ نَفْسِي ،
 نَرَى الرَّأْيَ لِلْحَمَامَةِ ، وَتُعَلِّمُهَا الْحَيَلَةَ لِنَفْسِهَا ، وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ
 لِنَفْسِكَ ، حَتَّى يَسْتَمِكَ مِنْكَ عَدُوُّكَ ، ثُمَّ أَجْهَزَ عَلَيْهِ وَأَكَلَهُ .

فَلَمَّا انْتَهَى الْمَنْطِقُ لِلْمَلِكِ وَالْفَيْلَسُوفِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ
 سَكَتَ الْمَلِكُ . فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، عِشْتَ
 أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَلَكَتَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ ، وَأَعْطَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 سَبَبًا ، مَعَ وَفُورِ سُرُورِكَ وَقُرَّةِ عَيْنِ رَعِيَّتِكَ بِكَ ، وَمُسَاعَدَةِ
 الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَمَلَ فِيكَ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَزَكَ
 مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْقَوْلُ وَالنِّيَّةُ ، فَلَا يُوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ ،
 وَلَا فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ وَلَا عَيْبٌ . وَقَدْ جَمَعْتَ النِّجْدَةَ وَاللِّينَ ،
 فَلَا تُوجَدُ جَبَانًا عِنْدَ الْإِقَاءِ ، وَلَا ضَيِّقَ الصَّدْرِ عِنْدَ مَا يَنْوُبُكَ
 مِنَ الْأَشْيَاءِ . وَقَدْ جَمَعْتَ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ شَمْلَ بَيَانِ

الأُمُور ، وَشَرَحْتُ لَكَ جَوَابَ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْهَا ، فَأَبْلَغْتُكَ
فِي ذَلِكَ غَايَةَ نَصِيحِي ، وَاجْتَهَدْتُ فِيهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ
فِطْنَتِي ، التِّمَاسًا لِقَضَاءِ حَقِّكَ وَحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْكَ . بِإِعْمَالِ
الْفِكْرَةِ وَالْعَقْلِ . بِفَخَاءٍ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ،
مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالْخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنَ الْمُطِيعِ لَهُ فِيهِ ،
وَلَا النَّاصِحُ بِأَوْلَى بِالنَّصِيحَةِ مِنَ الْمُنْصُوحِ ، وَلَا الْمَعْلَمُ لِلْخَيْرِ
بِأَسْعَدَ مِنَ مُتَعَلِّمِهِ مِنْهُ . فَافْهَمْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَلَا حَوْلَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(انتهت الطبعة الثامنة عشرة)

١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
في يوم ١ من جمادى الثانية سنة ١٣٥٦
(٨ من أغسطس سنة ١٩٣٧)

مدير المطبعة الأميرية

محمد أمين الجبهجت

Bibliotheca Alexandrina



0364713